الكتب والمكتبات

في الأندلس

الدكتور عبد الرحمن علي الحَجِّي
أُستاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي

الكتب والمكتبات

في الأندلس

الدكتور عبد الرحمن علي الحَجِّي
أُستاذ التاريخ الإسلامي والأندلسي

027,046

ر ح ك ت

عبد الرحمن علي الحجي.

الكتب والمكتبات في الأندلس / عبد الرحمن علي الحجي، –ط 1 .– أبو ظبي:

هيئة أبوظبي للثقافة والتراث؛ المجمع الثقافي، 2007.

236ص

ببليوجرافية: ص 209 - 219.

يشتمل على كشافات.

1-الكتب – الأندلس.

2-المكتبات – الأندلس.

أ– العنوان.

1428 هـ - 2007 م

أبوظبي–الإمارات العربية المتحدة

ص.ب: 2380– هاتف: 00971 2 6215300

nlibrary@cultural.org.ae

www.cultural.org.ae

الكتب والمكتبات
في الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ اقـرأ باسم ربّك الذي خلقَ ۞ خلق الإنســانَ من علقٍ۞ اقـرأ وربُّك الأكرمُ الذي علّـــم بالقلم۞ علّـــم الإنسـانَ ما لم يعلم ﴾. [سورة العَلَق 1 ـ 5]

وقال عزّ من قائل:

﴿ ۞ أفَلَم يـسيـروا في الأرض فـتكونَ لهم قلوبٌ يَعْقِلونَ بهـا أو آذانٌ يسـمعــونَ بهـا فإنّها لا تـعمـى الأبصـارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدورِ ۞ ﴾. [سورة الحج، 46].

وقال صلّى الله عليه وسلّم: " مَثَلُ مَـا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ مِنَ الْهُـدَى وَالْعِلْمِ كَمَثَلِ الْغَيْثِ الْكَثِيرِ أَصَابَ أَرْضًا فَكَانَ مِنْهَا نَقِيَّةٌ قَبِلَت الْمَاءَ فَأَنْبَتَت الْكَلأَ وَالْعُشْبَ الْكَثِيـرَ وَكَانَتْ مِنْهَا أَجَادِبُ أَمْسَكَت الْمَاءَ فَنَفَعَ اللَّهُ بِهَا النَّاسَ فَشَرِبُوا وَسَقَوْا وَزَرَعُوا وَأَصَابَتْ مِنْهَا طَائِفَةً أُخْرَى إِنَّمَا هِيَ قِيعَانٌ لا تُمْسِكُ مَاءً وَلا تُنْبِتُ كَلأً فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ فَقُهَ فِي دِينِ اللَّهِ وَنَفَعَهُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ فَعَلِمَ وَعَلَّمَ وَمَثَلُ مَنْ لَمْ يَرْفَعْ بِذَلِكَ رَأْسًا وَلَمْ يَقْبَلْ هُدَى اللَّهِ الَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ. " . رواه البخاري ومسلم.

إهداء

إلى كلّ يمين أندلسية

خَطت كتاباً، أو صفحةً فيه

مُؤَلِّفةً أو مُسْتَنْسِخَة

واعيةً أو جامعة

انتفاعاً به ونشراً له

مُبتغيةً وجه الله سُبحانه

قربةً واحتساباً

أُهدي هذه الكلمات

تحيةً ووفاءً

تكرمةً وولاءً

المحتويات

بسم الله الرحمن الرحيم

تعريف وتاريخ

الحمد لله الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى و مكن فأعطى وعلم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم وفوق كل ذي علم عليم و الصلاة و السلام على خير خلق الله محمد رسول الله بعثه بالحق والهدى ليظهره على الدين كله وكفى بالله شهيداً , وعلى آله الأطهار وصحبه الأبرار وجنده الأخيار ومن والاه إلى يوم الدين.

لم أجد لموضوع:" الكتب و المكتبات في الأندلس " حتى هذه اللحظة(1421هـ = 2000م) مَن كتب عنه، غير بحث واحد مترجَم من الإسبانية يتناول طرفاً منه. و للأسف بقدر أهميته احتجبت عنه البحوث أو احتجب عنها. و تكمن أهميته في جوانب متعددة و تحمل ظواهر أساسية، تُعَبِّر وتتعلق بنوع بناء المجتمع المسلم في الأندلس، باعتباره جزءاً من العالم الإسلامي المتماثل المتكامل المتوحد. وهو يعبر عن العلم و مكانته وأهميته ومدلوله ومستواه و نوعيته ومقوماته ودوره وأهله وحامليه، بكل مواصفاتهم التي صاغها الإسلام، فصنعوا هذا المجد العلمي والاجتماعي والحضاري. وكان العلم عندهم أحد مواصفاتهم المترابطة، مع المواصفات الأخرى، التي وإن كان من أجل الدارسين له، نُظِر إليها منفردة، لكنها مترابطة مرتبطة بباقي أعضاء الجسم الاجتماعي لهذا المجتمع، الذي صاغه الإسلام، بشكل متفرد متميز، و لا بد أن يكون كذلك.

ليس هناك مَن تناول هذا الموضوع مستقلاً في الدراسات الحديثة إلا ما كان

من شذرات، ضمن موضوع عام تأتي إليه إشارات. أما في مصادرنا الأمهات فالمادة غنية جداً متناثرة في الكتب، ولاسيما في التراجم. وهي كثيرة نوعاً مّا في المصادر الأندلسية، التي نجت من النكبات المبيرة المبيدة، لكنها بحاجة إلى فهم و عمق و اصطبار للانتفاع بها، مطبوعة أو مخطوطة، حسب منهج و موضوع و بخطة محكمة.

وإني أتذكر قبل بضع سنوات في بغداد، أن اتصلت بي إحداهن، تعمل في مكتبة جامعة بغداد من خريجات قسم المكتبات، تطمح إلى الحصول على شهادة الماجستير عن مكتبات الأندلس، وتطلب المعونة. وأنها لم تجد عنه غير بحث بالعنوان الحالي نفسه، نشر عام 1972، سيذكر تاليا.

وأصل هذا الكتاب الحالي محاضرة ألقيت في الموسم الثقافي لجامعة الرياض (جامعة الملك سعود حالياً)، أشار وأشاد بالانتفاع به الدكتور محمد ماهر حمادة في مقدمة كتابه: " **المكتبات في الإسلام** ".

وهكذا كثير من البحوث في التاريخ الإسلامي وحضارته وخاصة الأندلس، نجد ساعة البحث فيه، قفراً أو بكراً وهي كثيرة. وأذكر قبل نحو 10 سنوات من الآن (2000م) كنت في مكتبة المعهد الإسباني العربي للثقافة في مدريد INSTITUTO HISPANO-ARABE DE CULTURA (MADRID) والتقيت هناك على طالب إسباني يحضر دراسة ماجستير في العَلاقات الأندلسية مع بيزنطة، وكنت قد نشرت بحثاً في ذلك (**العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة**) في مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد المجلد 22 (1983-1984) ، وإذا فصْلة (مُسْتَلَّة، مُسْتَخْرَج SEPARATE = OFFPRINT = EXTRACT, SEPARATA) من البحث

معه فقال إنه لم يجد غير هذا البحث في الموضوع. و بالمناسبة فإن هذا البحث توسع وغدا كتاباً وقد تم طبعه الآن و الحمد لله رب العالمين.

أقول: تم تنقيح و خدمة و تدقيق محاضرة: " الكتب و المكتبات " لينشر بحثاً في: " مجلة الدراسات الإسلامية " في بغداد التي كانت تصدرها كلية الدراسات الإسلامية هناك، في العدد الرابع (1392هـ = 1972م). ثم كان كتاباً، هذا الذي بين يديك. أتممت كتابة هذا الكتاب في بغداد سنة 1971م، في بداية الحياة التدريسية الجامعية، وكنت قد تخرجت صغيراً جداً والحمد لله و نسأله طول العمر وحسن العمل. ومن يومها و قبلها كنت مثابراً، لأن عملي واختباري يرتكز على محبة الإسلام وتاريخه، ويشهد بذلك العديد من الأساتذة. عملت في كتابة هذا الموضوع ومعي مصادري المتنوعة مطبوعة و مخطوطة وفيها من النوادر، أفرغت فيه كل عنايتي وفهمي وطاقتي. وهو الأمر الاعتيادي المهور جداً، و همةً وتعلقاً، متابعة وعناية دَيْناً ودِيْناً، كما هم علماؤنا الذين يجري الحديث عنهم، سَهِروا وبذلوا و سعوا في العلم، تلقياً و بذلاً. فتمت صياغة هذا الكتاب من المادة العلمية الغنية المتناثرة و تحليلها واستخراج مقوماتها وقراءة محتواها، لابتناء هذه الدراسة. لقد كتبته قبل نحو 30 عاماً و اليوم أُعِدُّه للطباعة و أجده متقدماً بحمد الله لا يحتاج إلى تعديل، مبنى ومعنى. وأحمد الله أن وفق لكتابة ذلك وقتَها. واليوم لا أجد ما أُضيف إليها إلا القليل والقليل جداً، ومن ذلك بعض المصادر الجديدة التي صدرت بعد ذلك التاريخ 1971م أو طبعة جديدة أو كتاباً استعملت مخطوطته وقتَها واليوم قد حُققت وطُبعت.

و لكن لماذا تأخر طبع هذا الكتاب المهم، طيلة هذه المدة؟ لم يكن ذلك من أجل الاستمرار في مراجعته أو تنقيحه، فمنذ أن كتبته حتى الآن لم أراجعه أو أنظر فيه، حتى و أنا أدفعه للطباعة، فقد رُكِنَ في رف أو ملف، حتى أصبحت رائحة الورق شبيهة برائحة ورق قديم متروك على الرف. ثم تَنَقَّل معي إلى أكثر من مكان خلال اشتغالي في جامعات عدة: جامعة الإمارات العربية المتحدة فجامعة الكويت ثم العودة إلى بغداد ثم عاد إلى الإمارات حتى جاء إلى صنعاء اليمن الآن، حيث دفعته كما هو إلى الطباعة على الكومبيوتر، اللهم عدا مراجعات تدقيقية تكميلية.

و لو قدر الله سبحانه و تعالى طبعه من وقته 1971م لكان طبع عدة مرات وجرى الانتفاع به و حَثَّ على بحوث و أعان على نتاجات وفَتَّح موضوعات وأَثَّر على كتابات. فإن تأخره فَوَّت كُلَّ ذلك. كما فَوّت من فوائد علمية عدمُ ترجمة أطروحة الدكتوراة، التي حصلت عليها و الحمد لله من جامعة كيمبرج CAMBRIDGE- بريطانيا، **عن العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية** الذي طبع كتاباً بالأنكليزية:

ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD, BEIRUT, 1970

والتي أكملت و الحمد لله لتوي ترجمتها إلى العربية، وعما قريب ستذهب إلى المطبعة إن شاء الله. فكم فَوَّتت من فوائد عدمُ ترجمتها المبكرة، وموضوعها - ككل شامل متسع - ليس فيه بحث مستقل، وبهذه الكيفية والنوعية و العمق، حيث جاءت مصادرها في اثنتي عشرة لغة.

والآن أحمد الله تعالى أن مكن من طبع هذا الكتاب (**الكتب و المكتبات في الأندلس**) على الكومبيوتر وأن حَفِظها من الضَّياع، وإن شاء الله ييسر

ظهورها كتاباً، بعد الخدمات التي قدمت له من العناية بالطباعة والتصحيح وعمل قائمة المصادر وكتابة هذه المقدمة.

أما هذا الموضوع المكتوب بصيغته الأولى نفسه فلم يمسه قلم التعديل أو التنقيح ولا حتى الزيادة. أما بعض الإضافات التي بمجموعها لا تكاد تتجاوز صفحتين حتى أُبقيت مع الحرص على عباراتها السابقة التي كُتبت بها، ولاسيما أن طريقتي ألا أغير فيما سبقت كتابته إلا الضروري جداً أو إضافة مصادر جديدة أو ظهور أمور كانت مجهولة أو تقديم معلومات ذات أهمية في الموضوع نفسه تقتضي الإشارة إليها أو التنويه بها، خدمةً للموضوع وتوضيحاً له.

و نسأل الله تعالى أن يرزقنا السداد و الرشاد و الهدى إنه على ما يشاء قدير و بالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد البشير النذير وعلى آله وصحبه وسلم.

تقديم لبحث " الكتب والمكتبات في الأندلس "

* نشر هذا البحث في **مجلة كلية الدراسات الإسلامية**، العدد الرابع (1392هـ = 1972م) .

* هذا البحث مثل غيره، ينصبّ على موضوع واحد في الحقل الأندلسي .

إنّ الكتابة المتواصلة والمتابعة المستمرّة في حقل التخصّص له أهمية في تعميق البحث وتأصيل علميته والارتقاء بشأنه، بعد الخبرة وطول الرحلة وتمكّن النظرة وتركيز الفكرة . بجانب كون هذه البحوث ليست أجزاءً ضمن الأطروحة ولا بحوثاً سبقت معالجتها، بل ـ عموماً ـ ولا حتى مصغّرة ولا مبعثرة فيها . فكلّها بحوث ـ وإن انتفعتْ بما سبق ـ فهي موضوعات جديدة وعزيزة الأهمية موفورة الصعوبة . وهذا يَكسب خبرة مديدة مركّزة تُوَسّع آفاق البحث بتَوَسُّع المعرفة، من خلال ذلك، تتناول الفائدة وتداورها وتعطي جديداً وتجويداً أصيلاً لكلّ منها، لا سيما إذا احتملت بذلك الجدّيةُ والحرص والاصطبار مع الأمانة والدقّة وطول الأناة .

* وكلّ هذه الأمور والمواصفات والقضايا تعطي أصالةً وابتكاراً، بفضل الله تعالى . وهذا ما جرى عموماً في الأعمال العلمية كافّة، وغدا لها طابَعاً وخلقاً ومسلكاً .

* يعالج هذا البحثُ موضوعَ" **الكتب والمكتبات في الأندلس**" ، والإنتاجُ الحديث فيه قليل والقديم عنه متناثر، عدا بحث مترجم لربيرا " **المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية**" . وميدانه يختلف عن

البحث الحالي الذي هو أوسع أطرافاً وأكثر امتداداً وأشمل آفاقاً وأعمق جذوراً. فذاك ـ وقد جرى الانتفاع به ـ يهتمّ بإحصاء المكتبات وجامعي الكتب وأمور أخرى. وهو بحث جيّد، ويمثّل موضوعُه جزءاً من هذا البحث الحالي المتعدّد الأجزاء والقضايا والجوانب، والذي ـ بجانب ذلك ـ يهتمَ بظاهرة الكتاب وتعليلها وارتباطها وسعتها وآثارها وأسبابها ونتائجها ومدلولاتها الحضارية الإنسانية الصحيحة الرفيعة، حقولاً وغروساً وعلماً نافعاً، بذلاً وتلقيّاً واهتماماً أصيلاً وشغفاً عالياً في أفق واسع لم يترك خليّا منه أو أعزل، وإنتاجاً متنوعاً عميقاً ودوافع بعيدة وسرّاً مرتبطاً بالعقيدة. فغدا بأعرافه ورسومه والعناية به والاقتناء لأدواته وثرواته زاداً لكلّ أفراد الناس. فأورث ذلك شيوعَ المعرفة بينهم، نساءً ورجالاً، وحتى لغير المسلمين، مع العمق الذي أنتج أعلاماً وموسوعيين في الميادين كافّة، بكثرة كاثرة قد تفوق نسبة أيّ بلد اليوم معاصر متحضّر، رغم البون الشاسع في الوسائل التعليمية والنشر.

وهؤلاء العلماء وَرِثوا العلمَ وورّثوه. وكم من بيوت أو أسر قدّمت أعلاماً عُرِفَت بهم. ثمّ نرى كثرة التأليف في وقت قصير أو طويل وبأفق واسع وباع طويل ونَفَسٍ لا يَمَلُّ وجهد لا يَكِلُّ، ورغبة في التحصيل والتمويل والفخر باعتلاء المعرفة. وهو مما يُمَيِّز الأقران ويُرَجِّح الميزان، وغدا كلُّ ذلك بشكل مدعّم بالنصّ واضح بالدليل مزيّن بالمثال.

* جرى الاهتمام بالأمور ذات الصلة بهذه الظاهرة ومتمّمة لها، أو هي من مستلزماتها. وهو الحديث عن موضوع الورق وصنعة الوِراقة (مهنة استنساخ الكتب) والرِّقاقة (بيع أدوات الكتابة)، وهي أمور امتاز بها العالم

الإسلامي وسبق، وسارت الأندلس فيه بشوط بعيد.

* زادت مصادر البحث عن الأربعين [وفي الكتاب عن مئة]، وجرى على تتبّع النصوص ودراستها ومقارنتها وإبداء الملاحظة حولها. وتمّ استحضار النصوص المعبرة، وبعضها لا يخلو من طرافة. في بيان حقيقة الأمر. كما يمكن هنا تكرار ذكر العديد من الملاحظات الواردة عن الكتاب وبقية البحوث المتعلّقة بهذه القضية وغيرها، من مواصفات البحث الأصيل أو المبتكر، مما هو ملاحظ في البحث.

*** جرى التركيز في البحث على الصبغة الحقيقية لظاهرة العلم والكتاب وتعليل متعلّقاتها. وهي مستمدّة ومرتبطة بالعقيدة الإسلامية التي دفعت فأعلت وعلّمت فجادت وحثّت فزادت.**

* ولعموم هذا الاهتمام بالعلم وأدواته في المجتمع الأندلسي، باعتباره جزءاً من العالم الإسلامي، تولّدت حركةٌ دَفْعٍ فيه، أنشأت تياراً جاذباً، أسهم فيه كلّ واحد حتى الحكّام، وبعضهم عُرِف به، وتركّزت شهرته عليه. وكان بعضهم يستكتب العلماء. وآخرون أيضاً ممن قد تَحُول مشاغلُهم ومهنهم دون ذلك. وكثير من الناس من كلّ صنف، وميدانهم الطبيعي غير هذا لكن شهرتهم قامت على العلم والكتاب أو نال منهم كبير اهتمام.

* كذلك كان أصحاب الوظائف والمهمّات الإدارية المتعلّقة بهذا الأمر: "**العلم والكتاب**"، من الذين مارسوا هذه البضاعة وتمرّسوا بها، بذراً وحصداً، وبدرجة عالية أحياناً.

* وللمشرق الإسلامي على مغربه فضل كبير، ميدانا للتلقي أو منبعا للتصدير. فكان للأندلسيين مَزارا، يحملون منه البضاعة.

* جرت المقارنة بين الأندلس وبين بقية القارة الأوربية المتّصلة بها، فبدا الفارق واسعاً شاسعاً، مما لا يجيز المقارنة، وجرت فيما بعد ترجمة الكثير جداً من الكتب في الأندلس وخارجها لتنقل إلى أوربا.

* كان الاهتمام عامّاً بين أصناف الناس، كما تنوّعت المكتبات خصوصا وعموماً، ولكن ظاهرةً مهمّة في هذا الأمر " **العلم والكتاب** " : أنّ مواطنه الخاصة تفوق الحكومية آماداً. ولعلّ هذا جعل أيضا أساليب التدريس ومنهجيته متحررة متنامية، مدعاة للإبداع الأصيل والنمو المتألق والثبات المتعمق. ولكن مآل هذه الأمور وقلبها النابض وعينها الثرّة هو المَسْجد. وكان ذلك يسيراً متسابقاً مع ظاهرة أخرى، فليست هذه العلوم مرتبطة بالمسجد مكانياً، ولكنها مرتبطة به توجيهيا وإيمانياً وولاء.

فهو (**العلم**) عقيدة قبل كلّ شيء، في كلّ انطلاقاتها وخيوطها، وضمن هذا الإطار النقيّ الثريّ كان النموّ والإبداع والاتساع.

* وقياماً على العناية بالكتاب وارتباطا بمكانته امتدّت آثار ذلك إلى ارتباطات أخرى: **العناية بمكان الكتاب (المكتبات) وتنظيمها، والعناية بالكتاب تقديراً وإكباراً، في مُثُلٍ كريمة وعُرْفٍ فضيل.**

* كلّ تلك الظواهر أفصحت عن اهتمام وتعلق واكتراث جمّ **بالعلم والكتاب** وشمول تام لكلّ مستوى، أنتج ثروة ثَرّة وتجارة عامرة وبناء شامخا قاوم في كلّ الظروف ودام حيّاً رغم العواصف، حتى بدت ظاهرة أخرى

طريقة لطيفة ورفيعة فاضلة، هي : **ظاهرة الاحتساب في العلم والكتاب وابتغاء الأجر لوجه الله تعالى وظاهرة التحبيس (الوقف) ابتغاء الأجر عند الله ، وهما من ظواهر أخرى تميّزت بها الحضارة الإسلامية.**

* تلك كانت مقوّمات العلم وارتباطاته . وهذا لا يعني الاهتمام فقط بالعلوم الشرعية، ولكن العلوم الشرعية هي الأساس والضياء، منها جرت سائر العلوم التي كانت أساساً فيما نَقَلَ الأوربيون وترجموا من بعضها .

* لقد كان العلم تلقّياً وبذلاً وإنتاجاً وجواً، يتّسم بمواصفات ويقوم على قواعد أساسية، وفيه يظهر الجانب العملي التطبيقي والخلقي الإيماني القائم على العقيدة والعبادة وطلب رضا الله تعالى. فاعتبرها تطبيقية . بل الشرعية هي التطبيقية قبل غيرها من العلوم (Science) بل هي التي أقامتها ووجهتها وحضرتها . لتكون لصالح الإنسان وخيره، لا لتدميره، ولأمنه وحمايته لا لإرهابه . وكان للعلم والعلماء سمت ومسلك تزول عن صاحبه تلك الصفة بزوال ذلك السَمْت تطبيقا ووجهة وتكريما للإنسان بناء وارتقاء وأغلاء . **وهذه ظاهرة أخرى تتميز بها الحضارة الإسلامية**، فإطلاق اسم العالم عند المسلمين وارتفاع مكانته لديهم يَطّرِد مع مقدار تمسّكه بالإسلام وأخذه بمضامين العلم التي دارت وارتبطت وشُيّدت على أساس منهج القرآن الكريم وتوجيهه وسنّة الرسول صلّى الله عليه وسلّم وسيرته وتطبيقاتهما، فدارت في ذلك الفلك علماً وعملاً . وكان ذلك في البحث ظاهراً بارزاً، باعتباره صورةً لواقع المجتمع ودراسة قائمة على نصوصه وأخباره وشرح أحواله .

* ولكن تلك الحصيلة الفخمة الضخمة التي ارتقت وتكاثرت خلال

الأيام، انتهت بفاجعة على يد الحكم الصليبي في إسبانيا وبزعامة الرهبان، فأتلفت حصيلة الفكر المؤمن وعلوم العقيدة ومصنّفات العبادة، وقضت عليها حرقاً، مُعْتَبِرةً ذلك اليومَ لها عيداً، وإن تفلّت أقلّ من القليل منه بطرق محدودة وضيّقة. وهذا مع غيره ثوى حبيساً في ثَرى الأسكوريال(EL ESCORIAL)، حتى انتفض واستوى غير بعيد. حيث نجد هناك اليوم بقية في نحو ألفين من المخطوطات في ذلك القصر المُطِلّ على الوادي، هو بحاجة إلى أيدي العلماء وعناية المؤسسات العلمية.

* وهكذا قَدَّم هذا البحثُ هيكلاً ورسم صورة فيها الكثير من الأصالة والجِدَّة والابتكار، وهي قابلة للتحسين والتوسيع والتنويع [وهو ما تمّ في هذا الكتاب والحمد لله رب العالمين وله الفضل والمنة]. كما عدّد البحث ظواهرَ وأبرز سِماتٍ ونوّه بمستلزمات انطبعت بها الحضارة الإسلامية ذات المواصفات الخاصة تميّزت بها، كَمّاً ونوعاً في كلّ الأحوال والظروف، استمرّت في العطاء الخيّر النضير الوضيء. ومنها **أيضا ظاهرة العلم والكتاب**، الذي ارتبطت حياته منذ الولادة وعلى طول الطريق بالإسلام في كلّ جزئية منه وخطوة فيه وحركة له.

* ويُعَدُّ هذا البحث ـ بإذن الله تعالى وعونه وفضله، [ثمّ عند توسيعه كتاباً، في ثوبه الجديد] ـ ليكون في مستقبل غير بعيد كتابا مستقلاً، وها هو ذا قد كان والحمد لله.

* ومن الممكن اختيارُ بعضٍ مِن جوانب البحث أو قضاياه ليكون كلٌّ منها بحثاً مستقلاً:

1 ـ " **الأسر العلمية** " أو " **أسر العلماء** " ، أي : الأسر التي قدَّمت كلٌّ منها عِدَّةَ علماء ومن الأعلام، نساءً ورجالاً [أمثال بنو رُشْد وبنو جَحّاف وبنو زُهْر].

2 ـ ظاهرة الاحتساب والتحبيس للعلم في الأندلس.

3 ـ الورق والوراقة في الأندلس.

4 ـ الأندلس ونشاط الترجمة إلى أوربا.

المقومات العلمية في الحضارة الإسلامية

هذه الدراسة تكشف عن وجه الحضارة الإسلامية وبيان حقيقتها والتعرّف على إطارها الأصيل وصورتها الوضيئة وحدودها الإنسانية الواسعة.

ولا تقوم هذه الدراسة على تعداد وذكر الجوانب العلمية وإنتاجها وأعلامها حسب، بل هي أوسع من ذلك وأعمق، أوسع منها في آفاقها وشمولها وأعمق منها في أغوارها وجذورها الراسخة. وهي تعنى بتوضيح وإشهار وبيان أثر الإسلام في كلّ خطوة، حين كان المجتمع المسلم ملتزماً بالإسلام، فرداً وجماعة ومجتمعاً ودولة، وبيان أنّ كلّ ذلك مرتبط بالإسلام عقيدةً وشريعة، نتعرّف على الصور الإسلامية والحياة من خلال حال المسلمين. وهنا من خلال الحياة العلمية، بأعرافها وظواهرها ومنهجيتها وقيمتها وقيمها، بالأمثلة والوقائع والشواهد القولية والفعلية. والحياة العلمية قامت على أسس قوية قويمة، تقرأ فيها ـ مثلما تقرأ في غيرها ـ عقيدة الإسلام وشريعته التي شملت كلّ نواحي المسلم وأموره والحياة في كلّ جانب منها. وأنّه لم تنقص لكنها نراها تقوم على إنتاجها تعبر وتفهم منه أنّ أعزّ ما لدى المسلم جميعاً في حال أقرب إلى الله يسعى لتأكيده ونزنه (تزيّنه). وهي ظواهر متعددة في الحياة العلمية والإنتاج. وأنوي إن شاء الله استكمال كتاب في دراسة الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي، يقوم مستنداً ومستمداً شواهده من هذا الكتاب.

المنطلق العلمي وآثاره

انطلق المسلمون بإيمانهم العميق بالله، وبرسالة الإسلام الخالدة، التي مُلئت بها نفوسُهم وازدانت فعالُهم، إلى الحياة يشيدونها بالخير ويملؤونها بالمحبّة وينيرونها بالمعرفة الحقّة. فعَمَروا الأرضَ بالفضائل وأضاءوا دياجيرها، فكشفوا عنها ظلامها، عبادةً لله، وجعلوا ليلها كالنهار، بعد أن كان نهارها كالليل الحندس شديد الظلام. فوضعوها على المحجّة ولاتَ غيرها دواماً. كما أشار إلى ذلك الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم في معنى حديثه الشريف "تركتكم على المحجّة البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها إلا **هالك**". [جامع الأصول، 92/1].

فكلّ الأرض ـ على رَحْبها ـ محراب المسلم، ما دام يتقرّب بعمله إلى الله عزّ وجلّ ويتوجّه بقلبه إليه. وذلك سرّ هذا الإسلام، يدركه أهله ولا يغيب عن مراقب. يقول ابن حزم الأندلسي (456هـ = 1063م)، حين الحديث عن إنتاج "لم نقصد به قصدَ مُباهاة فنذكرها، ولا أردنا السمعة فنُسَمِّيها، والمرادُ بها رَبُّنا جلّ وجهه "(1).

ويقول العلامة الشهيد أبو الربيع سليمان بن سالم الكَلاعي الأندلسي (634هـ) في مقدّمة كتابه " **الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء**" : " وكلّ ذلك ـ يشهد الله ـ أنّ المراد فيه بالقصد الأول وجهه الكريم، وإحسانه العميق، ورحمته التي منها شقّ لنفسه أنّه الرحمن الرحيم"(2).

---

(1) نفح الطيب، المقّري (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968)، 177/3.

(2) الاكتفاء، أبو الربيع الكلاعي (تحقيق مصطفى عبد الواحد، القاهرة)، 5/1.

أما العلامة أبو القاسم الشاطبي (590هـ) فقد نظم قصيدته "الفريدة"[3] "**حرز الأماني ووجه التهاني**" التي أودعها القراءات السبع، " وعدّتها ألف ومئة وثلاثة وسبعون بيتا "[4]، وقال عنها: "لايقرأ أحد قصيدتي هذه إلاّ وينفعه الله عزّ وجلّ بها، لأنّي نظمتها لله تعالى مخلصاً في ذلك"[5].

فليس أحلى ولا أوقع ولا أقوى من كلام لإنسان يراد به وجه الله تعالى[6].

وطلبُ العلم لله سبحانه يجعل صاحبه يعتزّ بالله تعالى فلا يستعمله إلاّ فيما يرضيه، ويشعر بالقوّة به فلا يُذلُّ لسلطان ولا يَذلّ علمَه، أو يبيعه سلعةً يقهرها صبّاً في أيّ قالب أو يطرحها في كلّ سوء.

فيذكر ابن الأبار في **التكملة** حادثةً مؤداها أن هاشم بن عبد العزيز (273هـ) وزير الأمير محمد الأثير[7]، ذهب إلى مجلس الشيخ أبي وَهْب عبد الأعلى يستفهم عن مسألة فقه فأفتاه. ولما قام الوزير لينصرف تحرّك أحدهم ليقوم معه فأجلسه أبو وَهْب ثمّ قال له: " ما أردتَ بهذا؟ كنتُ: أردتُ إكرامه في مجلسك. فقال لي: بئس ما صنعتَ، يا هذا: إن كنتَ تطلب العلم لله تعالى، فاعتزّه ليعزّك الله تعالى؛ وإن كنت تطلبه للدنيا فخلِّ عنا، وكن خادماً لهؤلاء متصرفاً بين أيديهم، فهو أنفق لك عندهم

(3) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك الأنصاري المراكشي (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1965)، 5/2/551.

(4) وفيات الأعيان، ابن خلكان (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1968)، 71/4.

(5) وفيات الأعيان، 4/ 71. كذلك: نفح الطيب، 2/ 24 ـ 25. وعن مثل آخر في هذا الباب انظر: بغية الملتمس، ابن عميرة الضبي (القاهرة، 1967)، 194.

(6) قارن: الصلة، ابن بشكوال (القاهرة، 1966)، 78.

(7) الحلة السيراء، ابن الأبار (تحقيق حسين مؤنس، القاهرة، 1963)، 1/ 137.

وآكد لك عند خالقك" فخجل الرجل وحافظ على وصية الشيخ[8].

العلم والعمل

والعلم (ثمّ العمل النظيف الخيّر) عند المسلم شقُّ الإيمان وثمرته، وبه يرتفع ويسمو ويعمق ويصفو ويصبح هادفاً نافعاً " اللّهمّ إنّي أعوذ بك من علم لا ينفع "[9]. فيغدُو العلم - من ناحية طلبه وإبلاغه والحرص عليه والتقوى في نقله، وكذلك العمل به - جزءاً من العقيدة التي لا ترتضي غير الدقّة والإخلاص والأمانة. وهي وسائل البحث العلمي المتين الأمين. فهو فضيلة وضيئة و" خير الفضائل ما سطع نوره وانتشر ذكره وكان علّة لفضائل وسبباً لمفاخر"[10].

ومن نصيحة القاضي محمد بن يحيى بن بكر الأشعري (شهيد معركة طَرِيف سنة 741هـ، جنوبي الأندلس) لطلبته قوله: " ولبكن همّكم أن تكونوا من الديانة والدراية بمثابة مَن يُقْبَل قوله فيما يدّعيه ولا يُكَذَّب فيه"[11].

كما يدعو الإيمانُ إلى الإنفاق المتطوّع الحريص، على هيئة من الشمول فريدة. ومَن لم يمارس لوناً من المعرفة كان هالكاً " أغدُ عالماً أو متعلماً أو

---

(8) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار (طبعة العطار، القاهرة، 1375 / 1956)، 2/ 751ـ752.

(9) من حديث شريف.

(10) قضاة قرطبة وعلماء إفريقيا، ابن حارث الخشني (طبعة العطار، القاهرة، 1372)، 10.

(11) المرقبة العليا، أبو الحسن النباهي، (نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948)، 146.

مستمعاً أو محبّاً ولا تكن الخامسة فتهلك "[12].

والحديث عن العلم في الإسلام مستفيض وبحره زاخر لا يغيض، وليس هنا موضعه[13]، بل الحديث هنا عن الكتاب إحدى ثماره.

فالكتاب وعاء العلم ومستودعه، يحفظه ناقلاً من السلف إلى الخلف، جيلاً بعد جيل. كما أنّ إدراك العلم وفهمه وتمثُّلَه وتسخيره لنفع الإنسان وخيره ومعرفة مكانته في الوجود هو الغاية، والكتاب وسيلة إيصاله، لا لحمله أسفاراً. ويعبّر عن هذا المعنى الرحالةُ والجغرافي الأندلسي أبو حامد الغَرناطي (دمشق، 565هـ) بقوله:[14]

العلمُ في القلب ليس العلمُ في الكتبِ   فلا تكن مُغْرَماً باللهو واللعبِ
فاحفظهُ وافهمه واعمل كي تفوز به   فالعلمُ لا يُجتنى إلاّ مع التعبِ

ومن قصيدة مطوّلة في " **الآداب والسُّنَّة**" وجَّهها إلى بنيه الكاتب أبو مروان عبد الملك بن إدريس الجزيري (394هـ = 1004م) يبجّل فيها العلم والعمل به:[15]

---

(12) حديث شريف، رواه الطبراني والبزار ورجاله موثقون (جامع بيان العلم، 1/ 36).

(13) لأبي عمر يوسف بن عبد البر كتاب" جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله"، جيد في هذا الباب، وهو في جزأين.

(14) نفح الطيب، 2/ 236.

(15) جذوة المقتبس، الحميدي، (القاهرة، 1966)، 280(ترجمة رقم: 624) [الترجمة الجديدة، 2/ 445]. بغية الملتمس، الضبي، 374 ـ 375 (رقم: 1058). إعتاب الكتاب، ابن الأبار (تحقيق صالح الأشتر، دمشق، 1380/ 1961)، 194. الصلة، ابن بشكوال (القاهرة، 1966) 357 (رقم: 763). المُغْرب في حُلَى المَغْرِب، ابن سعيد الأندلسي (تحقيق شوقي ضيف، القاهرة،=

واعلمْ بأنَّ العلمَ أرفعُ رُتْبةٍ　　وأجلُّ مُكتسَبٍ وأسنى مَفْخَرِ
فاسلك سبيلَ المُتقنين له تَسُدْ　　إنّ السيادة تُقْتنى بالدفترِ
والعالم المدعوّ حبراً إنّما　　سمّاه باسم الحبر حمْل المحبر
تسمو إلى ذي العلم أبصار الورى　　تغضّ عن ذي الجهل لا بل تزدري
وبضمّر الأقلام يبلغ أهلها　　ما ليس يبلغ بالعتاق الضمّر
والعلمُ ليس بنافعٍ أرْبابَه　　ما لم يُفدْ عمَلاً وحُسْنَ تَبَصُّرِ
فاعْمَلْ بعلمك تُوف نَفْسَك وَزْنَها　　لا تَرْضَ بالتَّضْييع وزن المَخْسرِ
سيَّان عِنْدي عِلْم مَن لم يَسْتَفِد　　عَمَلاً به وصلاةُ من لم يَطْهُرِ

وقد أُشيد بالعلماء بأنّ أحدهم" كان من أهل العلم والعمل "(16)، أو يُذْكَر تَحلِّيه بأنواع من العلم والصفات العملية الفاضلة، الأمر الذي سيرد منه الكثير في طيات هذا البحث.

الحفظ والاستيعاب

وظاهرة الحفظ والاستيعاب، واضحة منظورة في تاريخ العلم عند المسلمين. وهي صفة لازمة متمشية مع الأصول الإسلامية، وهي لها ثمرة. من ذلك ما ينقله المَقَّري في **نفحه** من أنّ الحافظ أبا عمرو الداني(دانية، 444هـ)" كان يقول: ما رأيت شيئا قط إلاّ كتبته، ولا كتبته إلاّ حفظته، ولا

= 1964)، 1/321. انظر كذلك: الروض المعطار (بيروت)، 391. ووردت " المقتنين " بدل " المتقنين"، كما وردت "الجياد" بدل " العتاق" والمعنى واحد.

(16) التكملة، 1/166. برنامج شيوخ الرعيني، 42. الإحاطة، 4/238. نفح الطيب، 2/140. وانظر: سير أعلام النبلاء، الذهبي، 18/188. أدناه، 30 وبعدها 168-178.

حفظته فنسيته"[17]. وليست هذه ظاهرة نادرة بل هي كثيرة مألوفة، طالما تكرر وتوافر وصف أصحابها بأنّهم" من أهل الحفظ " . فوُصف هارون بن سالم (238هـ) بأنّه" كان يحفظ المسائل حفظاً حسناً "[18].

ويذكر المقري في **نفحه** عن الفقيه الحافظ المتبحر أبي عبد الله محمد بن عمر بن يوسف بن الفَخّار القُرطبي (419هـ) بأنّه" كان من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم، عارفاً بمذاهب الأئمة وأقوال العلماء، ذاكراً للروايات، يحفظ **المدونة والنوادر** لابن أبي زيد، ويوردها من صدره دون كتاب"[19]. **والمدونة** في الفقه المالكي، من أجلّ كتب المالكية أخذها سحنون فقيه المغرب وقاضي قضاتها (240هـ) عن مؤلفها أبي عبد الله عبد الرحمن بن القاسم بن خالد بن جنادة العتقي (132 ـ 191هـ)[20].

ويذكر ابن الأبار عن الحافظ أبي عمر بن عات (المُسْتَشْهَد سنة 609هـ) بأنّه كان" يسرد الأسانيد والمتون ظاهراً فلا يخلُّ بحفظ شيء منها"[21]

(17) نفح الطيب، 2/ 136.

(18) تاريخ علماء الأندلس، الحافظ أبو الوليد بن الفرضي (القاهرة، 1966)، 2 / 169 (رقم: 1530). المقتبس من أنباء أهل الأندلس، ابن حيان القرطبي (تحقيق محمود علي مكي، القاهرة، 1390 / 1971)، 221.

(19) نفح الطيب، 2/ 61. كذلك: الوافي بالوفيات، الصفدي، 4/ 245.

(20) عن ابن جنادة راجع: وفيات الأعيان، 3/ 129. العبر في خبر من غبر، الحافظ الذهبي، (تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، 1960)، 1 / 307.

(21) التكملة، 1 / 101 (رقم: 262). كذلك: نفح الطيب، 602/2. . الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، (تحقيق محمد بن شريفة، بيروت، بدون تاريخ)، 1/ 560.

وكان يحفظ **البخاري والموطأ** وكان يقرأ منهما" نحو عشرة أوراق عرضاً بلفظه كلّ يوم عقب صلاة الصبح لا يتوقّف في شيء من ذلك"[22]. إضافة إلى محفوظاته الأخرى[23]. وذُكر عن أبي عمر الباجي (أحمد بن عبد الله ابن محمد بن علي اللخمي الإشبيلي المتوفى سنة 396هـ) أنّه" كان يحفظ عدّة مصنّفات"[24].

أما أبو الحسن فرج بن أبي الحكم بن عبد الرحمن بن عبد الرحيم اليَحْصُبي من أهل طليطلة (448هـ) فقد" كان يحفظ **المُسْتخْرَجَة** الكبيرة حفظاً جيداً "[25]. وكذا أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زُهْر (507ـ مراكش، 595) المتفرد بالإمامة في الطبّ في وقته كان" **يحفظ صحيح البخاري** أسانيدَ ومتوناً"[26].

ومن غير شكّ فإنّ هذا يأتي نتيجة المقدرة والمستوى العلمي الجيد والرغبة القوية والحرص وبذل الجهد والصبر عليه والمواظبة فيه، مع التفتّح في القابليات، مُقاماً على حياة علمية ناصعة أصيلة شاملة في المجتمع. فيذكر

(22) الذيل والتكملة، 1/ 560.

(23) الذيل والتكملة، 1/ 560.

(24) العبر، الذهبي، (تحقيق فؤاد سيد، الكويت، 1961)، 3/ 60. جذوة المقتبس، 128 (رقم: 223). بغية الملتمس، 185 (رقم: 423).

(25) الصلة، 461 (رقم: 986). وعن أمثلة أخرى راجع: الصلة، 417ـ418. كذلك: نفح الطيب، 2/ 648.

(26) التكملة، 2/ 555 (رقم: 1499).

الضبي في **بغيته** حين الحديث عن القاضي الإشبيلي أبي بكر محمد بن العربي (543هـ) بأنّه " كان يحفظ في كلّ يوم سبع عشرة ورقة "[27].

وقاضي الجماعة بقرطبة أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن فُطَيْس (402هـ)، الذي كان عالي الطبقة وذا قدرة علمية نادرة ودرجة كبيرة من " سعة الرواية والحفظ والدراية، وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده ومُسْتَمْلٍ بين يديه على ما يفعله كبار المُحَدِّثين بالمشرق والناس يكتبون عنه "[28].

أما الإمام العلامة أبو القاسم الشاطبي (590هـ) فقد كان" كثير المحفوظات جامعاً لفنون العلم . . . مُسْتَبْحِراً "[29]. وحين سئل عن حفظه الفقه قال: "إني أحفظ وِقْرَ جَمَلٍ مِن كتب"[30].

وطبعاً فإنّ حفظ القرآن الكريم وأحاديث الرسول صلّى الله عليه وسلّم أمر متوافر متعارف، ولكن هذا الوصف يشمل زيادة على ذلك.

كرامة العلم ومكانة أهله

إنّ كثرة الكتب وتنوّعَها واهتمام أمّةٍ ما بها، نتيجة طبيعية لمستواها العلمي العالي ولشيوع المعرفة فيها ولعنايتها بمرافق العلم وتكريم أهله

---

(27) بغية الملتمس، 93 (رقم: 179).

(28) الصلة، 310 (رقم: 682). كذلك: ترتيب المدارك، القاضي عياض (تحقيق أحمد بكير محمود، بيروت، 1384هـ = 1965م) المجلد الثاني، 671.

(29) الذيل والتكملة، 5 / 549(رقم: 1088).

(30) الذيل والتكملة، 5 / 549. نفح الطيب، 2 / 25.

وتشجيعهم واستقبال القاصدين لها والنازحين من حامليه وطلابه، استمداداً من الشريعة الإسلامية التي اعتبرته أساساً وقياساً في الواقع وأقامت عليه مجتمعه وتعاملت به وزهت بها حياتها وبه نعمت، ويصبح ذلك حَلْبةً مُتَسابَقاً فيها الناس، ويتعاونون على البلوغ حتى غدا طبيعة وصفة لازمة وامتيازاً يحمل مؤنته بقوة متأصلة وحيوية متجددة وهمة لاتعرف التردد والنكوص بل هي ماضية ببهائها ونقائها وحسن رعايتها وأمانتها، معطاءة مضحية متقدمة بَرّة متزودة بالتقوى وهو خير زاد، فكثر الإنتاج وارتقى العلم واتسعت المعرفة.

وهذه الصفة منطبقة على العالم الإسلامي كافة ، وإن تفاوتت في الدرجة، تشهد بذلك الحقائق والمواقع والأمثلة والشواهد . فيقول ابن خَلدون في **مقدمته**: " وطما بحرُ العُمران والحضارة في الدول الإسلامية في كلّ قطر وعظم المُلك، ونَفَقَت أسواقُ العلوم وأُجيد كَتْبُها وتجليدُها، ومُلِئت بها القصور والخزائن الملوكية بما لا كِفاءَ له وتنافس أهل الأقطار لذلك وتناغوا فيه "[31].

ولقد عُرفت الأندلس - وغيرها من البلدان الإسلامية - بـ" كثرة علمائها، ووفور أدبائها، وجلالة ملوكها، ومحبّتهم في العلم وأهله، **يعظّمون من عظّمه** علمُه، ويرفعون من رفعه أدبُه "[32].

---

(31) مقدمة ابن خلدون (دراسة وتحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1387 / 1967)، 3 / 1090 .

(32) نفح الطيب، 3 / 157 .

ومن مأثور الأمثلة ما ترويه كتب التاريخ عن العالم اللغوي " المذكور بالديانة والفقه والورع " (33) أبي غالب تَمّام بن غالب المعروف بـ" ابن التَيّاني " (المرية، 436هـ= 1044م) أنّه صنّف كتاباً جليلاً " **تلقيح العين**"(34). والتياني قُرطبي الأصل، كان يسكن مدينة مُرْسِيَة (Murcia) شرقي الأندلس. ولما وقف على هذا الكتاب الأمير أبو الجيش مجاهد بن عبد الله العامري، أيام تغلّبه على مُرْسِيَة، أرسل إلى ابن التياني ألفاً من الدنانير الأندلسية مع كسوة، على أن يزيد في ترجمة الكتاب عبارة: "مما ألفه تمام بن غالب لأبي الجيش مجاهد"(35). لكنّ أبا غالب ردّ على الأمير مجاهد الألف دينار والكسوة وقال: "كتاب صنّفته لله ولطلبة العلم أصرفه إلى اسم ملك، هذا والله ما لا يكون أبداً "(36). فكان أن زاد التياني في عين مجاهد وعظم في صدور الناس " .

ويذكر الحُمَيْدي في **جذوته** أنّ التياني قال أيضا بهذه المناسبة: "والله لو بُذِلَت لي الدنيا على ذلك ما فعلتُ ولا استجزتُ الكذب، فإنّي لم أجمعه له خاصة، لكن لكلّ طالب عامة فاعجب لهمّة هذا الرئيس وعلوّها واعجب لنفس هذا العالم ونزاهتها" (37) فـ"هكذا ينبغي أن تكون الملوك وكذا

---

(33) نفح الطيب، 3/ 172. وفيات الأعيان، 1/ 300.

(34) فهرسة ابن خير (الطبعة الجديدة المنقحة، 1382هـ = 1963م)، 359-361 .

(35) جذوة المقتبس، الحميدي، 183.

(36) المغرب في حلي المغرب، 1/ 166. والأمثلة في هذا الباب كثيرة. انظر مثلا: التكملة، 2/752.

(37) جذوة المقتبس، 183. كذلك: نفح الطيب، 3/172. إنباه الرواة، 1/ 260 .

يجب أن تكون العلماء " على حدّ تعبير الحجَاري[38].

فكانت للكلمة عند العلماء والكُتّاب المسلمين مكانتها وأهميتها، وفعلها في كلّ أوان وفي أيّ ميدان، وهي أمضى من سنان. فليس عجباً أن يكون قلم الكاتب أمضى من سنان المحارب"[39].

وبضـــمـــر الأقـلام يـبلغ أهلهـا ما ليس يبلغ بالجياد الضمّر[40]

ومن أبيات قالها قاضي الجماعة بقرطبة ـ أيام عبد الرحمن الناصر ـ منذر ابن سعيد البلوطي (فحص البلوط، 265ـ قرطبة، 355هـ) في حفل استقبال وفد إمبراطور القسطنطينية قسطنطين السابع CONSTANTINE VII (المعروف بـ" بورفيرو جينيتوس "POROHYROGENITUS أي: الأُرجواني) في قرطبة سنة 336 / 947 يشير إلى هذا المعنى:[41]

مقالي كحدّ السيف وَسْطَ المحافلِ فَـرَّقْتُ به مـا بين حقٍ وباطلِ

ومن اللطيف أنّ بعض مَن تولّى شؤون الكتابة والحكم وأجادهما لقب بـ" **ذي الوزارتين**" أي: القلم والسياسة أو الكتابة والإدارة. وأوّل مَن لُقّب

(38) نقلا عن: المغرب، ابن سعيد، 1 / 166.

(39) من" فقرة في وصف القلم والمداد والكتاب" أوردها ابن بسام في " الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة"، 1 / 2 / 28. وهي من إنشاء الوزير الكاتب أبي حفص بن بُرْد الأصغر (الحفيد). ترجمته في الذخيرة، 1 / 2 / 18 ـ 52. المغرب، 1 / 86 ـ 91. مطمح الأنفس، ابن خاقان. معجم الأدباء، ياقوت الحموي، 2 / 106.

(40) من قصيدة الجزيري السابقة (أعلاه، 27). وانظر: المغرب في حلى المغرب، 1 / 322.

(41) نفح الطيب، 1 / 373. أزهار الرياض، المقري، 2 / 258 ـ 261 (العلمية، 1 / 152). انظر: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة.

بهذا في الأندلس على ما يذكره أو ينقله ابن الأبار [42]هو أبو عمر أحمد بن عبد الملك بن عمر بن شُهَيْد* وزير الخليفة عبد الرحمن الناصر لدين الله (300ـ350هـ). وأبو عمر هذا هو جدّ سميّه وحفيده: أبي عامر أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد (382ـ426هـ) الشاعر الأديب المشهور صاحب رسالة " **التوابع والزوابع**"[43]، وكتاب" **حانوت عطار**"[44].

ولعلّ من الطريف هنا أنّ للوزير الكاتب أحمد بن محمد بن أحمد بن بُرْد الأصغر (الحفيد، بعد 440هـ)**[45] . المذكور تواً " [46] **رسالة السيف**

---

(42) الحلة السيراء، 1 / 238ـ240. إعتاب الكتاب، 190 (قارن: 203، وليس هو) كذلك: جذوة المقتبس، 131 (رقم: 299). بغية الملتمس، 190 . نفح الطيب، 1 / 380. أزهار الرياض، 2 / 262. جذوة المقتبس، 133(رقم: 232). الذخيرة، 1/1/ 161 وبعدها، 281. بغية الملتمس، 191.

*وابن شهيد الجد هذا هو الذي قدم للخليفة عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله) لثمان خلون من جمادى الأولى سنة 327هـ هديته العظيمة التي " وقع الإجماع على أنّه لم يهاد أحد من ملوك الأندلس بمثلها ". أزهار الرياض، 2 / 261. نفح الطيب، 1 / 356.

(43) الذخيرة، 1 / 1 / 210. المطرب من أشعار أهل المغرب، ابن دحية الكلبي (تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، القاهرة، 1954)، 127. نفح الطيب، 3/546.

(44) جذوة، 133. (الجديدة)، 2/556، 624، 635. البغية، 191، خريدة القصر وجريدة العصر، 2/635. الوافي بالوفيات،7/144. الأعلام، 1/163.

(45) تميزاً له من جدّه (كنيه وسميّه ونظيره في الرتبة): الوزير الكاتب أبو حفص بن بُرْد الأكبر (الجد)، الذي" كانت وفاته بسرقسطة سنة ثماني عشرة وأربع مئة وقد نيف على الثمانين". الذخيرة، 1/1/84. جذوة المقتبس، 119(رقم: 199).=

والقلم" في المفاخرة والمفاضلة بينهما، " وهو أوّل من سبق إلى القول في ذلك بالأندلس"[47]. وقد وردت هذه الرسالة في ذخيرة ابن **بسام**[48].

=بغية الملتمس، الضبي، 172(رقم387 :). الصلة 38. المغرب، 1/ 204. نفح الطيب، 1/ 424. معجم الأدباء، 5/ 41 .وقد لحق الحفيدُ الجَدَّ وقرأ عليه. المغرب، 1/ 86. ويبدو أنّ الدكتور حسين مؤنس توهّم فخلط بينهما. (الحلة السيراء، 1/ 271حاشية 2).

** يقول ابن الأبار (658هـ) في حلّته هنا [حين ذكر ولاية العهد من هشام (الثاني، 403هـ)، المؤيد بالله، بن الحكم (الثاني، 366هـ)، المستنصر بالله، لابن الحاجب المنصور (392هـ) : عبد الرحمن (شنجول، 399هـ)، أن الذي رتب ذلك ابن ذكوان(413هـ) وابن برد(418هـ)] ":وجدّ في ذلك السعي الخبيث أبو العباس بن ذكوان القاضي وأبو حفص بن برد الكاتب " . الحلّة السيراء، 1/ 271. فابن برد هذا هو ابن برد الأكبر (الجد) وليس ابن برد الأصغر الحفيد (بعد 440هـ)، الذي هو لجدّه سَمِّياً وكَنِّياً ومثيلاً في الرتبة، مما يسبب الاشتباه والارتباك والغموض لكن الحمد لله رب العالمين أمكن تجلية الأمر.
انظر: جذوة المقتبس (الجديدة)، 1/ 183 (رقم: 192)، 1/ 188(رقم: 199)، الذخيرة (العلمية)، 1/ 63 ـ 75، 1/ 302. نفح الطيب، 1/ 424، 3/ 546.
وقد اقتضى التأكد من معرفة ابن برد الأكبر (الجد) وحفيده الأصغر استمرار المتابعة مع توفر هذه المصادر لنحو ثلاثة أيام (مدريد، نهاية رمضان المبارك وأيام العيد شوال، 1421هـ)، والحمد لله رب العالمين.

(46) الحاشية السابقة.

(47) جذوة المقتبس، 115 (رقم: 192). بغية الملتمس، 164 (رقم: 354). مطمح الأنفس.

(48) الذخيرة، 1/2/ 435 ـ 441.

غزارة التأليف وكثرة المؤلفين

حدود الموضوع وأبعاده

يتناول هذا البحث بشكل عام الحديث عن **الكتب والمكتبات** في الأندلس، كأداة مُهِمَّة لتداول العلم وحفظه. فيتناول اهتمام المسلمين بهذه الحصيلة ومكانتها، حتى غدت هِواية عامّة بين أفراد المجتمع رجالاً ونساء على اختلاف مستوياتهم الثقافية، فكان ذلك بعض ثمار البناء الإسلامي. ولقد تأثّر بذلك غير المسلمين في المجتمع الأندلسي. كما يتعرّض هذا البحث للحديث عما بقي لنا من هذا الإنتاج. ويتناول كذلك ـ بلمحات ـ المؤلفات وأنواعها وموضوعاتها وقيمتها العلمية وكثرتها والمؤلفين ومكانتهم ومقدار إنتاجهم، شرحاً وتعليلاً. إذ لدينا في هذا الميدان ما يبهر العقول، وليس هنا موضع تفصيل.

ويحفّ بذلك بيانٌ للقواعد والمُثُل العلمية والدوافع التي أُقيمت عليه الظاهرات المختلفة في هذا الميدان، كما تنتشر بين تضاعيفه تعليلاتٌ للأمور المختلفة وإشارات إلى قضايا متعددة، تُلقي الضوءَ على طبيعة هذا المجتمع، متلمّسةً أسبابَ تفرّده وعلوّ درجته وفضيلة امتيازه، مضيئةً جوانب هذا الموضوع متحققةً من دراسته على أسس واقعية واستقراء سليم للحقائق في ضوء طبيعتها وموازينها التي جرت في تيارها.

كما يقدم سَرْداً للأساتذة والشيوخ الذين تمّ التلقّي على أيديهم. وهو نوع من التأليف المعجمي، بالإضافة إلى ما فيه من الجدة والطرافة. فهو كتاب لتراجم من عُرفوا عن قرب وصلة، بشكل وثائقي. فهو شهادة عِيان، كما

هو نوع من الفهرسة للمؤلفات في مختلف الموضوعات التي دَرَسَها ودَرَّسَها. وهذا فيه جانب لمذاكرات المؤلف الشخصية وإقرار بفضل الأستاذية التي يرد فيه سرد لخُلُق العلم، كما هو بيان عن التدريس وأساليبه. كله في هذا النوع من التأليف لكتب البرامج والمشيخات. وفيه بيان لسعة القاعدة العلمية، فإنّ الذي يَدْرُس على يد مثله أوقات الأساتذة ويتلقى عنهم علومهم التي تخصصوا فيها ويَدْرُس عليهم مؤلفاتهم يكون ـ دون شكّ ـ بمكانة علمية عالية أصيلة، وهو اللون العالي في برنامج العلماء. وهذه الكتب تنفعنا في التعرّف على شاهد لمؤلفات لكتب تُعْتَبَرَ مفقودة الآن.

ضخامة التأليف

امتازت الحضارة الإسلامية بكثرة الإنتاج، في كلّ أقطارها وعصورها مع تفاوت، وكانت الأندلس زهرة لامعة. فالمكتبة الإسلامية ـ والأندلسية منها ـ ذات غنى فريد في عالم الفكر والإنتاج، لا تدانيها أمّة من أمم الأرض، خلال عمرها الطويل وتقلبها في حضارات متعددّة الأشكال. فلا تملك أمّة من الأمم ما ملكته الأمة الإسلامية من عمق وشمول، ولا كانت لمكتبة منها ما احتوته المكتبة الإسلامية من كثرة وغزارة. وكما كانت هذه الكثرة عامة، لكثرة عدد المؤلفين والأعلام، فهي أيضا كثرة في الإنتاج لعديد من هؤلاء المؤلفين، كثرة مذهلة. وبعضهم شمل إنتاجه العديد من الميادين على صفة الموسوعية.

فهذا الحافظ أبو عبد الرحمن بَقِيّ بن مَخْلَد القُرطبي (201ـ 276هـ = 817

ـ 889م)[49]، كان أحد الأعلام الموسوعيين. وهو صاحب التآليف الحسَان[50] الكثيرة التي " تدلّ على احتفاله واستكثاره"[51]؛ وقد " صارت قواعد للإسلام، لا نظير لها، وكان مُتَخَيِّراً لا يقلّد أحداً، وكان جارياً في مضمار البخاري ومسلم والنَّسائي "[52].

ومن مؤلفاته كتابه في " **تفسير القرآن الكريم**"، الذي يقطع ابن حزم (456هـ) دون استثناء بـ" أنّه لم يؤلَّف في الإسلام تفسيرٌ مثلُه ولا تفسير محمد بن جرير الطَّبَري ولا غيره " [53] ولقد بلغ هذا التفسير عشرات المجلدات، ولا أعرف لجزء منه مكاناً.

ولابن مَخْلَد مكانة رفيعة وسمعة علمية عالية ملأ بها الأندلس في وقته، وخَلَّف لها كثيراً من علمه. ولقد أشاد ابن حزم القرطبي بمكانته فقال: "مُسْنَد بَقِيّ رَوَى فيه عن ألف وثلاث مئة صاحب ونَيِّف، ورتّب حديث كلّ صاحب على أبواب الفقه فهو **مُسْنَد ومُصَنَّف**، وما أعلم هذه المرتبة لأحد قبله، مع ثقته وضبطه وإتقانه واحتفاله في الحديث"[54].

---

(49) تاريخ علمـاء الأندلس، ابن الفـرضي، 1 / 93 (رقم: 283). نفح الطيب، 2/ 518.

(50) جذوة المقتبس، 167(رقم: 331). نفح الطيب، 2/47.

(51) بغية الملتمس، 245. (الجديدة)، 1 / 301 (رقم: 586).

(52) نفح الطيب، 2/ 519، 3 / 169(من رسالة ابن حزم في فضل الأندلس).

(53) نفح الطيب، 3 / 168.

(54) نفح الطيب، المقري، 2/ 519.

ومن جميل تقدير العلم واحترام أهله ولطيف الاعتراف بخدماتهما أن يؤلَف في فضائل بقي بن مخلد كتاب" **المُسْكتة** " في ستة أجزاء. ومؤلف هذا الكتاب هو عبد الله بن الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الثالث (الناصر لدين الله)[55]، وفي هذا معنى جليل في تقدير العلماء إلى درجة أن يكتب عن فضلهم أولاد الخلفاء.

وهذه الطريقة في بيان فضائل أهل العلم والفقه والصلاح مألوفة، إقرارا بفضلهم واعتباراً بمنهجهم وتنويها بمسلكهم وتكريما لعلمهم وتوجيها لغيرهم. وهي ليست تاريخا مباشراً موعباً عن حياته، بل - رئيسيا - تسجيلا لآثاره وفضائله، رَفَعت قدره وأَعْلَت منزلته وعَطَرت ذكره، وهو نهج مألوف.

لقد جمع محمد بن موسى بن علون بن زياد الجُذامي كتاباً في فضائل شيخه أبي بكر بن مجاهد الإلبيري[56]. وكذا فعل آخرون.

وابن حزم بدوره بلغت مؤلفاته - التي ضاع أكثرها - أربع مئة مجلد في ثمانين ألف ورقة[57]، في العديد من فنون العلم بلغت وِقْر (أو حِمْل)

---

(55) التكملة لكتاب الصلة، ابن الأبار، 2/ 780. (الحلة السيراء، 1/ 206).
كذلك جمع عبد الرحمن بن أحمد بن بقي بن مخلد (366هـ) كتابا في " **فضائل بقي بن مخلد** ". الفهرسة، 290. تاريخ علماء الأندلس، 264(رقم: 798).
ولم ينفرد بقي بهذا التقدير، بل كان هذا شائعا ومعروفا، إذ في فضائل العلماء والإشادة بهم لدينا مؤلفات كثيرة.

(56) التكملة، 1/ 371 .

(57) راجع: أندلسيات (المجموعة الأولى) ، 122. نفح الطيب، 2/ 78، 83. سير أعلام النبلاء، 18/ 187.

بعير[58]، صنفها في العديد من الميادين[59]، فهو من الموسوعيين. منها كتاب" **الفصَل في المِلَل والأهواء والنِّحَل**"، وهو تاريخ للعقائد ودراسة مقارنة" وهو علم لم تعرفه أوربا إلاّ في القرن التاسع عشر الميلادي"[60].

كما نلحظ كثرة الأعلام في كلّ ميدان، وثراء الإنتاج في العلوم المختلفة، وطبعاً في العلوم البحتة. ففي الطب لدينا قائمة طويلة من الأطباء وكذلك الصيادلة. ولكثير منهم أو لكلّهم عدّة مؤلفات بلغت الغاية في قيمتها العلمية، تحدّث عن بعضهم ابن أبي أصيبعة في كتابه" **عيون الأنباء في طبقات الأطباء**"، وابن جُلْجُل في كتابه"**طبقات الحكماء والأطباء**" . وقل مثل ذلك في الرياضيات والهندسة والفلك وغيرها[61]. وكأنّ التأليف أحد خدمات العلماء، بجانب الخدمات العلمية والاجتماعية.

ومن الملاحظ أنّ عديداً من العلماء الذين اشتهروا في علوم الشريعة واللغة والآداب وغيرها هم أنفسهم كانوا مشهورين في العلوم البحتة، كابن رُشْد الحفيد وأبي عبيد البكري وابن الرومية وأبي بكر بن زُهْر وأُمية بن الصلت وأبو جعفر أحمد بن مَضاء اللَّخْمِي (513 ـ 594)[62] وكذلك: الإمام أبو عبد الله المازَرِي(536هـ)" فكان أحد رجال الكمال في العلم في وقته.

(58) الذخيرة، 1/1/ 167(العلمية)، 1/ 104. الإحاطة، 4/ 113، 116.

(59) تاريخ الحكماء، القفطي، 223. الصلة، 416(رقم: 894).

(60) الإسلام في إسبانيا، لطفي عبد البديع (القاهرة، 1958)، 42.

(61) راجع مثلا: نفح الطيب، 3/ 160ـ186. 374 ـ 377.

(62) الذيل والتكملة، 1/ 217.

وإليه كان يفزع في الفتوى في الطب في بلده، كما يفزع إليه في الفتوى في الفقه "، الذين يرد ذكرهم في تضاعيف هذا البحث. ولكن المؤلفات الطوال تتوفر في العلوم النظرية لطبيعتها وعموم الحاجة إليها، وإن كنا لا نعدم وجود المطولات في العلوم البحتة كالطب، مثل كتاب أبي القاسم الزهراوي: خلف بن عباس الأندلسي، بعد 400هـ[63]" **التصريف لمن عجز عن التأليف**" .

وتَوَفُّر مؤلفات خاصة عن أهل كل علم وميدان ظاهرة مألوفة في الإنتاج الأندلسي وغيره. فلدينا مؤلفات عن الفقهاء والقضاة والنحويين والكتاب والشعراء والحكام وغيرهم، من أهل كل فن في عامة الأندلس أو في مدينة من مدنه، وهو ما يعرف بـ: **كتب الطبقات**.

كما اختصت كتب لواحد من الأعلام وأحيانا في أحد جوانبه ككتاب "**المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي**" ، ألفه ابن الأبار (658هـ) في تلاميذ الصدفي ومعاصريه. بل إن القاضي عياض ألف كتاباً عن شيوخ أستاذه أبي عليّ الصدفي هذا[64] واسمه " **الغُنية**" . وإفراد

---

(63) عنه انظر: جذوة المقتبس (الجديدة)، 1 / 335 (رقم: 422هـ). بغية الملتمس (الجديدة)، 1 / 357 (717) . الصلة (الجديدة)، 1 / 264(376) . نفح الطيب، 3 / 175 . الأعلام، 2 / 310.

(64) مقدمة: المعجم (ل) ولكني حين اطلعت على كتاب الغنية وجدت أنه " فهرست شيوخ القاضي عياض " (544هـ = 1149) نفسه. انظر: أزهار الرياض، المقَّري، 3 / 59. وبعد المتابعة بين المصادر ومراجعتها، بل وجردها أحيانا، الأمر الذي استغرق ساعات كثيرة وربما أياما عديدة (أواخر ديسمبر ـ الساعة الأولى من ليلة الأول من يناير 2001م، في مدريد والتفجيرات العنيفة بالألعاب الاحتفالية=

=النارية، تتزايد وتتواصل وتتصاعد كأنّها المدافع الحربية، احتفالا بمقدم العام الجديد، وأنا أكتب هذه الحاشية، والحمد لله رب العالمين). توصلت إلى أنّ القاضي عياض كتب كتابا خاصا آخر - غير " **الغنية** " - في شيوخ أبي علي الصدفي، ويسمّيه " **المعجم** " كذلك، كما يذكره في كتاب " **الغنية** " نفسه، حين يترجم لأبي علي الصدفي ضمن شيوخه، باعتباره واحدا منهم (الغنية، 194-195)، فيقول: " وقد جمعت شيوخه في كتاب " **المعجم** " الذي ضمنته ذكره وأخباره وشيوخه وأخبارهم، وهم نحو مائتي شيخ "... وقد بسطتُ أخباره وأخبار شيوخه في كتابنا " **المعجم** " المذكور. كما أورد المقّري في " **أزهار الرياض** " تأكيدا لذلك بقوله: " وقد ذكره ابن بشكوال، وقال: وهو ممن كتب إلينا إجازة ما رواه، ولم ألقَه. وذكره ابن الأبار في معجم أصحابه، وقد ألّف ابن الأبار هذا المعجم في أصحاب القاضي أبي علي، كما ألّف القاضي أبو الفضل عياض بن موسى معجم شيوخه، رحمة الله عليهم أجمعين ". أزهار الرياض، 3/154. كذلك: المعجم، ابن الأبار، 13.

ويبدو أنّ هذا الكتاب مفقود، للأسف الشديد. والأمل بالله تعالى أن يظهره، كي يتم الانتفاع بهذه الثروة العلمية الكبيرة.

ويذكر ياقوت الحموي (626هـ) في " **معجم البلدان** " ما يفهم منه أنّه اطلع عليه بأجزائه، حين الحديث عن قُتَنْدة CUTANDA المعركة التي استشهد فيها أبو علي الصدفي. (انظر: التاريخ الأندلسي، 429). كذلك: المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، ابن الأبار، 8-9، 16-17. يقول ياقوت الحموي (معجم البلدان، القاهرة، 7/33) ":وعمل له القاضي عياض مشيخة في عدة أجزاء كتب هذا منه ".

ولعله يفهم أنّ " البرنامج " هو ما يؤلفه العالم عن شيوخه مثل " **برنامج شيوخ الرعيني** " ومثله " فهرست " كما هو في " الغنية " (22، 286-289).

أمّا " **المعجم** ": فهو الكتاب الذي يضعه العالم عن شيوخ غيره أو تلامذته أو أصحابه، كما فعل القاضي عياض وابن الأبار. انظر: المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، ابن الأبار، 16-17. أزهار الرياض، 3/153. الغنية، 194-195. ومثل " **فهرست** ": " **فهرس** " أو " **فهرسة** ". انظر: نفح الطيب، 2/159، 8/508. الأعلام، 1/180. وإن كان ليس كذلك دائما، على ما يبدو.

الكتب عن الشيوخ مألوف، فكم من العلماء مَن أفْرَدَ كتابا للحديث عن شيوخه الذين تلقّى عنهم، وهو ما قد يُعرف أحياناً بـ: **كتب البرامج**، ككتاب **برنامج شيوخ الرعيني** الأندلسي(666هـ)* .

وهؤلاء العلماء المكثرون في التأليف كثيرون جدا، وكانت مؤلفات كلّ منهم كثيرة أيضاً. فقد وصلت مؤلفاتهم العشرات أو المئات، بلغ بعضها عشرات الأجزاء أو مئاتها[65]، على تفاوت في الأحجام. وبلغ مجموعها لأحدهم مئات المجلدات. يضاف إلى ما ذكر أمثلة أخرى.

فالقاضي الإشبيلي أبو بكر ابن العربي(468ـ543هـ = 1077ـ1148م) [66]تُعَدُّ مؤلفاته قرابة الأربعين [67] منها" **أنوار الفجر لتفسير القرآن**" في ثمانين مجلدا [68] في ثمانين ألف ورقة، أنفق في تأليفه عشرين سنة، كما نقله ابن فَرحُون في **الديباج المُذهب** [69] عن مؤلف آخر لابن العربي" **القبس**

---

*الغنية، 133، أزهار الرياض، 3/ 165 .الأعلام، 6/ 277 .

(65) راجع مثلا: نفح الطيب، 2/ 563، 691 ـ 694. وفي هذا الكتاب أمثلة كثيرة.

(66) الصلة، ابن بشكوال، 591(رقم: 1297). نفح الطيب، 2/ 28 ـ 29.

(67) بغية الملتمس، 93(رقم: 179)؛ نفح الطيب، 2/ 35 ـ 36.

(68) نفح الطيب، 2/ 35. مقدّمة محقق كتاب" العواصم من القواصم" لابن العربي، (تحقيق محب الدين الخطيب، جدة، 1387)، 27. وهذا القسم ليس كلّ كتاب العواصم الذي نشره في الجزائر كاملاً الإمامُ المجاهد عبد الحميد بن باديس (سنة 1347/ 1928). بغية الملتمس، 93 (رقم: 179). نفح الطيب، 2/ 35. إنباه الرواه، 3/ 186.

(69) الديباج المذهب، ابن فرحون، (القاهرة، 1351هـ)، 282.

على **موطأ مالك بن أنس**" الذي يبدو أنّه وصلنا، ولعلّه يقدَّم إلى عالَم الطباعة. كما نَقل ابنُ فرحون خبراً آخر مهمّاً في هذا الشأن فيقول: (وأخبرني الشيخ الصالح أبو الربيع سليمان بن عبد الرحمن البورغواطي في سنة: إحدى وستين وسبعمئة بالمدينة النبوية[المنورة، على صاحبها الصلاة والسلام] قال أخبرني الشيخ الصالح يوسف الحزام المغربي بالإسكندرية في سنة ستين وسبعمئة قال: رأيت تأليف القاضي أبي بكر ابن العربي في تفسير القرآن المسمى **أنوار الفجر** كاملاً في خزانة السلطان الملك العادل أمير المسلمين أبي عِنان فارس بن السلطان أمير المسلمين أبي الحسن علي بن السلطان أمير المسلمين أبي سعيد عثمان بن يوسف بن عبد الحق، وكان السلطان أبو عِنان إذاك بمدينة مراكش، وكانت له خِزانة كتب يحملها معه في الأسفار وكنت أخدمه مع جماعة في حزم الكتب ورفعها فَعَدَدْتُ أسفارَ هذا الكتاب فبلغت عِدَّتُها ثمانين مجلداً، ولم ينقص من الكتاب المذكور شيء). قال أبو الربيع وهذا المخبر - يعني يوسف - ثقة صدوق رجل صالح كان يأكل من كدّه"[70].

وابن حَيَّان القُرطبي (377 - 469هـ/ 987 - 1076م) كان" قوي المعرفة مستبحراً في الآداب بارعا فيها، صاحب لواء التاريخ بالأندلس، أفصح الناس فيه وأحسنهم نظماً له "[71]ألّف عدَّة كتب، منها كتاب" **المتين**" في تاريخ الأندلس ويقع في ستين مجلداً[72]. وله كتاب" **المقتبس في تاريخ**

---

(70) الديباج المذهب، 283.

(71) الصلة، 153(رقم: 345).

(72) نفح الطيب، 3/ 181، 193. وفيات الأعيان، 2/ 218.

أهل الأندلس " في عشر مجلدات[73].

ولأحمد بن أبان بن سيّد، صاحب شرطة قُرطبة المتوفى سنة 382هـ (992م)، كتاب " **السماء والعالم** " في مئة مجلد رتبه " على الأجناس في غاية الإيعاب، بدأ بالفلك وختم بالذرة "[74].

وأن أبو عمر: أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي، المعروف بابن المكوى (324ـ 401هـ/ 936ـ 1010م)، قد " جمع للحكم أمير المؤمنين كتابا حفيلا في رأي مالك: (**الاستيعاب**) من مئة جزء "[75]، جمعه له مع مؤلف آخر.

وقاضي الجماعة ابو الوليد محمد بن أحمد بن رشد (الأكبر) الفقيه[76]، وهو ابن رشد الجد (450ـ 520هـ = 1058ـ 1126م) صاحب التواليف العديدة التي منها كتاب " شرح **المُستخرجة** " المسمى " **البيان والتحصيل لما في المستخرجة من التوجيه والتعليل** "[77]. ويورد ابن عذاري وصفا لهذا

(73) نفح الطيب، 3، 181. وفيات الأعيان، 2/ 218.

(74) جذوة المقتبس، 381 (رقم: 964). نفح الطيب، 3، 172، 381. قارن: إنباه الرواة، 1/ 31، 2، 334. راجع: تاريخ علماء الأندلس، 2/ 67.

(75) الصلة، 23 (رقم: 38). (ج)، 1/ 54(38).

(76) تمييزا له من حفيده (كنيه وسميه) ابن رشد (الأصغر) الفيلسوف (520ـ 595هـ).

(77) أزهار الرياض في أخبار عياض، المقري (تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة، 1361/ 1942)، 3/ 60. المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا، أبو الحسن النباهي (نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948)، 99. بغية الملتمس، 51 (رقم: 24). الصلة، 576(رقم: 1270).

المؤلّف في " البيان المغرب" بأنّه " تأليف لم يسبق أحد من العلماء إلى مثله ينيف على المئة جزء"[78]، وقد" نيف على العشرين مجلداً "[79].

ويعرف كتاب" **المُسْتَخْرَجَة** " بـ" **العُتْبِيَّة** "، نسبة إلى مؤلّفه الفقيه الأندلسي محمد بن أحمد بن عتبة المعروف بالعُتْبِي (255هـ -868م)[80].

وكتاب "**المُسْتَخْرَجَة** " استخرجه العتبي من كتاب" **الواضحة** " في أصول فقه مذهب الإمام مالك تأليف عبد الملك بن حبيب(238هـ = 853م)[81].

فصار معتمد" أهل الأندلس كتاب **العتبية** وهجروا **الواضحة** وما سواها"[82].

ويُذكر بهذه المناسبة ما يُورده المَقَّري في نفحه من أنّ عبد الوهاب بن نصر البغدادي المالكي ألّف كتاباً في مئة جزء وسماه" **النُصْرَة لمذهب إمام دار الهجرة** "[83].

وكذلك أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد الحفيد (الأصغر) الفيلسوف (قُرطبة 520ـ مراكش 595هـ) الذي " كان يُفزع إلى فتواه في

---

(78) البيان المغرب (تحقيق إحسان عباس، بيروت، 1967)، 4/ 74، نقلا عن غيره.

(79) الديباج المذهب، 279. وقد طبع هذا الكتاب في عشرين مجلداً (دار الغرب الإسلامي).

(80) نفح الطيب، 2/ 215ـ216. جذوة المقتبس، 48 (رقم: 9). مقدمة ابن خلدون، 3/ 1056. تاريخ علماء الأندلس، 2/ 6ـ 7(رقم: 1104).

(81) نفح الطيب، 2/ 6.

(82) مقدمة ابن خلدون، 3/ 1158.

(83) نفح الطيب، 2/ 521.

الطبّ كما يُفزع إلى فتواه في الفقه " على حدّ تعبير ابن الأبار[84]. فقد ذُكر أنّ مؤلفاته تزيد على الستين "[85] وأنه سود فيما صنف، وقيد وألف، وهذّب واختصر نحوا من عشرة آلاف ورقة "[86].

ويذكر لنا ابن بشكوال في **صلته** خبرا قيما، له دلالته الكبيرة وفيه التأثير الواضح لهذه الظاهرة لدى علمائنا، **ظاهرة الكثرة في التأليف**، مع الاحتفاظ بالمستوى العلمي الرفيع وأصالته، ومهما قيل في التأويل.

فيحدثنا عن قاضي الجماعة بقرطبة أبي المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فُطَيْن بن أصبغ بن فطيْس[87](348 ـ قرطبة 402هـ) فيذكر لنا مؤلفاته، قائلاً بأنّه جمع كتبا حسانا منها:

كتاب " القصص والأسباب التي نزل من أجلها القرآن " نحو مئة جزء ونيف[88].

(المصابيح في فضائل الصحابة) مئة جزء.

(فضائل التابعين لهم بإحسان) مئة جزء وخمسون جزءا[89].

---

(84) التكملة، 2 / 554 (رقم: 497).

(85) الديباج المذهب، 285.

(86) التكملة، 2 / 554.

(87) انظر عنه: المُغرب في حلى المغرب، 1 / 216، والحاشية لديه.

(88) انظر أيضاً: شذرات الذهب، 3 / 163. العبر في خبر من غبر، الذهبي، 3 / 79.

(89) يذكر له ابن العماد في الشذرات، 3 / 163(كتاب فضائل الصحابة والتابعين) في مئتين وخمسين جزءا " . وهذا يعني أنّ الكتابين جمع في كتاب واحد مع تطابق عدد الأجزاء.

(الناسخ والمنسوخ) ثلاثون جزءاً،

كتاب (الأخوة من المحدثين والتابعين ومن بعدهم من الخالفين) أربعون جزءاً،

(أعلام النبوة ودلالات الرسالة) [90]عشرة أسفار،

(كرامات الصالحين ومعجزاتهم) ثلاثون جزءاً،

(مسند حديث محمد بن فطيس) خمسون جزءاً،

(مسند قاسم بن أصبغ العوالي) ستون جزءاً،

(الكلام على الإجازة والمناولة) عدّة أجزاء،

وغير ذلك من تواليفه. نقلتُ تسميتها من خطّ يده "[91]. وللأسف فلا يبدو الآن وجود بهذا الثبت من كتب قاضي الجماعة أبي المطرّف بن فطيس التي قاربت مجموع أجزائها الستّ مئة. ويُذكر أنّه كان له ستة وراقين ينسخون ـ بجانب مؤلفاته ـ ما يريد ويختار[92].

ومهما نتأوّل لتفسير هذه الكثرة وكيفما تكون نظرتنا لها: بصغر حجم الجزء[93] أو أنّها كانت مما أملاه أو درّسه ـ أو هي مبالغة، وليس بالضروري ـ

---

(90) ألّف عدد من علماء الأندلس في هذا الموضوع.

(91) الصلة، 311 ـ 312 (رقم: 682). كذلك تذكرة الحفاظ، الذهبي (مصورة في بيروت عن طبعة الهند)، 3 / 1061. ويشير ابن بشكوال هنا إلى أنّه نقل بنفسه هذا الثبت من المؤلفات عن مصدر، دوّن ابنُ فطيس فيه ذلك بخط يده. انظر كذلك: العبر، الذهبي، 3/ 78ـ 79.

(92) راجع: الأعلام، 3/ 325.

(93) حتى لو حدث.

فهي تدلُ على الكثرة[94].

ولا يبدو أنّ هناك ضرورة قصوى تقود إلى استبعاد مثل هذا الأمر الذي نجده لدى عدد من علمائنا الأندلسيين الذين عُرفوا بكثرة مؤلفاتهم[95].

فإنّ ابن فطيس [96]كرس حياته للعلم مع حرص وإتقان يقوم على الإيمان المفتّق للطاقات المنمّي لها مع ذكاء، وفرت الانتفاع به الأسباب الأخرى - المادية، وغيرها - في مجتمع كلّ ما فيه يشجّع على العلم ويوفّر جوّاً علميا عالي المستوى.

وعن ابن فُطَيْس يذكر ابن بشْكُوال [97]كذلك بأنه " كان عالماً بالحديث والتقييد له، واسع الرواية. كتب الحديث عمره كله " بالإضافة " إلى سعة الرواية والحفظ والدراية. وكان يملي الحديث من حفظه في مسجده، ومُستَمْلٍ بين يديه على ما يفعله كبار المحدثين بالمشرق والناس يكتبون عنه "[98].

كما " كان من جهابذة المحدّثين وكبار العلماء المسْندين، حافظاً للحديث وعلله، منسوباً إلى فهمه وإتقانه، عارفاً بأسماء رجاله ونقلته يَبْصُرُ المُعَدَّلين منهم والمُجرَّحين، وله مشاركة في سائر العلوم وتقدّم في معرفة الآثار والسير

(94) انظر: الصلة، 406. ومن أمثلة ذلك ابن حزم والطبري.

(95) انظر عن مناقشة هذا الأمر ومصطلحاته: أدناه، 74 وبعدها وغيرها.

(96) سيرد ذكره كأحد أصحاب المكتبات الخاصة الشهيرة، أدناه، 178 وبعدها.

(97) الصلة، 312.

(98) الصلة، 310. وقد مـرّ هـذا النصّ في أعلاه، 30. كـذلك: ترتيب المدارك، مجلد 2/ 671 . المغرب في حلى المغرب، 1/ 216.

والأخبار وعناية كاملة بتقييد السنن والأحاديث المشهورة والحكايات المُسْنَدَة، جامعاً لها، مجتهداً في سماعها وروايتها"[99].

ومثل هذا يقال في حقّ العديد من مؤلفينا من حيث غزارة علمهم وتمكّنهم وطول تحصيلهم، وكلّها تنتج كثرة في التأليف وضبطا للإنتاج.

فيَذْكر مثلاً الحافظُ أبو عمرو الداني(444هـ)[100]، والذي كان على معرفة بعلوم الحديث وجَمَعَ في علوم القرآن" تواليف حساناً مفيدة يكثر تعدادها ويطول إيرادها "[101]. فذكر المَقَّري في **نفح الطيب** بأنَ تآليفه بلغت مئة وعشرين مصنّفاً[102]. كما وُصف بكونه" حسن الخطّ جيد الضبط من أهل الحفظ والعلم والذكاء والفهم، متفنناً بالعلوم جامعاً لها معتنياً بها. وكان ديّناً فاضلاً ورعاً سَنِيّاً "[103]. واتّصف الداني بصفات علمية، من الإتقان وسعة العلم، جعلته ثقة يخضع أهلُ العلم لتصانيفه، وبلغ في عصره مستوى عسير المضاهاة في حفظه وتحقيقه.

ومن النافع في هذا الشأن الانتفاع بما حفظته لنا كتب التراجم الأندلسية الخاصة والعامة من ثروة غزيرة ومعلومات مهمة. ويحلو هنا الحديث عن نموذج من هذه الكتب.

---

(99) الصلة، 310. انظر كذلك: تاريخ الفكر الأندلسي، جنثالث بالنثيا (ترجمة حسين مؤنس، القاهرة، 1955)، 395.

(100) عنه انظر: نفح الطيب، 2/ 135-136. جذوة المقتبس (الجديدة)، 2/ 483 (رقم: 702). الصلة (الجديدة)، 2/ 592 (رقم: 882).

(101) الصلة، 406.

(102) نفح الطيب، 2/ 136.

(103) الصلة، 406. نفح الطيب، 2/ 136.

لدينا كتب عديدة في تراجم الأعلام الأندلسية. **فالخاصة** ما دارت حول طبقة أو أهل فن ما أو روّاد ميدان من الميادين، كالقضاة والمفسرين والفقهاء والأدباء والأطباء والحكماء والقادة والحكام. ويمثلها نوع وقسم من "كتب الطبقات" التي تكرّس لهذا النوع، وتقوم على هذا الأساس من التصنيف العلمي، قد يختص بمدينة واحدة أو بلد الأندلس كافة. ولدينا منها الكثير بعضها موجود وكثير[104]غيرها مفقود. ولعله يمكن اعتبار الكتب التي تختص بمدينة واحدة تتحدث عنها متناولة كلّ ما يتعلق بها، من أمثال "**الإحاطة في أخبار غرناطة**" لابن الخطيب (776هـ)، و"مزية المرية على غيرها من البلاد الإسلامية" (مجلد ضخم) للمؤرخ الشاعر الطبيب ابن خاتمة (770هـ) (معاصر ابن الخطيب) الذي له مؤلفات في كل ذلك. (كان ضمن كتب المقري) ولكنه في حكم المفقود حتى الآن[105].

والعامة، ما تدور حول النابهين والبارزين من كل ميدان. من أهل الأندلس. مثل كتاب **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة** لابن بسام. وكتب التراجم الأندلسية العامة كثيرة من بينها سلسلة جاءت متتابعة، يتمّ بعضها بعضاً في هذا الأسلوب النسق على هذا المنوال.

وضع ابن الفرضي (351ـ 403هـ - 962ـ1013م) كتابه **تاريخ علماء الأندلس**"[106]. ثم وصل ابن بشكوال (494ـ578هـ = 1101ـ1182م)

---

(104) الصلة، 406. نفح الطيب، 2/ 136.

(105) نفح الطيب، 1/ 163. أزهار الرياض، 1/ 23، 365. الأعلام، 1/ 176.

(106) الصلة، 251 (رقم: 573). نفح الطيب، 2/ 129 ـ 131.

كتاب ابن الفرضي ذاك بكتابه" **الصلة** " الذي فرغ من تأليفه في جمادى الأولى سنة 534هـ[107]. ثمّ أكمل ابن الأبار (595ـ 658هـ/ 1198ـ 1260م) كتابَ " **الصلة** " هذا بكتابه"**التكملة لكتاب الصلة** "[108]. ثمّ وضع أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي (634ـ 703هـ = 1237ـ 1303م) معجمه" **الذيل والتكملة لكتابَيْ الموصول والصلة**" في تسعة أجزاء، تذييلاً على صلة ابن بشكوال وتكميلاً لتاريخ ابن الفرضي أصل ابن بشكوال[109]. تلاهم أبو جعفر أحمد بن إبراهيم بن الزبير (627ـ 708هـ/ 1230ـ 1308م) فألّف كتابه" **صلة الصلة**" ذيلاً لصلة ابن بشكوال[110]. والكتب السابقة مطبوعة، بأجزائها كافّة أو بعضها.

أمّا ابن الخطيب الوزير الغَرناطي(713ـ 776هـ = 1313ـ 1374م) فقد وضع كتابه" عائد الصلة "، ولعلّه لم يُعثر عليه. وقد وصل به كتاب ابن الزبير. وقد أجرى ابن الخطيب ذكر كتابه في ترجمته لنفسه في " **الإحاطة**"[111]

(107) التكملة، 1/ 304 ـ 307 (رقم: 831). وفيات الأعيان، 2/ 240. الديباج المذهب، 114.

(108) نفح الطيب، 2/592، 3/181 . عصر المرابطين والموحدين (محمد عبد الله عنان، القاهرة)، 2/ 706 ـ 707.

(109) مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، بحث الأهواني: (صلة الصلة لابن الزبير والذيل والتكملة لابن عبد الملك)، 3/5، 11 .

(110) الإحاطة في أخبار غرناطة، لسان الدين ابن الخطيب (تحقيق محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1956)، 1/ 197 . مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، 3/11 .

(111) الإحاطة، خطية الأسكوريال، رقم: 1673(الغزيري)، 4/461.

فيقول: " **وعائد الصلة** في سفرين، وصلت به صلة الأستاذ أبي جعفر بن الزبير"[112].

وباستعراضنا لكتب التراجم الأندلسية الخاصة والعامة وغيرها نجد أنّ ظاهرة الكثرة في التأليف معتادة. كالقاضي أبي الوليد الباجي (403-474هـ)[113]، وكالعلامة الثَّبْت ابن حزم القرطبي(456هـ)، "صاحب المصنفات " الذي يقول عنه الحافظ شمس الدين الذهبي [114]بأنّه" كان إليه المنتهى في الذكاء وحدَة الذهن، وسعة العلم بالكتاب والسنة، والمذاهب والملل والنّحل، والعربية والآداب والمنطق والشعر مع الصدق والديانة والدقّة والسُّؤْدَد والرئاسة والثروة وكثرة الكتب " . حتى أخبر " ابنه أبو رافع الفضل أنّه اجتمع عنده بخطَ أبيه من تواليفه نحو أربع مئة مجلد تشتمل على قريب من ثمانين ألف ورقة "[115]، وقد " كَمُل من مُصنَفاته في فُنون العلم

(112) لسان الدين ابن الخطيب، محمد عبد الله عنان، 302. الإحاطة، 1/ 77، 197. نفاضة الجراب، ابن الخطيب (تحقيق أحمد مختار العبادي). 2/ 367. لسان الدين ابن الخطيب، عنان، 251. لزيادة المعلومات عما سبق راجع: عصر المرابطين والموحدين، 1/ 451. 2/ 702 - 703، 706، 709. الحلة السيراء (مقدمة المحقق)، 1/ 49 - 50.

(113) نفح الطيب، 2/ 69.

(114) العبر في خبر من غبر، 3/ 239. سير أعلام النبلاء، الذهبي 18/ 187. كذلك: نفح الطيب، 2/ 78. والذهبي نفسه (748هـ) كان كثير التأليف جَيِّدَه.

(115) نفح الطيب، 2/ 78، 83. الصلة (الجديدة)، 2/ 605 (رقم: 898)، العبر، 3/ 269.

وقُرْ بَعير" كما يقول ابن حَيّان القُرطبي(116).

وخلف بن عبد الملك بن مسعود (494ـ 578هـ) المعروف بـ"ابن بَشْكُوال" صاحب كتاب" **الصلة**" عُرِف بمكانته العلمية وكثرة إنتاجه. فوصلت مؤلفاته إلى الخمسين في مختلف الموضوعات. وعَدَّ ابنُ الأَبّار في كتابه"**التكملة**" (117)بعضاً من مؤلفاته فقال:" ومن تواليفه أيضاً: كتاب "**الغوامض والمبهمات**" في اثني عشر جزءاً. وقد اختصره شيخنا أبو الخطاب بن واجب ورتّبه ترتيباً عجيباً واستحقّه بذلك فحملناه عنه، وسمعناه منه مختصراً. وهو مطبوع في مجلدين. وكتاب" **الفوائد المنتخبة والحكايات المستغربة**" في عشرين جزءاً. وكتاب" **المحاسن والفضائل في معرفة العلماء الأفاضل**" في أحد وعشرين جزءاً. إلى غير ذلك من مؤلفاته ومجموعاته الشاهدة له بالحفظ والإكثار".

وكذلك الحافظ أبو عمر يوسف بن عبد البَر القُرطبي (368ـ 463هـ) صاحب المؤلفات الكثيرة في عدّة ميادين، وهو مؤلّف كتاب"**الاستيعاب في معرفة الأصحاب**"(118). ويَذْكُر عنه ابنُ بَشْكُوال أنّه كان دؤوباً" في طلب العلم، وافتنّ فيه، وبرع براعة فاق بها من تقدّمه من رجال الأندلس، وألّف

(116) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ابن بسام، 1/1/ 141ـ 142(العلمية)، 1/104. أعلاه، 39.

(117) التكملة، 1/ 306 (رقم: 831). مقدمة كتاب الصلة. تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، 283.

(118) طبع هذا الكتاب في القاهرة (تحقيق محمد علي البجاوي) في أربعة أجزاء (قياس 17x 25 سم).

في الموطأ كتبا مفيدة منها: كتاب **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**(119)، ورتّبه على أسماء شيوخ مالك على حروف المعجم، وهو كتاب لم يتقدّمه أحد إلى مثله، وهو سبعون جزءاً "(120). ويورد الحُمَيْدي في **جذوته** والمَقَّري في **نفحه** سرداً من مؤلفاته وهي كثيرة، وعديد منها ذوات عشرات الأجزاء، وكلّها تمتاز بالأصالة والقوّة والعمق، يكفيها ثناءً ابن حزم في **رسالته في فضل الأندلس** والتي نقلها إلينا كاملة صاحب **نفح الطيب**(121).

وفي رسالة ابن حزم القرطبي في فضل الأندلس وفي تذييل ابن سعيد الأندلسي لها (122)وفي غيرهما إيضاح أكثر وتفصيل أكبر ومزيد من الأمثلة، حيث احتوتا على عدد جمّ من أسماء المؤلفين ومن مؤلفاتهم، وشبيها بذلك فهرسة ابن خير الإشبيلي وأمثالها.

فهل - بناءً على ما تقدّم - ستُعْتَبَر من المبالغة ما ذكره المقّري في **نفحه** عن عبد الملك بن حبيب السُّلَمي (238هـ = 852م) وله من العمر ثلاث وخمسون سنة أو يزيد(123)، من أنّ تآليفه بلغت ألفاً(124)! وحين سُئِل عن عدد مؤلفاته قال: " ألف كتاب وخمسون كتاباً (125)"فهل أنّ ذلك عدد

(119) يطبع في المغرب وقد صدرت منه بضعة أجزاء

(120) الصلة، 678 (رقم: 1501) . نفح الطيب، 3/ 169 ـ 170 .

(121) جذوة المقتبس، 367ـ 369(رقم: 874) . نفح الطيب. 3/ 169 ـ 170 .

(122) راجع: نفح الطيب، 3/ 156 ـ 186 .

(123) قارن: تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/ 272(رقم: 816) .

(124) نفح الطيب، 2/ 5ـ 6. انظر كذلك: الحلة السيراء، 1/ 240 .

(125) الديباج المذهب، ابن فرحون، 155 .

أسماء مؤلفاته بين صغير يضمّه كراس أو رسالة وكبير احتوى الأجزاء العديدة؟ أو لعلّ العدد يمثّل مجموع أجزاء مؤلفاته، وهي كثيرة.

ولعلّ المناسبة ـ كالإفادة ـ تحين هنا للتعريج على استعراض أمثلة تبين مدلول " **جزء** " ومصطلحات أخرى تتعلّق بالمؤلفات الأندلسية بصورة رئيسية. إنّ بعض تسميات عن الكتاب من حيث حجمه وأجزاؤه المكونة له، لم ترد كلّها لمعنى واحد أو متطابقة دوما.

الجزء: وكلمة " **جزء** " لم تستعمل ـ إجمالا ـ بشكل محدد ثابت باستمرار، في معرفة حجم الكتاب. لكن هناك مقدارا تقريبيا تدل عليه اللفظة، ومدلولات متقاربة تشير إليها المصطلحات الأخرى، التي تمر عليها تحت هذا العنوان، بالاستعانة بنصوص وردت فيها هذه المصطلحات ولمؤلفات وصلتنا مطبوعة أو مخطوطة. فهي متابعة تستند في العموم إلى استقراء الآثار التي بين أيدينا.

فكتاب **الاستيعاب** المذكور آنفا مطبوع في أربعة أجزء، تقع في نحو ألفي صفحة (قياس 17X 25). والحُميْدي في **جذوة المقتبس** (بغداد، 488هـ)[126] يشير إلى هذا الكتاب ذاكرا أنه يقع في اثني عشر جزءا. وعلى هذا الاستعمال لكلمة " **جزء** " يتبيّن أنّ حجم الجزء الواحد متوسط، إذ تُعَدُّ صفحاتُ الجزء الواحد في حدود 165صفحة. وذكر الحُميْدي كتباً أُخرى لابن عبد البر صاحب " **الاستيعاب** " معدّدا أجزاءها، ولعلّها تعطي مقداراً مقارباً لعدد صفحات الجزء في المثال السابق. وحسب طبعة الدار المصرية للتأليف والنشر فإنّ كتاب " **الصلة** " لابن بشْكُوال يقع في سبع مئة صفحة

---

(126) جذوة المقتبس، 368 (رقم: 874).

(قياس 17X 25) . وهو يضمّ عشرة أجزاء على تقسيم المُؤَلِّف[127]، أي بمعدّل سبعين صفحة للجزء الواحد . وهذا يعادل أقلّ من نصف عدد صفحات الجزء الواحد في المثال السابق . وسيكون حجم الجزء أقلّ ـ مرّة أخرى ـ بالنسبة إلى كتاب " **جَذْوَة المُقْتَبِس** " للحُمَيْدي، إذ هو في الأصل عشرة أجزاء[128] ومطبوع (17X 25) في 414 صفحة، أي بمعدّل أربعين صفحة للجزء الواحد .

وليس مثل هذه الأحجام يمكن سحبها على عموم استعمال هذا المصطلح " **جزء** " عند المؤلفين الأندلسيين . ولعلّ هذه الأحجام هي الأقلّ، اعتماداً في استعمال المصطلح، لأنّها ـ كما عند الحُمَيْدي هنا ـ أجزاء حديثية .

فهل أنّ حجم " **الجزء** " واحد أو متقارب في عدد الصفحات في الأصول الخطية لكن الاختلاف في حجم الصفحة وعدد السطور فيها وعدد الكلمات في السطر الواحد، حسب نوع الخط وحجمه أيضاً؟ ومهما يكن من أمر فالظاهر أنّ مدلول " **جزء** " متفاوت المقدار . فقد يصل في القلّة إلى مقدار الكراس، قريباً في حجم الملزمة المعروفة في عالم الطباعة اليوم، وقد يكثر فيصل إلى كتاب يضمّ من الصفحات مئات عدّة، كما في الأمثلة الحالية السابقة .

ولكن هل وصل الجزء إلى مقداره نفسه في القرآن الكريم؟ الذي يبدو أنّه أصل الأجزاء الحديثية .

---

(127) الصلة، 697 (أعلاه، 52 , 54) .

(128) جذوة المقتبس، 2 (المقدمة) . (الجديدة)، 1 / 21 .

بينما نلاحظ بأنّ مدلول" **الجزء**" قد يصل إلى مقدار كبير من الصفحات، وإنّ لدينا أمثلة كثيرة في احتواء الجزء على عدد أكبر من الصفحات التي في الأمثلة السابقة. فكتاب" **أعمال الأعلام**" لابن الخطيب، الذي يقع أحد أجزائه المطبوعة المتعلّق بتاريخ الأندلس [129] في 335صفحة (17X 25).

كما أنّنا نجد أمثلة عديدة على اعتبار الجزء الواحد يساوي بضع مئين من الصفحات. فقد ذكر ابن بسّام(544هـ) في "**الذخيرة**" [130]أحدَ كتب ابن حَيَّان(469هـ) الذي يتحدّث عن بني جهور ويصف" كيفية خلعهم وإخراجهم من قرطبة في جزء كبير سماه **البطشة الكبرى** في مجلد كبير لم يقع إليّ وقت هذا التحرير" ما يشير إلى أنَ" **جزء**" قد يصل إلى ما يعنيه "**المجلد**" أحياناً.

من ذلك كلّه يظهر أنّ استعمال اصطلاح" **جزء**" عند الأندلسيين كان متفاوتاً في عدد صفحاته، كما هو الحال لدينا اليوم، ولو مع بعض الاختلاف. حيث وجدناه يتراوح من ثلاثين أو أربعين صفحة ويزداد ليعدّ مئات عدّة. ولكنّ استعماله للإشارة إلى احتوائه عدّة مئين من الصفحات كثير وفير.

ويبدو أنَ مثل هذه الحال في الشرق الإسلامي كذلك. فلدينا كتاب" **إنباه**

(129) القسم الخاص بالأندلس، طبعة بيروت، 1956.

(130) الذخيرة، 1/2/129. (العلمية)، 1/381. لابن حيان عدة كتب كلها مفقودة، غير نقول منها. والكتاب الوحيد الذي بقيت منه بعض الأجزاء هو "المقتبس في أخبار الأندلس" والمشهور أنّه يقع في عشرة أجزاء، أو أسفار أو مجلدات. انظر: نفح الطيب، 3/ 174(نحو عشرة أسفار)، 181 (في عشر مجلدات).

الرواة على أنباه النحاة" لابن القِفْطِي المصري (646هـ). ذكر محقّق الكتاب في نهاية الجزء الثاني المطبوع منه [131] بأنّه نهاية" الجزء الثالث من تجزئة المؤلف" والجزءان المطبوعان يقعان في نحو 750 صفحة (قياس 17 x 25) أي بمعدّل 250 صفحة للجزء، حسب تقسيم المؤلف.

لا بأس من الاستعانة هنا بمثلين من مؤلفات الشرق الإسلامي المشهورة هما **تاريخ بغداد وتاريخ مدينة دمشق**. **فتاريخ بغداد** للحافظ أبي بكر الخطيب البغدادي (463هـ) الذي يقع أصلاً في مئة وستة أجزاء، كما يذكر الصَّفَدي[132]. أمّا تاريخ مدينة دمشق للحافظ ابن عساكر (أبو القاسم علي بن الحسن بن هبة الله الشافعي، 499ـ 571هـ = 1150ـ 1175م)، فقد تواترت المصادر على ذكر هذا الكتاب وأنّه يقع في ثمانين مجلّدة[133]، مكوّنة من ثمان مائة جزء. بمعنى أنّ المجلدة تضمّ عشرة أجزاء، كما أشير أنّ الجزء يحتوي على عشرين ورقة [134] أي أربعين صفحة، ومن هذا الوصف نفيد مسألتين:

1 ـ أنّ الجزء ـ هنا ـ يساوي قرابة 40 صفحة مخطوطة (60 صفحة

---

(131) إنباه الرواة، 2/ 390.

(132) الوافي بالوفيات (تحقيق إحسان عباس، 1389هـ/1969، إصدار جمعية المستشرقين الألمانيين، طبع بيروت)، 7/ 198.

(133) وفيات الأعيان، 3/ 310. العبر، الذهبي (تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، 1963)، 4/ 212. أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب (صلاح الدين المنجد، بيروت، 1960)، 2/115، 118.

(134) معجم الأدباء، ياقوت الحموي (القاهرة،) 13/ 76.

مطبوعة).

2 ـ أنّ الكراسة ترد أحياناً مساوية لـ(**الجزء**)، حيث ذكر بأنّ الكتابة الثانية لهذا الكتاب كانت سبعمئة كراسة (سبعين مجلدة) في كلّ كراسة عشرون ورقة، بينما الكتابة الأولى للكتاب في خمسمئة وسبعين **جزءاً** (سبع وخمسين **مجلّدة**). وسيتّضح هذا أكثر بالاستعانة بإحدى مجلدات الكتاب المطبوعة(135). **فالمجلّدة** الأولى (136) وهي مقسمة في الأصل إلى عشرة أجزاء ليست كلّها متساوية تقع في نحو 620 صفحة من المطبوع (20X 28 حرف ناعم) أي بمعدّل 62 صفحة للجزء أو قرابة 60 صفحة بعد إهمال الحواشي. وهذا المثال ينفعنا أيضاً في التعرّف على سعة المجلّد.

سِفْر ومجلد: لعلّ كلمة " مجلد " تشير في حجمها إلى بضع مئات من الصفحات. وكثيراً ما كانت هي وكلمة " **سِفْر** " بمعنى واحد. كما قد يكونان في بعض الاستعمالات مترادفتين أو مرادفتين أو بالأحرى متقاربتين لمدلول " **الجزء** "، ولو أحياناً. يضمّ " **المجلد** " بين دفّتيه أكثر من " **جزء** " صغير، كما قد يستغرق المؤلّف عدّة مجلدات هي أجزاء. وحين يوصف مؤلّف بأنّه " **مجلد كبير** " فمن الطبيعي أن يتعيّن محتواه بمئات كثيرة من الصفحات، لكنها ليست محدّدة. فمثلا كتاب " المُحَلَّى " لابن حزم القُرطبي، يذكره الحافظ شمس الدين الذهبي بأنّه يقع في ثمانية

---

(135) طبع منه المجمع العلمي العربي بدمشق ثلاث مجلدات الأولى والثانية والعاشرة. ثم استمر فيما بعد.

(136) بتحقيق صلاح الدين المنجد.

مجلدات[137]. والمعروف أنّ " المحلى" مطبوع في أحد عشر جزءاً (17X 25) بمعدّل 558 صفحة للمجلد الواحد و 450 صفحة للجزء الواحد. وكتاب جوامع السيرة لابن حزم أيضاً في مجلد واحد أصلاً[138]. وهو مطبوع (17X 25) [139]، ويقع في نحو 250 صفحة.

وجدير بالإشارة إلى أنّ بعض المؤلفات التي وصلتنا، وهي مطبوعة بين أيدينا، يبدو أنّها مختصرة أو فيها اختصار إلى أيّ حدّ. من ذلك "جمهرة أنساب العرب " لابن حزم الأندلسي(456هـ).

وكتاب" **المُقْتَبِس في أخبار بلد الأندلس**" لابن حَيَّان القُرطبي (377- 469هـ = 987-1076م)، ذُكر أنّه يقع في " نحو عشرة أسفار" [140] أو " في عشر مجلدات"[141]. لقد عُثر أخيراً على مجلد واحد منه شبه كامل في المكتبة الملكية بالرباط، وهو السفر أو المجلد الخامس. وتحتوي خطية هذا السفر على 370 صفحة من القطع الكبير[142] ولعلّه في حالة طبعه ستصل

(137) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 18 / 194.

(138) انظر: مقدمة كتاب" جمهرة أنساب العرب" لابن حزم (تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة).

(139) بتحقيق إحسان عباس وناصر الدين الأسد، طبعة دار المعارف بالقاهرة.

(140) نفح الطيب، 3/ 174.

(141) نفح الطيب، 3/ 181. وفيات الأعيان، 2/218. العبر في خبر من غبر، الذهبي، 3/270. مما يدلّ - ولو أحياناً - على أنّ السفر هو المجلد أو العكس، أو جزء كبير.

(142) دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 8.

عدد صفحات هذا السفر إلى رقم أعلى[143].

وليس من شكّ بأنّ "**السفر**" يعني كتابا كبيرا يتبارى أحيانا والمجلد الذي يضمّ مئات كثيرة من الصفحات، كما يقصر الجزء عن ملاحقته، إذ هو أكبر من الجزء عموما.

لدينا - مثلا - كتاب "**ريحانة الكُتاب ونجعة المنتاب**" للوزير الغرناطي **لسان** الدين ابن الخطيب(713-776هـ = 1313 - 1374م)، يقع في أسفار ثمانية[144]. بينما يذكر المقري هذا الكتاب في "**نفح الطيب**"[145] بأنه "في عدّة مجلدات". ولعلّ عدد هذه المجلدات عند المقري هي عدد الأسفار نفسها التي عند غيره، حيث يذكر المقري في الصفحة السابقة مؤلفات ابن الخطيب واصفا مقاديرها بالأسفار، ما يوحي بصحة هذا التخمين، وليس يقينا ولا على الدوام. ولابن الخطيب كتاب آخر هو "روضة **التعريف بالحب الشريف**" وصفه المؤلف بأنه في سفرين[146]. وقد طبع هذا الكتاب في جزئين (17×25) في أكثر من 600 صفحة، يقدر النص الأصلي للكتاب بنحو 500 صفحة، أي بمعدل 250 صفحة للسفر الواحد. ولابن الخطيب

---

(143) نشر هذا السفر في مدريد (1979) قرابة 500 صفحة.

(144) من مذكرات لسان الدين بن الخطيب في كتابه **الإحاطة في أخبار غرناطة** خطية الأسكوريال رقم 1673(الغزيري) لوحة 433. نقلا عن كتاب "لسان الدين ابن الخطيب"، عنان. 300. والمطبوع: 4/ 459.

(145) نفح الطيب. 7/ 99.

(146) لسان الدين بن الخطيب. عنان. 300. روضة التعريف بالحب الشريف. ابن الخطيب. 1/ 67 (مقدمة المحقق). الإحاطة. 4/ 459.

أيضا كتاب" **نُفَّاضة الجراب في عُلالة الاغتراب**" في أربعة أسفار [147] أو ثلاثة[148]. وقد طبع منه السفر الثاني في زهاء 300 صفحة (20X 28) للنصّ الأصلي.

ويذكر ابن الأبار [149]حين الحديث عن أبي عبد الله محمد بن عبد الحقّ ابن سليمان الكُومي بأنّه ألّف" **كتاب المختار الجامع بين المنتقى والاستذكار** في عشرين سفراً في نحو ثلاثة آلاف ورقة. "، بمعدّل مئة وخمسين ورقة للسفر الواحد، أي ثلاث مئة صفحة من المخطوطة، وستزيد عدد صفحاته عند الطبع. وإنّه ليبدو أنّ **السفر** قد يوازي **المجلّد**، لكن مدلول **المجلّد** عموما يزيد أحياناً على ما احتواه **السفر**.

وكتاب" **تأريخ المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمّة وجعلهم الوارثين**" تأليف ابن صاحب الصلاة، وواضح أنّ القسم المطبوع منه يمثّل سفراً واحداً، كتب عليه السفر الثاني، كما هو بيّن من الروامير المصوّرة عن الخطية[150]. ولو جرّدنا طبعته من المقدّمة والتعليقات لبلغت صفحات النصّ الأصلي قرابة ثلاث مئة صفحة (17X 25). وهذا أيضا يشير إلى أنّ حجم" السفر" مقارب لـ" **الجزء**" في حالة اعتبار صفحات الأخير عدّة مئات. ولعلّ" **السفر**" لا تصل عدد صفحاته ـ عموماً ـ في القلّة

(147) نفح الطيب، 7/ 98. نفاضة الجراب، 2/5، 7. لسان الدين بن الخطيب، 301، 302.

(148) نفاضة الجراب، 2/5، 368. لسان الدين بن الخطيب، 242ـ 244.

(149) التكملة، 2/ 623.

(150) انظر كذلك: 2/ 527 من المطبوع.

إلى مقدار عدد صفحات **الجزء نفسه** . في الأمثلة المبكرة الواردة أعلاه.

وقد يشذ عن ذلك فيكون **السفر** في تقدير البعض كالجزء في حالة صغره[151]. وقد تطلق **سفر** على **المجلد** أو على كتاب، ربما يضم أكثر من جزء أو مجلد[152]. وتذكر أحيانا عدد أوراق كل مؤلف[153] أو مجموع أوراق مؤلفات أحدهم (الورقة صفحتان) أو عدد المجلدات لمؤلفاته بأجزائها كافة.

وتحسن الإشارة هنا إلى استعمال أكثر من مصطلح عام يؤدي عموم معنى كتاب منها: **مصنف** و **مؤلف** وكذلك ديوان.

ديوان: يبدو أن ورود كلمة **ديوان** لا تعني - في مواطن التأليف المطلق - عند الأندلسيين ديوان شعر وبالطبع فلا يفهم منها سجل عطاء. بل تعني **مؤلفا** أو **كتابا** في أي ميدان من المعرفة كان. وقد ورد استعمال كلمة ديوان إفرادا وجمعا، بما يشير إلى هذا المعنى في أكثر من مكان من البحث الحالي، خاصة حين الحديث عن جماعي الكتب وأصحاب المكتبات وعن المؤلفين والمؤلفات.

ولدينا أمثلة أخرى كثيرة نوردها لإيضاح هذا الاستعمال. ومن الأفضل - لوضوح مدلولها - استزادة التتبع في مواضعها من الكتب الأندلسية.

لقد وردت كلمة أو اصطلاح **ديوان أو دواوين** بهذا المعنى في مواضع

---

(151) قارن: المقتبس، 2، 123.

(152) نفسه، 697.

(153) التكملة، 2، 623.

أخرى. من ذلك ما ذكره ابن الأبار في " **التكملة**" حين الحديث عن محمد ابن عبد الله بن أحمد بن مسعود بن مفرج المعروف بالقنطري(561هـ) بأنّه"كان من أهل المعرفة الكاملة لصناعة الحديث بعيد الصيت في الحفظ والإتقان والضبط جَمّاعة للدواوين والكتب" (154) أي ذو مكتبة ثرية.

ومحمد ابن حزم (282هـ)" لم يكن قبله أجمع للدواوين منه"(155). كما استعملت معها كلمة **دفاتر** لتعطي مثل هذا المعنى. ومحمد بن أحمد بن محمد بن سعيد بن مطرّف (بعد 540هـ) كان" صاحب **دفاتر ودواوين** نفيسة"(156).

وذكر صاحب **الذيل والتكملة** أبا العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي(المَرِيَّة، 492ـ مراكش، 569هـ) فقال بأنّه" كتب من **دواوين** العلم **ودفاتره** ما لا يحصى كثرة وجودة وضبطاً"(157).

ولقد استعمل ابن الأبار هذا المصطلح في وصف كتابه **التكملة** (الذي طبع نحو ثلثيه في جزأين فيما يزيد عن 900 صفحة، بجانب ما نشر) حين

---

(154) التكملة، 2/ 499 (رقم: 1377).

(155) التكملة، 1/ 358 (رقم: 964).

(156) التكملة، 1/ 451 (رقم: 1290).

(157) الذيل والتكملة، ابن عبد الملك المراكشي، 1/ 223. كذلك: الإحاطة، 1/ 183. وابن الخطيب (في ترجمته له: الإحاطة، 1/ 182ـ186) ينقل عن الذيل والتكملة، بتصرف واختلاف أحيانا، فاعتمدت على الأصل. وكان ابن الصقر هذا جارا وصديقا لأبي بكر بن الطفيل (581هـ) الفيلسوف الطبيب صاحب قصة "حي بن يقظان "، وكان ممن رثاه. الذيل، 1/ 1/ 231. الإحاطة، 1/ 186.

الحديث عن ابن بَشْكُوال، فذكر له **معجم مشيخته** وقال: " وحين أغفل منهم في صلته أثبته في هذا الديوان "[158]. وترجم ابن دحية (633هـ) صاحب " **المُطرب من أشعار أهل المغرب** " لابن سعيد الأوسي المعروف بالقنترال (575) فذكر بأنه " من أعظم ما شاهد أهل الأندلس منه أن يده اليمنى بطلت فأطلق الله يده اليسرى، فكتب بها **دواوين** لا تحصى كثرة، كمسند البزار وغيره، كما كان يكتب بيده اليمنى وأحسن "[159].

وورد هذا المصطلح في " **مقدمة ابن خلدون** "، كمثل قوله[160]، حين الحديث عن " صناعة الورق " بأنه " كانت العناية قديما بالدواوين العلمية. . . فكثرت التآليف العلمية **والدواوين** . . . وصارت الأمهات والدواوين تنسخ بالخطوط اليدوية " .

وذكر ابن الخطيب في " **أعمال الأعلام** "[161] ثالث وآخر أمراء غرناطة أيام الطوائف عبد الله بن بُلُقِّين بن باديس بن حَبُّوس بن زيري فقال: " وقفتُ على ديوان بخطّه ألّفه بعد خَلْعه بمدينة أغمات " . والمقصود بهذا الديوان هو كتاب " **التبيان** "، مذكرات الأمير عبد الله المطبوع في مئتين من الصفحات (24X 17)[162]. وورد هذا المصطلح في " **فهرسة** " أبي بكر بن

---

(158) التكملة، 1/ 305

(159) المطرب، ابن دحية، 213.

(160) 3/ 1095 ـ 1097.

(161) أعمال الأعلام، 235.

(162) طُبع بتحقيق ليفي بروفنسال (القاهرة، دار المعارف. 1955).

خير (502ـ575هـ/ 1108ـ1179) حين ذكر ما رواه عن شيوخه " من الدواوين المصنّفة في ضروب العلم وأنواع المعارف "[163].

ولعلّ " **ديوان**" استُعملت أيضاً لتدلّ على " **مجلّد** " أو " **كتاب** "، يجمع ألواناً من المعرفة أو مادّة ضخمة. وقد يكون كتابا كبيراً أو مكوّنا من جزء فرد أو من عدّة أجزاء. ويبدو أنّ " **ديوان** " لهذا الاستعمال الأخير أفضل. ولعلّ ذلك يُلْتَمس مما وردت فيه خلال النصوص الآنفة. بل ذلك واضح من عبارة **وردت** عند ابن بشكوال في ختام صلته حيث يقول: " تمّ الجزء العاشر من كتاب **الصلة** لكتاب ابن الفرضي بحمد الله وعونه، وبتمامها كمل جميع **الديوان**"[164]. والكتاب مطبوع (17× 25) في نحو 700 صفحة. وهو كتاب في التراجم الأندلسية. والعبارة من الناسخ الذي أطلق عليه أيضا إصطلاح" **السفر**" . وتاريخ استنساخ الكتاب سنة 550هـ، في حياة المؤلّف ابن بَشْكُوال (494ـ578هـ).

مصطلحات أخرى: وقد استَعمل المؤلفون الأندلسيون أيضا مصطلحات أخرى في هذا البحث. مثال ذلك" **كراس**" [165] و" **رسالة** " و" **مجيليد**" و" **مجلد كبير**" و"**مجلد صغير**"[166]. كما استعملوا" **طروس**"[167]

---

(163) فهرسة ابن خير (الطبعة الجديدة، على طبعة قديرة وربيرا)، 6. 23

(164) الصلة. 697.

(165) انظر مثلا: نفح الطيب، 2/ 696.

(166) سير أعلام النبلاء، الذهبي، 18 / 195ـ196.

(167) جمع طرس، وهي الأوراق.

و **دفاتر**[168]. والدفاتر - وهي كلمة عامة - بمعنى الكتب[169]، وقد جرى ورودها عديدا في هذا البحث[170].

كثرة المؤلّفين والمؤلّفات

ودون شكّ فإنّ مثل هذا الجو العلمي الذي عاشه بلد الأندلس متمتعا بالخير والمعرفة الحقّة ينتج شمولا في طلب العلم وكثرة من العلماء ووفرة في المكتبات واهتماما باقتناء الكتب وشغفا للاعتناء بالعلم وسعيا في طلبه. ولعلّه يجمل التوقّف هنا لبيان ثلاث ظاهرات في الأندلس [171] تتعلّق بهذا الموضوع.

أوّلا: ظاهرة كثرة عدد الكُتّاب والمؤلفين في كل ميدان خلال العصور.

ثانيا: ظاهرة الإكثار من الإنتاج بالنسبة إلى كل مؤلف وفي عدة ميادين، مع الاحتفاظ بالأصالة والعمق، فهيأ ثراء في الإنتاج العلمي المتنوّع الحقول وسيلاً من الكتب متدفّقا.

ثالثا: ظاهرة كثرة عدد الأجزاء بالنسبة إلى الكتاب الواحد، مع إنتاج العديد من الكتب ذوات الأجزاء الكثيرة لمؤلّف واحد.

---

(168) نفح الطيب، 1/ 522.

(169) انظر: جامع بيان العلم وفضله، ابن عبد البر، 2/ 202ـ 204.

(170) في عدة أمكنة.

(171) وهي متماثلة عموما في أنحاء العالم الإسلامي الواسع.

أوّلاً: كثرة المؤلفين

إنّ المناخ الفكري الذي وفّره الإسلام في بلد الأندلس ـ فِعْلُه في غيره من البلدان الإسلامية ـ أوجد كلَّ مأثرة علمية، بجانب مآثره الأخرى. وإنَّ عقيدةً جعلت المعرفة الحقّة، أَخْذَها وبَذْلَها، جزءاً منها، حَرِيٌّ بمجتمعها أن يكون كلُّ فرد فيه، ذكراً أو أنثى، كَبُر أو صَغُر، متمتعاً بمستوىً علميّ كريم وإلمام لائق سليم. **ولا يصحّ الهبوط عن المستوى الأدنى الذي يَحْرُم صاحبه الاستمتاع بفهم هذه العقيدة الإسلامية التي لا يحملها أو يفهمها جاهل. ولا يمكن له تذوّقها أو يحس بنداها، نشاطاً للخير وهمّةً للسعي وراءه. ومن كلّ لون.**

وهذه العقيدة أكثر إيناعاً وأزهر إنباتاً في البيئات المثقَّفة أو المستعدَة للتثقيف وأقرب إلى الإنبات، في جوّ لها سليم النفس طاهر المعدن، وإن أصيبت بالصدأ فهي كفيلة بجلائه. أو حين تحلّ مجتمعاً جاهلاً يحلّ فيه العلم والمعرفة. وكما هي في الأرض الخِصْبة أكثر إنباتاً وأسرع إيناعاً وتزيد من خصوبتها، فإنّها تعطي للتي حُرِمت الخصوبةُ طاقاتِ الإنبات وأسبابَ النماء.

وحين يكون طلبُ العِلم فريضةً وعقيدةً، يحبّها المؤمنون بها، بحرص ورغبة يسعون إلى تحقيق متطلّباتها دونما خضم قريب، فإنّ الغرس سيكون ثابت الأصل سامق الفرع طيّب النبع دائم الإنبات مستمرّ الجني.

وحينما يُفتح الميدان للاندفاع نحو الأعلى يجعل حدّاً أدنى، لا يصحّ بحال السقوط عنه أو الهبوط دونه أو النزول بعده. ويغدو الوقوف عنده

مذموماً منذراً بالخطر، والواقف حول الحمى يوشك أن يرتع فيه[172].

ومن ستكون هذه حالته يجد نفسه في حرج مع معتقده، الذي يحرص بذاته الوفاء له، بل بذل الجهد ليكون مسيرُه نحو المقدّمة، دائم النظر نحو سُلّم الارتقاء ساعيا له حثيثا. لأنه تعلَم بأن الميدان واسع، وللشوق مطلبا جذاباً وللارتفاع مجالا لا يقف عند حد ﴿وفوق كل ذي علم عليم﴾[173]. ولكن ذلك يؤخذ بدقّة وتأكد، ليقام البناء على أساس متين وقاعدة سليمة يحتمل الشموخ "إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق، فإن المُنْبَتَ لا أرضاً قطع ولا ظهرا أبقى"[174]. لذا عم العلم فشمل المجتمع بكليته، نساءه ورجاله، مهما كانت مهنته واختلفت المسؤولية وتفاوتت المكانة. كما شمل الاهتمام كلَّ العلوم والمعارف. ينتفع بخيرها وتؤتي ثمرها ويستطاب أُكُلُها.

يفتح الوليد عينيه في بيته، ليسمع أنغام المعرفة تنساب هادئة رقيقة حلوة رفيقة. يرى مجالس العلم معقودة لأفراد الأسرة ومن يختلف إليها. وكانت الأسرة تُورّث العلم لأبنائها جيلاً بعد جيل. وكم من عالم دَرس على أبيه، منه تلقّى وعلى يديه ارتقى في مدارج المعرفة وعلى عينيه تربّى وفي مجالسه تخرّج. وفي بيته التقى بغيره من الشيوخ (الأساتذة) الذين كانوا يرتادون مجلسهم يتعلّمون ويعلّمون، فيرضع الوليد حُبَّ العلم، ساعةَ يفتح عينيه، ويغدو لديه فطرة، تعيش معه وضرورة لا غَناء عنها بحال.

---

(172) من حديث شريف.

(173) القرآن الكريم: سورة يوسف، من الآية 76.

(174) حديث شريف.

والدعوة إلى التخصّص، كالأصالة والأمانة، من متطلّبات مجتمع هذه العقيدة، خدمةً لها ونفعاً لأهلها وللآخرين.

وفي مثل هذا الجوّ المتفتّح النشط تزدهر المعرفة الخَيِّرة ويسير المجتمع في دربها. فيكثر فيه العلماء في كلّ ميدان، وأهل الفكر من كلّ لون، على مرّ القرون وتلاحق الأجيال. وينتج أعداداً ضخمة في كثرتها ونوعيتها، أفقا وعمقاً، ودقّة وضبطاً، وولعاً وشوقاً.

وهذا يجعل السعي وراء العلم شديدا، في مجتمع العقيدة هذه، في كلّ أحوال الإنسان عسراً ويسراً، ضيقا وانشراحاً، منْشطا ومكْرَها، ومهما اختلفت المهنة وكانت طبيعة المكان.

كما تنتظم العقيدة هذا المجتمع وتقوده في الدرب الفرد ذي الثقافة المؤمنة بالله وشرعه، الصادقة في نفسها ومع الناس، الأصيلة في منبتها والأساس، الرحبة في أجوائها والآفاق، الواضحة في الدافع والهدف، النظيفة في المنطلق والانسياب، المتفاعلة في النفس والمجتمع، المتسامحة في حقيقتها والواقع، المتفتّحة في الأخذ والردّ، الحريصة على البذل والعطاء، المتنامية في كلّ شعْب ودَرْب. وهي دائماً خيّرة تبذل للعلم وتبذله وتسعى حثيثا للحصول عليه، وإن شقّ طريقه وطال مسيره. كما تسعى بالحرص نفسه لتقديمه للآخرين، وربما دون مقابل. ولا يغيّر من هذا الحكم وجود قلّة من حملة العلم تخلّفوا عن هذا المستوى. والحديث هنا عن الخط العام والتيار الغالب، ذي الكثرة المتوافرة صاحبة الجوانب الحسنة الخيّرة التي أظهرت حقيقة هذا المجتمع وأعطته طابعَه الأصيل، وما عداه فشاذّ منبوذ مذموم.

لذا لم تتوقّف في هذا المجتمع للعلم حركة أو يتقهقر منه ركب أو تذهب

عنه رغبة أو تفتر له همّة في أيّما عهد، وإن ضعفت أحواله أو اهتزت قوّته أو اختلّت مكانته أو اكفهرت أجواؤه، سياسياً أو اجتماعياً، في الخارج والداخل.

فهل نتوقّع في مثل هذه البيئة الصالحة غير الكثرة الكاثرة في الأعلام في كلّ ميدان، ترتفع راياتهم وتزدحم مرافقهم، وتتدافع مناكبهم وتغذ مواكبهم ويتجاوب صرير أقلامهم، متعاونة متصاونة ومتواضعة لتشيد بناء العلم والمعرفة وتقيم مناراته. فكثر عدد الشيوخ (الأساتذة) والحفاظ في كلّ فنّ وصوب في كلّ العصور، لكلّ مكانته وعلميته واختصاصه وخصائصه. عاملاً على إغناء التيار وإرفاده، نقيا صافيا دائم الجريان، إنّهم كانت الرحلة في طلب المعرفة من كلّ مكان.

ثمّ نلحظ كثرة عدد الشيوخ الذين يتلقّى عنهم كل دارس ويأخذ العلم في حلقاتهم، حتى ليصل عدد شيوخ أحدهم إلى المئات، بل قد يعدّ عدد من اتّصل بهم أو روى عنهم إلى الألف أو يزيد(175). ولقد وضع العديد من العلماء الكتب، ترجموا فيها للشيوخ الذين درسوا على أيديهم، فكان لكلّ من هؤلاء العلماء كتاب مكرّس للحديث عن شيوخه(176). وحدث أن وَضَع البعضُ كتاباً في ترجمة شيوخ غيره من العلماء. كما فعل القاضي عياض (544هـ= 1149م) حين ألّف كتاباً غير (**الغُنْيَة**) في شيوخ أستاذه أبي علي الصدفي(514هـ)(177). ثمّ جاء ابن الأبار فوضع كتاباً آخر في

---

(175) انظر مثلا: المعجم في أصحاب القاضي الصدفي (الجديدة)، ابن الأبار، 7.

(176) ككتاب برنامج شيوخ الرعيني (وهو مطبوع) وغيره كثير.

(177) المعجم، ابن الأبار، المقدمة (ل). انظر: أعلاه، 41-43.

أصحاب أبي علي الصدفي(تلاميذه ومعاصريه) وسمّاه " **المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي** "(178) .

وهذا الشرح، مع نظرة في البحث الحالي سلفت وأخرى تلت، تفسّر ضخامة جموع العلماء والمؤلّفين، في أيّ حقل وعلى تتابع السنين. فزهت بهم مدن الأندلس كافّة وعظمت حضارته.

ثانياً : كثرة الإنتاج

إنّ ما مرّ بنا في الفقرة السابقة وما تجده مبثوثاً في ثنايا هذا البحث يُكَوِّن لنا نظرة عن الكيان العلمي الذي أوجده الإسلام في مجتمعه بالأندلس، مثل غيره من مناطق عالمه الواسع الرائع. ويصبح ليس صعبا تصوّر نوعية المستوى الفكري والحالة العلمية وطبيعتها، التي توفّرت لدى مُسْلمة الأندلس.

وُجِدَت للعلم عادات وأعراف، وللعلماء سَمْت وسمات وأخلاق ومسؤوليات. إنّ من يتصدّر مجالس التدريس لا يحتجب عن المجتمع، بل يقف مع أفراده في قضاياهم ويكون على علم بأحوالهم. بل كذلك يتصدّر حلّ مشاكلهم وقيادة تحرّكاتهم. **فطالما كان أهل العلم كهفاً للناس وملجأً .**

من ذلك ما يذكره لنا صاحب " **الصلة** " عن أبي القاسم عبد العزيز بن محمد بن عَتّاب بن محسن، من أهل قُرطبة(491هـ = 1098م)، بأنّه " كان رحمه الله فاضلاً، متصاوناً، وقوراً، مُسْمتاً، مَهيباً، معظّماً عند الخاصة والعامة كريم العناية بمن اختلف إليه وتكرّر عليه، قاضياً لحوائجهم مبادراً

---

(178) طبع هذا الكتاب في القاهرة (1387 / 1967) ضمن " المكتبة الأندلسية " . وطبع مرة أخرى، ويشار إليها هنا بـ(الجديدة) . انظر قائمة المصادر .

إلى رغباتهم نهّاضاً بتكاليفهم، حافظاً لعهدهم، وصفه لنا بهذا غيرُ واحد ممّن لقيه وجالسه "[179]. وأبو الوليد ابن رُشْد الأكبر (الجدّ، 520هـ) فقد "كان الناس يلجأون إليه ويُعوّلون في مهمّاتهم عليه، وكان حسن الخلق سهل اللقاء كثير النفع لخاصّته وأصحابه، جميل العشرة لهم حافظاً لعهدهم كثيراً لبرّهم "[180]. وكذا ابنه أبو القاسم أحمد بن محمد بن أحمد بن رُشْد (487ـ563هـ) فقد" كان خيرا فاضلا عاقلاً ظهر بنفسه وبأبوّته مُحَبَّباً إلى الناس، طالبا للسلامة منهم، بارا بهم "[181].

ومثلهما ابن رشد الأصغر (الحفيد، 595هـ) الفيلسوف الذي" تأثّلت له عند الملوك وجاهة عظيمة لم يصرفها في ترفيع حال، ولا جمع مال إنما أصرها على مصالح أهل بلده خاصة، ومنافع أهل الأندلس عامة "[182].

كذلك كان أبو عمر ابن المكوَى أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي (324ـ 401هـ) "[183]كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت إليه رياسة العلم بها

---

(179) الصلة، 372 (رقم: 796). (الجديدة)، 2 543 (رقم: 799).

(180) الصلة، 575 (رقم: 1270). (الجديدة)، 3 ، 840 (رقم: 1278).

(181) الصلة، 83(رقم: 181).(الجديدة)، 1/ 139(رقم: 181). المغرب في حلى المغرب، 1/ 162. بغية الملتمس، 168(رقم: 369).

(182) التكملة، 2/ 554 (رقم: 1497).

(183) عنه انظر كذلك: رسائل ابن حزم، 2/ 86ـ87، 181. جذوة المقتبس (الجديدة) الحميدي، 1/ 208 (رقم: 232). ترتيب المدارك، القاضي عياض، 4/ 635.

أيام الجماعة " (184) الذي" انتفع الناس به ووثقوه في أمورهم ولجأوا إليه في مهماتهم "(185).

علّم الإسلامُ أهلَه بأنّ العلم ليس لملء الرؤوس، بل قبل ذلك لتهذيب النفوس، سلوكاً يَنتظم كلّ الأمور. فالعلمُ سلوك في النفس والأهل والمجتمع، وفي كلّ مكان ومع كائن من كان وفي كلّ الظروف والأحوال. وهكذا كان علماؤهم، فاستأهلوا أن يكونوا من أهل العلمِ بحقّه. ليس ذلك للعلماء فقط بل لكلّ فرد. فالعالم الحقّ الذي يعمل بما يعْلم ويبلّغ للناس علمه، وعليه مسؤولية عدم تعليمهم. فكأنّه هو المكلّف أن يذهب إلى الناس وهم مكلّفون بالسعي إليه. ولعلّ مسؤوليته أكبر وعليه السعي إليهم أوجب، فينفع نفسه وينفع غيره، باذلاً لهم جهده وعلمه. وتلك مهمّة العلم في الإسلام، يؤدّيها العلماء دون توانٍ أو كلل. (من سئل عن علم فكتمه أُلجْم يوم القيامة بلجام من نار).

وهذا مّما يفسّر لنا شيوع العلم والمعرفة، وكذلك يعين على وصف الشعب الأندلسي بأنّه متعلّم، وربما انعدمت فيه الأمية تماماً(186). ولا بدّ أنّه كانت لهم يومذاك، طريقة معيّنة في تعليم القراءة والكتابة، وهو أمر يستحقّ الدراسة.

---

(184) الصلة، 22 (رقم: 38).(الجديدة)، 1/ 53 (رقم: 28).

(185) الصلة، 23. وعن أمثلة أخرى انظر: الصلة، 323 (رقم: 694). نفح الطيب، 3/ 171.

(186) راجع: الحضارة الإسلامية في الأندلس، 27 ـ 28.

وعلى ذلك الأساس كان اكتساب العلم وطلبه وبثه عن كل وسائله، منها الكتب اقتناء وتأليفا. فأولئك العلماء هم الأرض الطيبة" قبلت الماء فأنبتت " الخير الوفير كما وصفهم حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم الذي يرويه البخاري ومسلم في صحيحيهما "[187] إن مثل ما بعثني الله به عز وجل من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضا. فكانت منها طائفة طيبة. قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير. وكان منها أجادب أمسكت الماء. فنفع الله بها الناس. فشربوا منها وسقوا ورعوا. وأصاب طائفة منها أخرى. إنما هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ. فذلك مثل من فقه في دين الله، وتفقه بما بعثني الله به، فعلم وعلم. ومثل من لم يرفع بذلك رأساً. ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به " [188].

يذكر الحُمَيْدي في " **جذوته** " عن ابن حزم القرطبي، السابق الذكر، بأنه "كان حافظاً عالماً بعلوم الحديث وفقهه، مستنبطا للأحكام من الكتاب والسنة، متفننا في علوم جمة عاملا **بعلمه**، زاهدا في الدنيا بعد الرياسة، التي كانت له ولأبيه من قبله، في الوزارة وتدبير الممالك، متواضعا ذا فضائل جمة، وتواليف كثيرة في كل ما تحقق به في العلوم. وجمع من الكتب في علم الحديث والمصنفات والمسندات شيئا كثيرا، وسمع سماعا جماً "[189]. ولذلك ما استحق حمل العلم من تخلف عن الصفات

(187) من الحديث الشريف المثبت والمخرج في أول الكتاب.

(188) راجع: الحاشية السابقة. كذلك: جامع الأصول، 1 / 284.

(189) جذوة المقتبس، 308 (رقم: 708). (الجديدة)، 2/ 489 (رقم: 708).
لعلّ الإشارة في جمع الكتب هنا تصلح لوصف مؤلفاته أيضا. سير أعلام النبلاء، 18 / 193. أعلاه، 16.

الأساسية التي تعتبر من مستلزمات العلم وضرورياته.

وكذلك حُدِّث أهلُ الأندلس بقول الإمام مالك بن أنس إمام دار الهجرة(93ـ 179هـ = 712ـ 795هـ): "لا يُحمل العلمُ عن أهل البدع كلِّهم، ولا يُحْمَل العلمُ عمّن لم يُعرف بالطلب ومجالسة أهل العلم، ولا يُحْمَل عمَّن يكذب في حديث الناس، وإن كان في حديث رسول الله صلّى الله عليه وسلّم صادقاً، لأنّ الحديثَ والعلمَ إذا سُمع من العالم فقد جُعل حجّةً بين الذي سمعه وبين الله تبارك وتعالى "(190).

وكتب التراجم الأندلسية ـ كما مرّ بنا ـ لم تكن تُثني على علم العلماء واهتمامهم بجمع الكتب واستيعابها والتأليف فيها وحده، بل وعلى صفاتهم وأخلاقهم، التي تبدو وكأنّها شروط أو جوانب من العلم ذاته لا تنفصم.

ولوضوح هذا الأمر عند مؤلفي "**التراجم الأندلسية**" فإنّهم لم يتعرّضوا للجانب العلمي عند المُتَرْجَم به فقط وإنّما إلى سلوكه وأخلاقه وصفاته الأخرى(191)، التي تتحكّم في تحديد مكانته الاجتماعية. ويتردّد الوصف "**بالعلم والصلاح**" (192) لحَمَلَة الكلمة، إشادةً وبياناً وشارة مُمَيِّزة. وتجرّد العالم المترجَم به من فضلها وخيرها يجعله ـ رغم علمه ـ مدعاة للحطّ من قدره أكثر.

(190) نفح الطيب، 2/ 507. وعنه انظر: ترتيب المدارك، وفيات الأعيان الأعلام، 5/ 257.

(191) قارن: مقدّمة الصلة (ع).

(192) التكملة، 1/ 301 (رقم: 821).

وليس احتساب هذا السلوك مقصورا على تصرفاته الخاصة بمفرده، بل في تعامله مع الآخرين. سيما في الأحداث والمواقف، ودونما مواربة أو خوف.

فيذكر ابن بشكوال في **صلته**، خلال ترجمة سعيد بن عثمان بن البنا، قول أحدهم: " ومن قبّل يد سلطان، فكأنما سجد لغير الله عز وجل "[193]. وورد وصف الكثير من العلماء بالصلابة، فكان أحدهم "**صليباً في الحق**"[194]، أحكاما ومواقف.

كان هؤلاء العلماء في كلّ ذلك صادرين عن عقيدتهم الإسلامية وبها ملتزمين. منها تكوّنت دوافعهم العلمية، وفي قالبها صيغت أهدافهم. فخدموا الخير وعملوا للحقّ ووقفوا عند حدوده.

كانوا في عملهم العلمي يبحثون عن رضا الله تعالى. راغبين فيما يقرّبهم إليه ويكسبهم العُتبى والمَثوبة[195]. وتلك كانت تجارتهم يعملون لإثرائها ويسعون لإنمائها. كانوا أصحاب رسالة وحملة أمانة. يعملون بجدية وهمّة هميمة دائمة يقظة لأدائها.

وبهذا الصنف من الناس، الفعول للخير القيّم على الفضيلة، تعمّر الأرضُ وتُمسك بعُمرانها محافظة، وتتمتع بالنعم وتُنشأ الحضارة وتوجه لإنسانيته، لأنّه صنف مرهف الشعور بالمسؤولية حريص على معاني الخير

---

(193) الصلة، 221 (رقم: 503).(الجديدة)، 1 / 345 (رقم: 508).

(194) انظر مثلا: الصلة، 23(رقم: 38)،) 133 رقم 270)، 473 (رقم: 1019)، 516 (رقم: 1126). التكملة، 1 / 301 (رقم (821، 2 / 823 (رقم: 2010). الإحاطة، 1 / 196. تاريخ علماء الأندلس، 1 / 245.

(195) أعلاه، 12 وبعدها.

بذاتيته، أصيلة معينها غير نضوب، تمسك على الإنسان كرامته وتعمل على صيانة إنسانيته وإعلائها، وكل ما عداها سراب كذوب وظلّ زائل.

فالعلم وراثة النبوّة و" إنّ العلماء ورثة الأنبياء، إنّ الأنبياء لم يورّثوا دينارا ولا درهماً، إنما ورّثوا العلم فمن أخذ به أخذ بحظ وافر "(196). فالعلماء يؤدون حقّ الإرث، تلقياً له وسعيا في تحصيله وحرصاً على إلقائه.

ومن جميل الأمثلة موقف أبي العباس ابن الصقر الأنصاري الخزرجي (المريّة، 492- مرّاكش، 569هـ) أصله من سرقسطة الذي جرى ذكره في هذا البحث غير مرّة(197). لأوّل وصوله إلى مراكش تعرّف عليه أحد سراة لمتونة، وكان عاملاً على دكّالة(198)، وعرف ما عليه أبو العباس من المكانة العلمية وحسن الهدي وجمال الطريقة، فرغّبه في الانقطاع إلى صحبته والخروج معه عامَهُ ذاك و" يعطيه ألف دينار ذهبا مرابطية فامتنع من ذلك وقال: " والله لو أعطيتني ملء الدنيا على أن أخرج عن طريقتي وأفارق ديدني من خدمة أهل العلم ومداخلة الفقهاء والانخراط في سلكهم ما رضيت "؛ فعجب اللمتوني من علوّ همّته ورغب في صحبته على ما أراده "(199). وتضاف هذه الحادثة إلى نظائرها(200) مؤكّدة البيان والتمثيل

---

(196) من حديث للرسول الكريم عليه الصلاة والسلام: سنن الترمذي (طبعة عزت عبيد الدعاس، حمص، 1387 / 1967)، 7/ 325 (رقم: 2683).

(197) انظر: ابن الصقر، في الكشاف العام.

(198) دكالة اسم قبيلة وولاية في المغرب الأقصى، تقع شمال مدينة مراكش (نفاضة الجراب، ابن الخطيب، 160). ولمتونة: القبيلة التي منها المرابطون، وهي إحدى بطون صنهاجة كبرى القبائل البربرية (دول الطوائف، عنان، 299).

(199) الذيل والتكملة، 1 / 227. كذلك: الديباج المذهب، 49.

(200) انظر: أعلاه، وأدناه.

لمكانة أهل العلم واعتزازهم به وتقدير الحكام لهم، بشكل ليس فيه تردّد، بل ثبات الوجهة القائم على الوضوح لمقوّمات كوّنتها لديهم العقيدةَ وغرستها فيهم تعاليمُ الدين، لا يُغريهم سلطان أو يُرغّبهم مال، طالما كانا قوّة تفشل في صدّهما غيرَ قوّة العقيدة الإسلامية التي تملك النفس وتصيغها في سلوك متين يحتفظ بالجمال والأناقة.

وهم يعلمون أنّ الأجر يتناسب مع حجم خدماتهم العلمية والاجتماعية، بكلّ أشكالها وأساليبها كافة. مُلزمون بأداء أمانتهم "نضر الله امرءاً سمع مقالتي فوعاها وحفظها وبلّغها. فربّ حامل فقه إلى من هو أفقهُ منه "[201].

وكما حرص هؤلاء العلماءُ على بث العلم وإيصاله إلى الناس. بالتدريس والإقراء في حياتهم، حرصُوا مثل ذلك وأشد على توريث هذا العلم، بتدوينه والتأليف فيه. فانتفع به معاصروهم في حياتهم ومن جاء بعدهم من قادم الأجيال.

كانت للكلمة عندهم حرمة وحقّ ومكانة وهدف. فلا تلقى جزافا. بل هي وليدة يقين وتقوى، ولا تباع بعرض بل تقال شعورا بوجوبها وصدقا بواقعيتها، وليست للتظاهر بل بجدية والتزام، ولا لملء أشداق وليّ أعناق، بل للتوجيه والاهتداء. وتلك هي الكلمة المعدومة التجويف، الباقية القوية المليئة بالحياة ما دامت الحياة. كلّ هذه العوامل وغيرها تفاعلت فجعلت للعلم قيمة ولأهله اعتباراً وللأخذ به مكانة مرموقة[202].

(201) سنن الترمذي، 7/307 (رقم: 2660).

(202) أعلاه. كذلك مقدّمة كتاب الصلة (س)

فهذا " **السلوك العلمي** " في الحرص والالتزام وفي الأخذ والعطاء، قاد إلى بذل الجهد للدرس والإنتاج في كلّ الأحوال، دونما توقّف أو تخلّف، منذ الصغر وحتى نهاية العمر، من غير أن يعتري أحدهم الملل. وتلك طاقة فذّة لا تقوم بها غير عقيدة الالتزام التي تلد المعجزات.

ومن تفاعل هذه العوامل داخل هذا الجوّ وفي رحاب هذه الظلال. كانت مؤلفات المسلمين في الأندلس، كثرةً ضخمة ووفرة عجيبة. لانستطيع لها تفسيراً مُوَفّقاً إلاّ من خلال هذه الظروف التي تحرّكها هذه الدوافع وتقودها تلك الأهداف، وهي تسير بخطى ثابتة في هدْي الله سبحانه وتعالى.

ولسعة علمهم وورع نفوسهم كان السؤال يأتي من أحد ـ أيّ أحد ـ إلى عالم منهم يرجوه جواباً، فيكون كتاباً[203]. وفي هذا معنيان:

* الغزارة في العلم والثراء في المعرفة والإلمام الواسع بالموضوع مع الإحاطة الشاملة بجوانبه ثمّ الإصغاء لمطالب الناس، وقد يكون دون معرفة أو صلة ولو أحياناً، وليس لهذا علاقة.

* ثمّ الاستجابة للسائلين على أحسن صورة وأكمل رعاية. مع الحرص على الوفاء والاستيفاء، والشعور بالتبعة في الإجابة بعناية، وافتراض المناسبة لإرضاء نزعة العطاء، واستقصاء جواب السؤال بكلّ آفاقه، في نظر المؤلّف وعمقه، لا في نظر السائل. وهذا يجري باهتمام يفوق اهتمامه وفرحٍ بأداء الأمانة، يزيد فرَح التلقّي ويتجاوز شَغَفَ المعرفة عنده.

وكلّ هذا ضمن الدوافع التي وُضّحت فيما سبق " **رجاء عظيم الثواب**،

---

(203) لدينا في ذلك عدّة أمثلة، منها الكتاب المذكور في الحاشية التالية.

وطمعاً في الزلفى يوم المآب "[204].

فهذا وغيره أنتج لنا المؤلفات الكثيرة، لكثرة من العلماء. فيروى - لموكب طويل - ثَبْت عالٍ من الكتب، أصيب الكثير منها بالعطب.

إنّ المستوى الرفيع والغزارة العلمية الفياضة، التي تمتّع بها أولئك العلماء، لا يُسْتَغْرَب معها وصول إنتاج كلّ منهم إلى عشرات المؤلفات. فازدهرت بمؤلفاتهم خزائن الكتب الأندلسية الخاصة والعامة، تُعَدُّ بمئات الآلاف، إن لم يكن بالملايين. وَرِثْنا بعضها، وما ذهب منها أكثر من الكثير.

إنّ ظاهرة الغزارة التي أنتجت هذه الكثرة في التأليف، رسمت لنا صورة أخرى مدهشة تدلّ عليها. ذلك أنّ بعض العلماء كان لديهم وراقون يُمْلُون عليهم ما يؤلفون[205]**. إنّها حقّاً ظاهرة تثير التعجيب.**

ومن ناحية أخرى فإنّ ظاهرة الكثرة في التأليف تشير كذلك إلى غزارة العلم عند أهله، والكثرة في المؤلفين تدلّ على فيض هذا العلم في المجتمع وسعته وأصالته[206]. وهي ظاهرة علمية أخرى تتعلق بكثرة الأعلام - نساء ورجالا - التي يتميز بها المجتمع المسلم عموما والأندلس خصوصا. وهي

(204) جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله، أبو عمر يوسف بن عبد البر (طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنوّرة)، 1/3. وهذا الكتاب من جزئين كان جواباً على سؤال سائل. ومثل ذلك فعل ابن حزم الأندلسي في " رسالة في فضل الأندلس" (نفح الطيب، 3/156. رسائل ابن حزم الأندلسي، 2/171) وفي كتابه " طوق الحمامة " (رسائل ابن حزم الأندلسي، 1/40، 84 وبعدها).

(205) انظر: أعلاه، 49.

(206) قارن: أعلاه، 70 وبعدها، أدناه، 196-205 وبعدها.

كذلك ظاهرة تستحق الدراسة، مستقلة ببحث أو منضوية فيه.

ونظرة في مؤلَف أو أكثر، مما وصلنا، لعديد من هؤلاء العلماء، تدلنا على العمق والشمول وتشير إلى المتانة في التأليف ومقدرة على الإنتاج الغنيّ بالغزارة الواسع بالشمول المليئ بالجدة والعمق، الذي ينسجم أن يكون له.

واعتبارًنا للصفات العالية العلمية والنفسية والخلقية السلوكية التي تمتَع بها علماؤنا في الأندلس، وتعرُفُنا على قدراتهم العقلية في الفهم والاستظهار وطاقاتهم الإيمانية وقابلياتهم في الاستيعاب والإتقان - وهو ما عُرض بصبغته هنا - يقودنا إلى تقدير هذه الكثرة وفهمنا لطبيعتها.

ولم يكن الرقم العالي في المؤلفات لشخص واحد محصورا في الأندلس، فهو متوافر في البلدان الإسلامية على مختلف العصور.

وليست الكثرة في التأليف ظاهرة سهلة أو اعتيادية، بل هي أيضا دليل صفات علمية عالية متعدّدة، صاغتها طبيعةُ هذا المجتمع ومكوّناتُه المتميَزة، من الطاقات الهائلة والمستوى الذكائي الرفيع وسعة الأفق العلمي وعلوّ الباع، مع الصبر والروية والرغبة والجدية، بهمّة نادرة متأنقة ونشاط دائم متحسس متحمس متحسن، وبصورة عزيزة المنال. وهي - في مثل هذا الجوّ - تنمو وتتسع لتؤكّد حقيقتها.

ومسألة أخرى مهمَة تدلّ على سعة الأفق العلمي وشموله لعموم المجتمع، سيما عند العلماء. تلك هي تعدّد الميادين بالنسبة إلى الفرد من هؤلاء العلماء الأعلام. ولا يدفع من أهميتها التوهّم أو الإيهام ولا الادعاء بأنّ ميادين العلم يومها كانت محدودة ضيِّقة، والجمع بينها ميسورا لا يشكل ميزة.

فتلك جهالة فاضحة وافتراء مكشوف. حقيقة أنّ بعض فروع المعرفة الإنسانية الحاضرة زادت اتسعا وعمقا، عما كانت عليه في تلك الأيام، ولكنه لا يصلح للمحاججة في هذا الاتجاه. فإنّ الميادين العلمية المتعدّدة آنئذ كانت متسعة متعمقة غنية بالمثابرة والسعي والإنتاج. كانت في أولها - يوم بدأ المسلمون حياتهم العلمية - بسيطة أو أقام المسلمون بعضها ابتداء، فاستمرت تنمو وتتصور وتتقدم. وهذه الاستمرارية طبيعة وضرورة علمية لذلك الجوّ الرفيع، لولاها لأصيب بالجمود. ولذ كان هذا المستوى الفريد، الذي نتحدّث عنه وجلي منه جوانب شامخة ونجتني حقائق.

واستمرّ النمو في الميادين المختلفة وتد ولتنهب الأيام بحداثيه والناس بأقداحها. وزاد بعضها زيادات ملحوظة وأكسبته أعماقا جديدة. فصار التحوّل في هذا الخط المتجه صوب الأهداف التي ارتسمتها عقيدة الإسلام. وهذا لا يلغي ولا يقلّل حقيقة ما ذكرت.

فمن الضروري للعلم أن يكون في اتساع دائم وفتح جديد. وأيّ زيادة نحصل عليها اليوم في ميدان ما، لا تشير إلى ضيق فيه قبل ذلك. بل كان واسعاً، لكنّه أضاف إلى اتساعه وسيضيف، ما دامت فيه حيوية.

إنّ كثرة المؤلفات المهمّة في هذه الميادين كافة لدى علماء الأندلس - مع التفاوت - لتَدُلّ على ذلك بشموخ وحزم. فإلام تشير الكثرة من الكتب - سيما في الأندلس - التي تُرجمت إلى الغرب، رغم تحديد مجالاتها ونوعيتها؟ كان هذا النقل أساساً للتقدم العلمي الذي يعرفه عالَمهم. فبم نُفسّر اعتماد الجامعات الغربية في التدريس، في قرونها الوسطى وحتى قرون قريبة، على ما ترجموه من الكتب الإسلامية، خاصة في الأندلس،

لعدّة قرون، دون تغيّر فيها؟

فإنتاج علمائنا الغني في الأندلس الغزير في الميادين الكثيرة الواسعة يؤكّد ما سبق، ويدلّ على روعة الدوافع وقوّتها وأصالة أعماقها وعلى الهمّة العالية الواعية في طلب المعرفة والصبر والجهد في تحصيلها والقوّة على تدوينها والانكباب على الإنتاج فيها وإيصالها إلى الناس، ليس فقط بطريق الكتاب ولكن كذلك ـ وبحرص ـ **بطريق التدريس والإقراء**، من نشر العلم وبثه.

فكانت تلك الاهتمامات أساساً للاضطلاع بهذه المهام، من القيام بواجب التدريس، يُعَمِّرون بها نهارهم يُحَلِّقون له مجالسهم ويضيئون ليلهم يدوّنون ويصنّفون.

كلّ ذلك لم يحجبهم عن الاهتمام بأمور المجتمع، والإحساس العملي الداعي للمشاركة بقضايا المسلمين، في البقاع الأخرى من دار الإسلام، والوقوف في المقدّمة ساعة الأزمة، وتولّي الوظائف العامّة غير التدريس، والسعي في أداء مهمّة تقتضي السفر إلى خارج الأندلس. فكان العلماء والفقهاء، للأمّة حصناً ولحماها درعاً. فهم الذين سعوا للمّ شَعَث الأندلس وجمع أياديه أيام الطوائف، فكانوا سفراء بلدهم إلى عُدوة المغرب لدعوة المرابطين إلى معاونة إخوانهم الأندلسيين في جهادهم لدفع غائلة اعتداء إسبانيا النصرانية، ومن آزرهم من أقوامها الصليبية ـ وبرعاية البابوية ـ خلف جبال البُرْت (Sp. PIRINEOS. Eng PYRENEES)[207].

---

(207) عن جبال البرت هذه راجع: التاريخ الأندلسي، 96 وبعدها.

فقاضي الجماعة بقرطبة أبو الوليد بن رُشْد الجدّ (450ـ520هـ = 1058ـ 1126)،[208] صاحب المؤلفات الكثيرة، هو الذي سَفَر إلى عُدوة المغرب سنة 520هـ للقاء أمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشُفين، لإبداء الرأي في بعض الأمور المتعلّقة بالأندلس وشؤونه، فأخذ الأمير بنصيحته[209].

وإنّ القاضي الإشبيلي أبا بكر بن العربي (468ـ543هـ = 1076ـ1148م) ذهب إلى الشرق الإسلامي مع والده سنة 485 وأقام في عدَة مناطق، تلقّيا خلالها العلم والتقيا بالعديد من العلماء. وفي أثناء إقامته في بغداد انتدب نفسه لمهمّة سياسية فكتب في سنة 490/ 1097 إلى الخليفة العباسي المستظهر يرجوه فيها تأييد المرابطين[210]. وحمل معه فتاوى فقهاء المشرق ومرسوم الخليفة في هذا الشأن إلى الأمير المرابطي[211]. وهو الذي ذهب إلى مراكش في عُدوة المغرب على رأس وفد من إشبيلية لحمل بيعة أهلها إلى أمير الموحدين عبد المؤمن بن علي الكُومي في أوائل سنة 542هـ[212]. وابن العربي هذا صاحب المؤلفات الكثيرة التي وصلت الأربعين، كان بعضها

(208) انظر: أعلاه، 75 وغيرها وحفيده: أدناه، 97-162.

(209) الإحاطة، 1/ 119 ـ 120. عصر المرابطين والموحدين، 1 113، 132، 416. التاريخ الأندلسي، 433ـ436. كذلك: أزهار الرياض، 3/ 61. المرقبة العليا، 99. الصلة (الجديدة)، 3/ 839 (رقم: 1278).

(210) تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، 399 ـ 400. كذلك: المغرب، 1/ 255. الصلة (الجديدة)، 3/ 856(رقم: 1305). نفح، 2/ 28. الغنية، 134. المرقبة، 105 ـ 106. أزهار، 3/ 62.

(211) عصر المرابطين والموحدين، 1/ 44.

(212) المصدر نفسه، 1/ 267، 325.

صغيراً وعَدَّ بعضُها الآخر أجزاء كثيرة[213].

وكم من هؤلاء العلماء من خاض ميادين الجهاد، وهو في مقدّمتها، فنال شرف الاستشهاد، بفرح واستبشار، فكانوا العلماءَ المجاهدين. وبعد أن جاهدوا بعلمهم، والعمل عنوان العلم وهو ترجمانه. منهم:

* الفقيه الناسك أبو العباس أحمد بن رُمَيلة القُرطبي الذي استُشهد في معركة الزَّلاَّقة (SAGRAJAS) سنة 479هـ = 1086م[214]،

* وأبو علي الصدفي العلاّمة المشهور الذي استُشهد في معركة كُتُنْدَة (قُتَنْدَة CUTANDA) سنة 514هـ (1120م)[215].

* وأبو الربيع سليمان بن سالم الكَلاعي الحافظ الذي بلغت مؤلفاته زهاء خمس وعشرين، استُشهد في معركة أنيشه (= أنيجه PUIG DE CEBOLLA) قرب بلنسية (VALENCIA) سنة 634(1236م) مع سبعين من العلماء، وكان يحمل الراية ويحثّ الناس على الجهاد والاستشهاد[216].

والأمثلة على ذلك كثيرة[217].

فهذه الصفات العلمية الفريدة لعلمائنا في الأندلس وسعيهم لطلب

---

(213) أعلاه، 30، 43 - 44.

(214) الصلة، 68 (رقم: 144) . البيان المغرب، 4/136، 140 . التاريخ الأندلسي، 407.

(215) الصلة، 146 (رقم: 330) . نفح الطيب،2/92، 4/461 . المعجم، 4 (رقم: 3) . عصر المرابطين والموحدين، 1/103، 406 . التاريخ الأندلسي، 429.

(216) نفح الطيب، 4/ 473 . التاريخ الأندلسي، 473 وبعدها.

(217) الصلة، 572.

العلم ووعيهم له وحرصهم على أدائه للناس بأمانة وبذله لهم بصدق. جعلهم نوعية متميزة، هي في العلم ذات موازين خلقية رفيعة. فكانت صيانة لمجتمعهم وصمام الأمان له، أمام الأخطار التي تتعاون فيها عوامل الشر وتتحد. فكانوا للحق دعاة وللخير بناة وللأمة رعاة. نضرت بذلك وجوههم ونفوسهم واخضرت حياة مجتمعهم. بما أتى غرسهم من ثمار هنيئة استمتعوا بها. وما زال أكلها دائما. نفعهم الله. لما أرادوه به. رضى ومثوبة، يوم يقوم الأشهاد. وأدخلهم ـ بفضله ـ جنة عرضها السموات والأرض.

مما سبق وما يقدمه هذا البحث من صورة لطبيعة الجو العلمي الأصيل في الأندلس. وما يرسمه من ملامحه الواضحة وسماته القوية الناصعة. يتضح لنا الكثير عن حقيقة المستوى العلمي والغزارة في الإنتاج والكثرة في التأليف.

ثالثا: كثرة أجزاء الكتاب

تواترت الأخبار تواترا كبيرا عن مؤلفات المؤلفين. وهي في مجموعها كثيرة. وكذلك بالنسبة إلى إنتاج كل مؤلف. كما تواتر عن ارتفاع عدد أجزاء الكتاب الواحد لعديد من الكتب والمؤلفين. وهي ظاهرة تحتاج إلى إلقاء بعض الضوء عليها. وكم يمكن الأخذ بها واعتمادها؟

الحديث الآنف عن الجو العلمي ومستوى العلماء، وكثرتهم وغزارة المعرفة عندهم وقدرتهم العالية على الإنتاج، يعين على سهولة تصور هذا الأمر وإمكان الأخذ بواقعيته، بعد تحديده. فلو حدث أن وقع الخطأ في ذكر عدد

أجزاء كتاب ما، أو توهّماً في قراءة رقمه المكتوب ـ وليس ضرورياً ـ فلا يقاس على هذا النادر بحال. ولا يمكن نسبة هذه الظاهرة إلى المغالاة أو المبالغة، لأنّ هذه الأنباء كثيرة لدى عديد من العلماء والكتب في عصور طويلة. ورواتها كثيرون، من أهل الفقه والصدق والصيانة والتقوى، عُرفوا بها في حياتهم العلمية ومسلكهم العام. كما لا يمكن أن يجتمع على المغالاة كلّ مؤلّفي المصادر والتراجم، التي احتوت هذه الأخبار.

إنّ هؤلاء الثّقات أصحاب التراجم والأمهات، كانوا أمناء وكانت مصادرهم موثوقة ورواياتهم عن ثِقات مثلهم. ومعتمداتهم وثائقية، وكثير منها مَشاهد شهود عِيان. وهذا موضوع آخر، عرضه ومناقشته والحديث عنه خارج هذا البحث، لكن ذلك يتضح من قراءة في كتبهم. والطريقة التي اتبعوها وتوفّرت لديهم، هي أوثق من مجرّد الإشارة إلى المصدر وتعيين موضع الخبر. لأنّ مجرّد الإشارة ليست هي بذاتها موضع الثقة، بل الثقة بنوع المصدر وقيمته العلمية وطريقة تلقّيه ومقدار الثقة بالناقل وأمانته ومصادره هو. بل إنّ كثيراً من هؤلاء الكُتّاب كانوا من هذه النوعيات التي ملكت تلك الميزات وعانت الإنتاج وأكثرت منه. فهم لم يُثيروا شكاً حول هذه الأخبار، التي ألِفوها واقعاً وعاشوها حقيقة ورأوها عياناً، ومارسوها إنتاجاً ونقلوها أمانة مؤتمنة ومؤداة.

وإنّ هذا الإنتاج صادف من الاعتداء ونُكب بأحداث ذهبت بالكثير منه، وأنهت وجود كثير من تلك المؤلفات الطوال، التي كان بقاؤها يغني عن كثير من هذه المناقشة. إنّ حملات الإعدام التي وُجّهت لهذا الإنتاج

وأغارت على المكتبة الإسلامية لم تُبقِ لنا منه إلا القليل، عرّفنا بأسمائها وأخبارها ـ دون ذواتها ـ البقية التي سلمت لنا. لقد حمل هذا الإنتاجُ وضمّت تلك المكتبةُ العقيدةَ الإسلامية وشريعتها، وبيانَ العلماء المسلمين وفكرَهم النابع منها. فاستهدفت حملاتُ الظلم الحالكة والجهالةُ الحمقاءَ، القضاءَ عليه، أسيرةَ الجهل، عداء له وخوفا من سريانه[218]. استهدفت القضاءَ عليه، بحرقه وإتلافه، دونما سجنه أو إغلاقه. (انظر ص99) وكان هذا في الشرق الإسلامي كما في غربه. إذ أين ذهبت مثلا مكتبة بني عمار في طرابلس الشام عاصمة ملكهم؟ لما احتل الصليبيون طرابلس سنة 503هـ = 1110م بعد حصار سبع سنوات وارتكبوا النهب والسلب [219] والحقد. فدخل أحد القسس هذه المكتبة التي قُدرت كتبها بالملايين، ودخل قاعة القرآن الكريم، فكلما التقط كتابا وجده " القرآن الكريم "، فثار غاضبا وأمر بإحراق المكتبة التي أتت عليها النيران[220]. وإلى هذه الحادثة يشير بإجمال ابن الأثير[221].

إنّ الكتب ذوات الأجزاء الكثيرة، إضافة إلى أنَّ الروايات عنها متواترة، ليست محدودة بل متوافرة، ما يؤكّد حقيقتها. ويبدو أنه فُقدت جمهرة كبيرة من هذه المؤلفات وذهب العديد من أجزائها. وإنّ الكتب التي

---

(218) انظر: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، محمد عبد الله عنان (القاهرة، 1381هـ = 1961م).

(219) العبر، الذهبي (تحقيق صلاح الدين المنجد، الكويت، 1963)، 6/4.

(220) الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة، 1963)، 1/372.

(221) المكتبات في الإسلام، ماهر حمادة (بيروت، 1390/1970)، 134.

وصلتنا، كاملة الأجزاء أو ناقصتها، فعدد أجزائها كما ذكر المؤلفون الثقات، والأمثلة فيه كثيرة. **وكلّ ذلك يُفهم في الإطار الذي ترسمه طبيعة المجتمع وتكوينه العلمي ونظرته إليه وتعلّقه به وشدّة الاهتمام والسعي له.**

وفرة المكتبات في الأندلس

تعدّدت في العالم الإسلامي - غربه وشرقه - مراكز الإشعاع الثقافي في مختلف ميادينه[222]. وأغنت قريحةُ المسلمين عالمهم بالمؤلفات، فكان إنتاجهم - زيادة على وفرته - يمتاز بالأصالة والدقّة، فطفح بها العالم الإسلامي[223]. وفي الأندلس - وارث حضارته - طما منها بحر زاخر.

لقد كثرت المكتبات في الأندلس، ووُجدت فيها الخاصة والعامة. وذكر البعض أنّ عدد المكتبات العامة في الأندلس أيام الخلافة بلغت سبعين مكتبة عامة[224]. ولعلّ بعض هذه المكتبات العامة كانت محدودة في

---

(222) راجع: تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، محمد جمال الدين سرور، 201 وبعدها.

(223) فمثلا يذكر ابن كثير في حوادث سنة 631هـ (البداية والنهاية، 13 140). حين الحديث عن المدرسة المستنصرية، بأنه "وقفت خزائن كتب لم يسمع بمثلها في كثرتها وحسن نسخها وجودة الكتب الموقوفة بها". انظر: نفح الطيب، 2 / 543.

(224) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 509. مجالي الإسلام، حيدر بامات (ترجمة عادل زعيتر، القاهرة، 1956)، 113. قارن: مجلة معهد المخطوطات العربية، بحث ريبيرا، 5 / 1 / 77. الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي (القاهرة، 1950)، 1، 260. كذلك: فهرسة ابن خير (تحقيق قديرا = كوديرا، بيروت - بغداد، 1382 / 1963)، المقدمة (ز). ولكن لم أعثر على نص قديم يشير إلى عدد المكتبات العامة في الأندلس.

عموميتها، تهتمّ بالدرجة الأولى وتفتح أبوابها للباحثين والعلماء. وهو أسلوب مهمّ ومفيد، وبعضها الآخر كانت عموميتها شاملة.

ولما كانت المساجد بمثابة دور للعلم، فمن الطبيعي أن تكون فيها المكتبات، يستعملها الطلبة في دراساتهم(225)، باعتبارها مكتبات عامة. ولا يبدو أنّ مكتبات المساجد تنطوي في عداد هذه المكتبات السبعين.

ومهما يكن من اعتبارنا لهذا الوضع فإن بيوت الأندلسيين، حتى غير العلماء، كانت تزيّنها ـ أجمل ما تزينها ـ مكتبة قلت محتوياتها أو كثرت.

لذا كثرت أحياء الكتب وحوانيتها في قرطبة، وغيرها من الأقاليم، والمدن الأندلسية، صغيرتها والكبيرة، وربما قراها وأريافها. وغدت أسواقها حافلة بالحركة العلمية في هذه التجارة النافقة والمهنة الرابحة والعمل المرغوب(226).

العناية بالكتاب وخزائنه

كلّ هذا كان يتمّ في الأندلس، رغم عدم توفّر ما توفّر لدينا اليوم، من وسائل النشر والطباعة الحالية وسهولة الاتصال والانتقال والخدمات الأخرى كافة المتعلّقة بالكتابة والإنارة وغيرها. ومع ذلك فكان الصيت العلمي والإنتاج الفكري سريع الوصول من بلد إلى آخر، في العالم الإسلامي، والكتاب ينتقل بسرعة واهتمام، فيتمّ تداول المؤلفات.

---

(225) راجع: مجلة معهد المخطوطات العربية، 5/ 1/ 77.

(226) دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 506. كذلك: تاريخ العرب (مطول)، فيليب حتي (بيروت، 1965)، 2/ 626.

وكانت الرحلة من أجل العلم تتمّ، للأخذ عمّن ظهر علمه وثبت له صونه، كما نرحل اليوم إلى الجامعات المشهورة للكسب العلمي، مع الاختلاف في الدافع والمدى والهدف. وكم من علماء الأندلس وصفت مكانتهم بأنّه" الرحلة كانت إليهم"[227].

فقد ذكر ابن بشكوال في **صلته** - حين الحديث عن أبي إسحاق ابن شنظير الأموي (352-402هـ) وأبي جعفر ابن ميمون (353-400هـ) - بأنّه قد" رحل الناس إليهما من الآفاق "[228].

مستوى التعليم بالأندلس

إذا كان شعب - كأهل الأندلس - نساؤه ورجاله كلّهم يقرأ ويهتمّ بالعلم، يتذوّقه ويستمتع بقراءته ومدارسته ويستوعب معانيه. حافظاً له محافظاً عليها، وفيه المئات أو الآلاف من العلماء والمتخصصين في كلّ ميدان، يكتبون ويؤلفون بوفرة غزيرة وأصالة باهرة وتمكّن نادر، فإنّنا نتوقّع سيلاً من الإنتاج جارفاً غامراً واهتماماً بالعلماء والعلم، ووسيلة ذلك الكتاب.

فكانت الأندلس قبلة للعلماء والمتعلّمين على السواء، ليس من العالم الإسلامي فقط ولكن من خارجه أيضاً. وغدا العلم والكتاب مصدر فخر وميدان سباق، به ترتفع مكانة الإنسان ويُعرف موضعه.

---

(227) رجع مثلاً: الصلة، 330 (رقم: 704)، 364 (رقم: 776) . تاريخ علماء الأندلس، 1 246 (رقم: 753)، 1 ,366 (رقم: 1070)، 2 21 (رقم: 1149). الذيل والتكملة، 4 / 85 (رقم: 203). نفح الطيب، 5 422.

(228) الصلة، 21 (رقم: 37)، 90 (رقم: 198).

وكثيراً ما اعتزّ وافتخر أهل الأندلس بإنتاجهم الفكري واهتمامهم به. ولابن حزم القرطبي **رسالة في فضل الأندلس**[229]، وتذييل ابن سعيد لها، والشَقُنْدي وغيرهما، رسائل معروفة في ذلك[230].

وأصبحت الكتب في الأندلس موردا رائقا وسوقها نافقا والبذل فيها جودا ـ وإن كثر ـ والسفر لأجلها والسهر في تدبيجها متعة. وكان ذلك عاما بين النساء والرجال وعموم الناس وخاصتهم، حكاما ومحكومين علماء ومتعلمين. منهم المكثر والمقل، الذي يسير مع من أنشد:[231]

يكفي من الحَلْي ما قد حفّ بالعنق

وغدت للعلم في الأندلس المكانة العالية ولأهله التقديم ولمجالسه التقدير. وكان للكتاب عند هؤلاء جميعا مأوى كريم ومنتدى منير. فكان الاعتزاز بالكتاب عاليا؛ حتى رُوي أن الجغرافي الأندلسي أبا عُبيد البكري (قُرطبة ـ 487هـ = قرطبة ـ 1094م) كان جميل الكتب مهتما بها، كان يمسكها في سباني الشَّرْب وغيرها إكراماً لها وصيانة[232]. ويقول أبو عبد

---

(229) عن ابن سعيد انظر: الإحاطة، 1 214ـ220، 483ـ485، 491، 213ـ217. 4/ 73، 152ـ158. المغرب في حلى المغرب، 1 1ـ9، 2 160ـ179. نفح الطيب، 2/ 262ـ370. وقد وضع أحد أفرادها فيهم كتابا (مفقودا): **الطالع السعيد في تاريخ بني سعيد**.

(230) انظر: نفح الطيب، 3/ 156ـ222. رسائل ابن حزم الأندلسي، 2 171ـ188.

(231) نفح الطيب، 3/ 225.

(232) الصلة، 287 (الجديدة)، 437 (رقم: 638). الحلة السيراء، 2 185. وسباني الشرب: المناديل الكبيرة التي كانوا يستعملونها في أثناء الطعام، وكانت تتخذ من رفيع القطن أو الكتان، وهي أغلى السباني. مفردها: سبنيَة.

الله محمد بن الفرج بن عبد الولي الأنصاري (بعد 450هـ) في بيان مكانة الكتاب:[233]

يا مُسْتَعيرَ كتابي إنّه عَلِقٌ بمُهْجَتي وكذاك الكُتْبُ بالمُهَجِ
فأنت في سَعَةٍ إن كُنت تَنْسَخُه وأنت من حَبْسِه في أعظم الحرجِ

بل أصبح جمع الكتب والحصول عليها ميداناً للمنافسة، ليس فقط للدراية والرواية، بل وأيضاً لإشباع جماح الهواية. فيروي لنا المَقَّري في "**نفح الطيب**"، نقلا عن ابن سعيد: " أنّ الرئيس منهم الذي لا تكون عنده معرفة، يَحتفل في أن تكون في بيته خِزانة كتب، وينتخب فيها، ليس إلاّ لأن يقال: فلان عنده خِزانة كتب، والكتاب الفلاني ليس هو عند أحد غيره، والكتاب الذي هو بخط فلان قد حصّله وظفر به"[234]. وينقل لنا المَقَّري كذلك في " **نفحه**" عن الحضرمي قصّة طريفة في هذا الباب فيقول: " أقمتُ مرّةً بقُرطبة ولازمتُ سوقَ كتبها مدّة أترقّب فيها وقوع كتاب كان لي بطلبه اعتناء، إلى أن وقع وهو بخطّ جيد وتسفير مليح، ففرحت به أشدّ الفرح، فجعلت أزيد في ثمنه، فيرجع إليّ المنادي بالزيادة عليّ، إلى أن بلغ فوق حدّه، فقلت له: يا هذا، أرني مَن يزيد في هذا الكتاب حتى بلّغه إلى ما لا يساوي، قال: فأراني شخصاً عليه لباس رياسة، فدنوتُ منه، وقلت له: أعزّ الله سيدنا الفقيه، إن كان لك غرض في هذا الكتاب تركتُه لك فقد بَلَغتْ به الزيادة بيننا فوق حدّه؛ فقال لي: لست

---

(233) جذوة المقتبس، 87 (رقم: 132). الصلة، 539 (رقم: 1183).(ج)، 3/ 792 (1191).

(234) نفح الطيب، 1/ 462ـ 463.

بفقيه، ولا أدري ما فيه، ولكنّي أقمت خزانة كتب، واحتفلت فيها لأتجمّل بها بين أعيان البلد، وبقي فيها موضع يسع هذا الكتاب، فلما رأيتُه حسن الخط جيد التجليد استحسنته، ولم أُبال بما أزيد فيه، والحمد لله على ما أنعم به من الرزق فهو كثير "[235].

قرطبة: وكان يقوم بين المدن تفاخر كبير بالعلم والكتب، وبذلك امتازت قرطبة، حيث: " يباري فيها أصحابُ الكتب أصحاب الكتائب "[236]. " وبها أُنشئت التأليفات الرائقة، وصُنِّفت التصنيفات الفائقة، والسبب في تبريز القوم ـ حديثا وقديما ـ على من سواهم، أنّ أُفُقَهم القرطبي لم يشتمل قط إلا على البحث والطلب، لأنواع العلم والأدب "[237]. " وهي أكثر بلاد الأندلس كتبا، وأشدّ الناس اعتناء بخزائن الكتب، صار ذلك عندهم من آلات التعيّن والرياسة "[238].

ويروي لنا المَقَري في **نفحه** ـ نقلا عن أبي الفضل التيفاشي ـ مناظرة جرت بين أبي الوليد ابن رُشْد القُرطبي (الحفيد) الفيلسوف(595هـ = 198 1م) وبين أبي بكر بن زُهْر الإشبيلي (595هـ) الطبيب، في المفاضلة بين قرطبة وإشبيلية. فقال له ابن رُشْد: " (ما أدري ما تقول، غير أنّه إذا مات عالم بإشبيلية فأُريد بيعُ كتبه حُملت إلى قُرطبة حتى تباع فيها، وإن مات مطرب

(235) نفح الطيب، 1/ 463.

(236) نفح الطيب. 1/ 461.

(237) نفح الطيب. 1/ 461.

(238) نفح الطيب. 1/ 462.

بقُرطبة فأُريد بيعُ آلاته حُملت إلى إشبيلية)، قال: وقرطبة أكثر بلاد الله كتباً" [239] وبذلك أشاد الأديب الكبير الشهير أبو محمد عبد الله بن سارة البكري الشَّنْتَريني (517هـ) بقرطبة:[240]

الحمد لله قد وافيتُ قُرطبةً ‏ ‏ ‏ ‏ دارَ العلوم وكرسيَّ السلاطينِ

وكذا فعل الحافظ أبو محمد عبد الحقّ بن غالب بن عطية المحاربي (481 ـ لُورَقَة، 542هـ = 1088ـ 1148م) صاحب التفسير الشهير[241] (**المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز**):

بأربعٍ فاقَتِ الأمصارَ قرطبةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ وهُنَّ قَنْطَرَةُ الوادي وجامعُها
هاتان ثنتان، والزهراءُ ثالثةٌ ‏ ‏ ‏ ‏ والعلمُ أكبرُ شيءٍ وَهْوَ رابعُها

التورية بالكتب: ومن لطائف الأدلّة على هذا الاهتمام والولع بالكتب ومعرفتها وسعة الاطلاع عليها والألفة لها، الترويةُ بأسماء الكتب في الشعر والنثر. ويمثّل هذا العمل الأدبي شكلاً من البراعة، لكنّها طريقة شاقة في التعبير وفيها تكلّف. أهو أسلوب لإظهار القدرة، بعد العجز عن الجريان في طريقها الواضح أو إظهار للقدرة بكلّ الوسائل؟

إلاّ أنّها لم تستعمل كأسلوب في الكتابة، بل إنّ فيها نوعاً من إظهار المقدرة، مارسها البعض في مناسبات. وهي لا تخلو من لطف ودعابة، تُظهر طولَ الممارسة للكتب وحضور لها وإلمام بها، مع اقتدار على حسن الصياغة

(239) نفح الطيب، 1/155، 463.

(240) نفح الطيب، 3/216.

(241) نفح الطيب، 1/153، 616. وذكر أنّه " كان يُكْثِر الغزوات في جيوش الملثمين (المرابطين) ". الأعلام، 3/282.

وتمكّن في البلاغة، لعلّها نوع من الترف الأدبي. وقد استُعمل هذا الأسلوب، بشكل محدود، عند المتأخرين من أدباء الأندلس. ولم يكن إنتاج هؤلاء ولا عصرهم هابطًا أو متأخرا في مستواه الأدبي وإنتاجه الفكري، بل كان فيه ازدهار. فمن الشعر في ذلك قول الرئيس أبي محمد عبد المهيمن الحضرمي:(242)

مَن اغتدى مُوطَّأ أكنافُهْ — صحّ له التمهيدُ في أحواله

وقابل استذكاره بالمنتقى — من رأيه المختار من أعماله

وأَضْحَت المسالكُ الحسنى له — تُدني تقصيا قَصى آماله

وسارَ من مشارق الأنوار في — أدنى المدارك إلى إكماله

والرئيس أبو محمد (675ـ 749هـ) هو كاتب السلطان المريني أبي الحسن وصاحب علامته، أصله من سبتة وسكن مدة في غرناطة العاصمة، وهو أستاذ ابن خلدون. " وكانت بضاعته في الحديث وافرة، وغلّته في التقييد والحفظ كاملة "(243).

ومن الذين لهم إنتاج شعري ونثري في هذا الفنّ أبو عبد الله محمد بن أبي القاسم بن جُزَيّ الغرناطي (721ـ فاس 757هـ)(244). وكان من كتّاب مملكة غرناطة ثمّ الدولة المرينية. وعليه أملى ابن بطّوطة (704ـ 779هـ) رحلته المسمّاة " **تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** " استجابة

---

(242) نفح الطيب. 5/ 537. أزهار الرياض، 3/ 201.

(243) عنه انظر: الإحاطة، ابن الخطيب، 4/ 11ـ 18. نفح الطيب، 5/ 240، 464ـ 471. كذلك: الأعلام، 4/ 169. جذوة الاقتباس، ابن القاضي، 2/ 444.

(244) انظر عنه: نفح الطيب، 5/ 526. أزهار الرياض، 3/ 201.

إلى طلب أبي عِنان سلطان بني مَرين. فمن شعر أبي عبد الله:(245)

قـصّـتي في الهـوى المدوّنـة الـ كـبرى وأخبار عِشقي المبسوطة

حـجتي في الغـرام واضـحـة إذ لم تزل مـهـجتـي بوجدٍ منوطة

وإليك جـزءاً من إنشائه في هذا الفنّ، مما كـتب بـه إلى السلطان المَريني المتوكّل على الله أبي عِنان فارس بن علي(759هـ)، يهنئُه بإبلال وليّ عـهده أبي زَيّان من مرضه، فيقول: " أبقى الله تعالى مولانا الخليفة ولسعادته القِدْح المُعَلَّى ولزاهر كماله التاجّ المحلّى. . . ولا غروة إن كنتَ من العلياء دُرَّتَها المكنونة، فأسلافك الكرام هو جواهرها الثمينة، بحماستهم أصيبت مقاتل الفرسان، وبجود جودهم تسنى ريّ الضمآن، وبتسهيل عدلهم وضحت شعب الإيمان، وأنت المنتقى من سِمْط جُمانهم والواسطة في قلائد عِقْيانهم، عنك تؤثر سيرة الاكتفاء"(246).

وذكر المقّري في **نفحه** العلاّمةَ الشاعرَ محمد بن أحمد الهواري شمس الدين أبا عبد الله بن جابر الوادي الآشي الضرير (780هـ) (247) له مؤلفات وديوان شعر ومنظومات (248) فأورد له أمثلة من التورية بالكتب، من ذلك

---

(245) نفح الطيب، 5/ 536.

(246) نفح الطيب، 5/ 534. حيث أمثلة أخرى قبلها وبعدها.

(247) نفح الطيب، 1/ 38، 2/ 664، 7/ 302. ووادي آش GUADIX أو وادياش أو وادي الأشات، مدينة من أعمال غرناطة، تقع على بعد 53 كيلو متراً في شمالها الشرقي. نفح الطيب، 1/ 149. الروض المعطار، 192 (طبعة بيروت الكاملة، 604). الحلة السيراء، 2/ 354. تاريخ الجغرافية والجغرافيين، 568. جمهرة أنساب العرب، 274. معجم البلدان تحت: آش.

(248) بغية الوعاة، 1/ 34 ـ 35.

خمسة أبيات ورّى فيها بعشرين كتابا:(249)

عرائسُ مدحي كم أتينَ لغيرهِ — فلما رأتهُ قلن هذا من الأَكْفا
نوادرُ آدابي ذخيرةُ ماجدٍ — شمائلُ كم فيهنّ من نُكَتٍ تُلْفَى
مَطالِعُها هنّ المشارقُ للعلا — قلائد قد راحت جواهرها رَصْفا
رسالةُ مدحي فيك واضحةٌ، ولي — مسالكُ تهذيب لتنبيه مَن أغفى
فيا منتهى سُؤْلي ومحصولَ غايتي — لأنت أمرؤٌ من حاصل المجد مستصفى

ومن براعة ابن جابر الشعرية أنّه ورَّى بأسماء سور القرآن الكريم بقصيدة من ستّة وخمسين بيتا (250) جعل أبياتها الثمانية الأخيرة مدح الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم. وقد عارضها عدد من الشعراء والكتّاب شعرا ونثراً(251).

وهذا الأسلوب من التورية بالكتب وإن كان فيه إظهار التفنّن والمقدرة، ولكن أيضاً فيه كثير من المشقّة والتكلّف، وهو لا يصحّ أسلوبا للكتابة، وهم لم يتّخذوه كذلك، إلاّ إذا صحّ أن يرد اسم كتاب أو جزء منه على طبيعته ينساب مع القلم، من غير تصيّد أو تعنف أو تعنت. ونلحظ أنّهم أنفسهم لم يتخذوا هذا أسلوباً للكتابة، إلاّ أنّه حدث لدى القليل، وفي مناسبات محدودة لإظهار البراعة أو الجمال اللغوي، في نوع من المداعبة أو الترف الأدبي أحياناً.

---

(249) نفح الطيب، 2/ 664 ـ 665. عن نماذج أخرى بالتورية بالكتب انظر: نفح، 344/7.

(250) نفح الطيب، 7/ 323 ـ 326.

(251) نفح الطيب، 7/ 326 ـ 343.

المكتبات العامة وعناية حكام الأندلس بها

لقد اهتمّ الحكام في الأندلس ـ خلال العصور ـ بالعلم وأهله والمكتبات، وشجّعوا عليها وبذلوا بسخاء لاقتناء الكتب من داخل الأندلس، كما أوفدوا إلى خارجها من يجلبها لهم. وشجّعوا ـ بمختلف الوسائل ـ العلماء والمؤلفين على الإنتاج والتأليف.

قبل الخلافة: فقد أرسل عبد الرحمن(الثاني) الأوسط(حكمه: 206ـ 238هـ = 822ـ 852م) العالِمَ الشاعر أبا العلاء عباس بن ناصح الثقفي الجَزِيري (بعد 230هـ)[252]، قاضي بلدة الجزيرة الخضراء وشَذُونة[253]، إلى الشرق الإسلامي ليلتمس بعض الكتب ويستنسخها[254].

ويصف المقّري في **نفحه** في هذا الباب، أنّ الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط بأنّه كان" محبّاً للعلوم عارفاً بها. فلما دخل بَقِيّ بن مَخْلَد الأندلس **بمصنف** ابن أبي شَيْبة وقُرِئَ عليه، أنكر جماعة من أهل الرأي ما فيه من

---

(252) الجزيري: نسبة إلى بلدة الجزيرة الخضراء. انظر: المقتبس، ابن حيّان (تحقيق الراهب ملشور أنطونية، باريس 1937)، 3/ 36. الحلّة السيراء، 1/ 48. المُغْرب في حُلى المغرب، 1/ 324. وراجع طبقات الزبيدي، 284. لكنّ الحميدي اعتبر الجزيرة هي جزيرة الأندلس. جذوة المقتبس، 291.

(253) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 297 (رقم: 881) . بغية الوعاة، 2/ 28 (رقم: 1348) . نفح الطيب، 2/ 261.

(254) المغرب في حلى المغرب، 1/ 45، 324. تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم (بيروت 1962)، 313. دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان(القاهرة، 1389/ 1969)، 1/ 281.

الخلاف واستبشعوه، وقام جماعة من العامة عليه، ومنعوه من قراءته، فاستحضره الأمير محمد وإياهم، وتصفح الكتاب جزءا جزءا حتى أتى على آخره، ثمّ قال لخازن كتبه: هذا الكتاب لا تستغني خزانتنا عنه، فانظر في نسخه لنا، وقال لبقي: (انشر علمك وارو ما عندك)، ونهاهم أن يتعرضوا له"[255].

عصر الخلافة: ويوم قدمت سفارة إمبراطور الدولة البيزنطية إلى قرطبة سنة 336هـ (947م) لم يجد قسطنطين السابع الأرجواني ما يتقرب به إلى الخليفة عبد الرحمن الثالث الناصر لدين الله خيرا من إهدائه بعض الكتب[256].

هكذا كان ماضينا الزاهر، حيث كان العلم والاهتمام به جزءا من العقيدة الإسلامية وأساسا مفيدا في بناء مجتمعنا. أما اليوم فالاهتمام به جد قليل ومحصور، حتى بين المتعلمين. إضافة إلى التباين بين دوافع التعلم والسعي وراء المعرفة والعناية بما ينفع والالتزام بمقتضياتها والأخذ بأسبابها. والوقوف في المواقع السليمة من المجتمع بالنسبة إلى أهله.

والكتب والاهتمام بها سبب للعلم والمعرفة وثمرة لها. والأصل أن تنمو لدينا الملكتان، ولكي لا نعيش عالة بل نكون أهلا لحمل الإسلام واستمرار حضارته. وذلك مطلب اليوم وأمل المستقبل، لا بالنسبة إلى العالم

---

(255) نفح الطيب، 2/ 519.

(256) نفح الطيب، 1/ 364- 366. البيان المغرب، 2/ 219. أعمال الأعلام، 2/ 37. العبر، ابن خلدون، 4/ 209. وانظر: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، 76. أعلاه، 33.

الإسلامي فقط، فهي حاجة بشرية وضرورة إنسانية لأهل الأرض كافة.

وفي أيام الخليفة عبد الرحمن الناصر كانت وفادة أبي علي القالي (288 ـ 356هـ) إلى الأندلس سنة 330هـ، فأوفد الناصرُ الأعيانَ والعلماءَ لتلقّيه قبل وصوله قُرطبة[257].

الحكم الثاني: وأضخم مكتبة في الأندلس طرّاً، في عصرها أو طول العصور، هي المكتبة الرئيسية في قرطبة التي رعاها أُمراء الأندلس وخلفاؤهم، منذ أيام عبد الرحمن الداخل ثمّ الأوسط ثمّ ابنه الأمير محمد إلى الناصر فالحَكَم الثاني المستنصر بالله[258]، الذي أثراها أيّما إثراء. فكان يبعث بالتجار ويجعل له الوكلاء في الأقطار الإسلامية المختلفة، يجلبون إليه الكتب[259]. وكان له وراقون بأقطار البلاد ينتخبون له. وهو الذي بعث بطلب كتاب **الأغاني** لأبي الفرج الأصبهاني؛ فأرسل هذا إلى الحكم المستنصر نسخة منه، قبل أن يُخْرِجه إلى العراق[260].

وكان الخليفة الحَكَم يُكرم العلماء ويُعلي منزلتهم[261]، مثل غيره. ويقترح على أهل العلم أو يطلب إليهم ويكلّفهم تأليف الكتب في مختلف

---

(257) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 69 (رقم: 223). نفح الطيب، 1/386، 3/ 70ـ 73. وفيات الأعيان، 1/ 227.

(258) الحلة السيراء، 1/ 201 ـ 203. نفح الطيب، 1/ 395. دولة الإسلام في الأندلس، 1/ 281، 2/ 504ـ 505.

(259) جذوة المقتبس، 13. نفح الطيب، 1/ 386.

(260) الحلة السيراء، 1/ 201 ـ 202. نفح الطيب، 1/386، 3/ 72.

(261) انظر: ترتيب المدارك، القاضي عياض، المجلد الثاني، 563.

الموضوعات، كما فعل مع محمد بن حارث الخُشَني (قُرطبة 361هـ) صاحب كتاب" **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية** "[262]. ويذكر ابن الفَرَضِي في **تاريخ علماء الأندلس** بأنّ الخشني" ألّف للحكم المستنصر مئة ديوان. وجمع له في رجال الأندلس كتاباً قد كتبنا منه في هذا الكتاب ما نسبناه إليه "[263]. ومحمد بن يوسف الوراق الملقّب بالتاريخي (363هـ = 973م)، الذي ألّف للحكم ديواناً ضخماً في" **مسالك إفريقيا وممالكها**"[264]، وكتباً أخرى.

وكان العديد من العلماء يؤلفون كتبهم بتوجيه من الحَكَم أو هم يؤلِّفونها له. وكان يفرح لذلك ويُسَرّ، ككتاب" **الحدائق**" لأحمد بن محمد بن فرج الجَيّاني[265]، ومحمد بن عبد الله بن سيد (نحو 363) الذي" بوّب المستخرجة للإمام المستنصر بالله رحمه الله"[266]. كذلك فعل أبو عمر ابن المَكْوى أحمد بن عبد الملك بن هاشم الإشبيلي (324ـ401هـ)" كبير المفتين بقرطبة الذي انتهت إليه رياسة العلم بها أيام الجماعة "[267]، حيث

---

(262) مقدمة كتاب الخشني: قضاة قرطبة (القاهرة، 1972)، 6ـ 11.

(263) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 113(رقم: 1400).

(264) نفح الطيب، 3/163. بغية الملتمس، 141(رقم: 304). الوافي بالوفيات، 5/251. التكملة، 1/366(رقم: 996)، 2/671. (رقم: 1707). تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، 73، 76. دولة الإسلام في الأندلس، 2/505.

(265) جذوة المقتبس، 97(رقم: 176). المغرب في حلى المغرب، 2/56. نفح الطيب، 4/48. بغية الملتمس، 151(رقم: 331).

(266) تاريخ علماء الأندلس، 2/73.

(267) الصلة، 22ـ 23 (رقم: 38).

جمع للحكم أمير المؤمنين كتاباً حفيلاً، في رأي مالك سمّاه كتاب **الاستيعاب** من مئة جزء، وكان جَمَعَه له مع أبي بكر محمد بن عبيد الله القرشي المُعَيْطي، ورُفِع إلى الحكم فسُرَّ بذلك، ووصلهما وقدّمهما إلى الشورى "[268]. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن يحيى بن مُفَرّج القُرطبي القَنْتُوري (315ـ380هـ) فقد" اتصل بأمير المؤمنين المستنصر بالله ـ رحمه الله ـ وكانت له منه مكانة وخاصة. وألّف له عدّة دواوين، واستقضاه على اسْتِجه ثمّ استقضاه على ريَّة "[269]. وأبو محمد قاسم بن أصْبغ البَيَّاني(244ـ340هـ)، [270] فقد درّس الخليفةَ الناصر لدين الله وأبناءه، منهم الخليفة الحكم المستنصر بالله[271]، وله ألّف كتابه المُجْتَنى [272] (أو المجتبى)[273] في الحديث الشريف. وكذلك أبو عبد الرحمن مُطَرّف الغساني (377هـ)، فقد ألّف للحكم كتاباً عن كُورة إلبيرة[274] (غرناطة).

ويذكر المسعودي في **مروج الذهب**[275] أنّه حين وصلت سفارة من الإفرنج

---

(268) الصلة، 23.

(269) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 92 (رقم: 1360).) الجديدة)، 2/772. نفح الطيب، 2/ 218.

(270) نسبة إلى بيّانة Baena من أعمال قرطبة وتقع شمال قَبْرة. الروض المعطار (طبعة بيروت الكاملة)، 119.

(271) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 366 (رقم: 1070).

(272) نفح الطيب، 2/ 48.

(273) جذوة المقتبس، 331 (رقم: 769) . نفح الطيب، 3/ 169.

(274) الصلة، 622 (رقم: 1367).

(275) طبعة شارل بلاّ، بيروت، 1966، 2/147. انظر:=

(فيما وراء جبال البِرت (Sp. PIRINEOS. Eng PYRENEES) إلى بَلاط قُرطبة عام 328هـ (939م) أيام الخليفة الناصر لدين الله، طلب ابنه الحكم المستنصر (وكان وليا للعهد) إلى السفير، الراهب غُدمار، أن يضع له كتابا عن بلاد (أو ملوك) الإفرنج، أو أنّ الراهب غُدمار ألفه وأهداه إليه[276].

لقد كان اهتمام الحكم المستنصر بالله بالعلماء كثيرا وكبيرا، يحثهم على التأليف ويشجعهم عليه ويكلفهم به. وهو الذي كان قبل ولايته الأمر وبعدها يُنَشط أبا علي ويعينه على التأليف بواسع العطاء، ويشرح صدره بالإفراط في الإكرام[277]. وأبو علي القالي (288 ـ 356هـ) وافد بغداد صاحب التآليف الكثيرة، الذي صنف للخليفة الناصر لدين الله ولابنه الحكم المستنصر بالله، من بعده[278]. وباسم الحكم طرّز الشيخ أبو علي القالي كتاب **الأمالي** "[279] وعليه أكد الحكم المستنصر بالله الاستمرار في تأليف كتابه" **البارع**" في اللغة، الذي اشتمل على خمسة آلاف ورقة[280]، لم تُبْقِ لنا الأحداثُ منها واحدة. ولم يكتف الحكم بذلك بل كان أحيانا

= Andalusian diplomatic relations,p. 135, 189 .

والترجمة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية، 26 وبعدها .

(276) تاريخ غزوات العرب، جوزيف رينو (ترجمة وتعليق شكيب أرسلان، بيروت، 1966)، 34 ـ 35.

(277) نفح الطيب، 3 / 75.

(278) إنباه الرواة، 1 / 205.

(279) نفح الطيب، 3 / 72.

(280) نفح الطيب، 3 / 74 ـ 75. إنباه الرواة، 1 / 206، 209. وفيات الأعيان، 1 / 226.

يقترح الموضوعات ومنهج التأليف، مثلما حدث مع أبي بكر محمد بن حسن الزبيدي الإشبيلي (379هـ) [281] في تأليفه "**طبقات النحويين واللغويين**"[282]. وبتشجيعه ألّف الزبيدي كتابه "**لحن العامة**"[283].

وكان هذا دَيْدَن الحَكَم، بالنسبة إلى عموم المؤلفين من الميادين كافة[284].

وما ذكر كان على سبيل البيان والتمثيل[285].

ولشدّة اهتمام الحكم بالعلم والإنتاج فيه، كان يهيّيء للباحثين والمؤلفين الأسباب العلمية، ويوفّر حاجتهم من المصادر. فكانت أبواب المكتبة القرطبية ـ التي رعاها الحكم ومن سبقه ـ مفتّحة لهم جميعاً، يتركهم ينتفعون بكنوزها، داخل المكتبة وخارجَها، يتركها لديهم بالانتفاع بها في مؤلفاتهم[286]. ويبدو أنّ هذه المكتبة كانت تستقبل أهل العلم والمعرفة، ليس للانتفاع بها في داخلها بل وللاستعارة خارجها، وربما على نطاق واسع.

ومما وَصَفَ به الحُمَيْدي الحَكَمَ بأنّه" كان حسن السيرة، جامعاً للعلوم محبّاً لها، مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب في أنواعها بما لم يجمعه أحد

(281) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 90 (رقم: 1357) . وفيات الأعيان، 4/ 374.

(282) طبقات النحويين واللغويين، 9.

(283) تاريخ الأدب الأندلسي (عصر سيادة قرطبة)، إحسان عباس، 71.

(284) انظر: تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، حسين مؤنس، 76.

(285) لمعرفة أمثلة أخرى راجع: نفح الطيب، 3/ 174. بغية الملتمس، 7(رقم: 94). جذوة المقتبس، 51 (رقم: 39).

(286) راجع: تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، السيد عبد العزيز سالم، 314.

من الملوك قبله هنالك، وذلك بإرساله عنها إلى الأقطار وشرائه لها بأغلى الأثمان، ونفق ذلك عليه فحُمِل إليه "[287]. كذلك وصفه ابن الأبار بكونه "حسن السيرة فاضلاً عادلاً مشغوفاً بالعلوم حريصاً على اقتناء دواوينها يبعث فيها إلى الأقطار والبلدان ويبذل في أعلاقها ودفاترها أنفس الأثمان. ونفق ذلك لديه فحملت من كلّ جهة إليه، والملك سوق، ما نفق فيها جلب إليها، حتى غصّت بيوته، وضاقت عنه خزائنه"[288]. وهكذا كان الحكم راعياً للعلم والمجتمع" مستجلباً للعلماء" [289] من كلّ فنّ، ويشهد مجالسهم يشجّعهم ويوجّههم" جَمّاعاً للكتب"[290]، يبذلها للمؤلفين ويوسع عليهم. فهو نوع عالٍ من تقدير العلماء وتشجيع العلم وتهيئة الأسباب والإمكانيات بأنواعها كأُسلوب مُدْرِك وجادّ مخلص، من التفرّغ العلمي في سبق بعيد ومثال فريد، بشكل يدركه أصحاب الهمّة من أهل الفضل والتقوى[291]. " واجتمع لديه من نفائس الكتب في مختلف العلوم، ما لم يجتمع لأحد قبله. ولما ضاقت أبهاء القصر الخليفي عن استيعاب العدد العظيم، من الكتب الواردة إليها باستمرار، أنشأ الحكم على مقربة من القصر صرحاً عظيماً خاصاً بالمكتبة، افْتَنَّ المهندسون في

---

(287) جذوة المقتبس، 13. كذلك: نفح الطيب، 1/ 385ـ 386. أعمال الأعلام، ابن الخطيب، 41. دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 504.

(288) الحلة السيراء، 1/ 200ـ 201. كذلك: نفح الطيب، 1/ 394ـ395.

(289)الحلة السيراء، 1/ 201.

(290) نفح الطيب، 1/ 385.

(291) الحلة السيراء، 1/ 201.

ترتيبه وتنسيقه، وإنارة أبهائه"[292].

ويذكر ابن حزم القرطبي أو الأندلسي: أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد ابن حزم(384ـ 456هـ= 994ـ 1063م) في كتابه **جمهرة أنساب العرب** "أنّ عدد الفهارس التي كانت فيها تسمية الكتب أربع وأربعون فهرسة، في كلّ فهرسة خمسون ورقة ليس فيها إلاّ ذكر أسماء الدواوين فقط "[293]. وجاء في **نفح الطيب** بأنّ الحكم المستنصر" جمع من الكتب ما لا يُحَدّ ولا يُوصَف كثرةً ونفاسةً، حتى قيل: إنّها كانت أربع مئة ألف مجلد، وأنّهم لمّا نقلوها أقاموا ستّة أشهر في نقلها، وكان عالماً نبيها صافي السريرة [294].

وكان الحكم كثير القراءة يعلّق على ما يقرأ، وكانت لتعليقاته قيمة كبيرة عند العلماء، قال:" هذا آخر ما رأيت بخط الحكم المستنصر، وخَطُّه حجّة عند أهل العلم وعندنا لأنّه كان عالماً ثَبْتاً "، كما يقول الحُمَيْدي في **جَذْوَتِه**[295].

ولقد كانت هذه الظاهرة لدى حكام الأندلس ـ وهي ظاهرة عامة في

---

(292) دولة الإسلام في الأندلس، عنان، 2/ 505 ـ 506.

(293) جمهرة أنساب العرب، ابن حزم القرطبي، 100. الحلة السيراء، 1/ 203. كما وردت " عشرون ورقة". انظر: المغرب، 1/ 186. التكملة، 1/ 235 (رقم: 622). نفح الطيب، 1/ 385. عن مصطلح الدواوين انظر: أعلاه، 65.

(294) نفح الطيب، 1/ 395. كذلك: الإحاطة، ابن الخطيب، 1/ 486.

(295) جذوة المقتبس، 148. (الجديدة)، 1/ 164(رقم: 172). نفح الطيب، 1/ 395 الحلة السيراء، 1/ 202.

البلدان الإسلامية - متوافرة متوارثة. وهي تعبير عن وجهة هذا المجتمع وطبيعة بنائه، كما تعتبر استجابة لأسس مكوّنات هذا المجتمع وتلبية لرغائبه. ونجد لهذه الظاهرة في البحث الحالي أمثلة عديدة، مثلما حدث للحاجب المنصور محمد بن أبي عامر (1002/392)، حيث له ألف الأديب اللغوي أبو العلاء صاعد بن الحسن الرّبعي البغدادي (417هـ) عدّة كتب منها" **الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار**"(296). وصاعد هذا هو غير سميّه الفقيه القاضي أبي القاسم صاعد بن أحمد بن صاعد الطُلَيْطلي (420- 462هـ) (297) صاحب كتاب" **طبقات الأمم**"(298).

ورعاية العلماء من قبل الحكام وتشجيعهم على التأليف، مألوف ومتوفّر في تاريخ الحضارة الإسلامية(299). وهذا يعتبر عناية والتفاتا وإدراكا لأهمية التفرّغ، بل هو الكامل الذي قد لا نجد له مثيلاً في أيامنا، ونرجو أن يكون. فكان اهتمام الحكام بالعلم وتوقيرهم للعلماء معروفاً، وخُلُقاً مألوفاً. وإنّ مثل هذه الصفات كانت أيضاً من مستلزمات السلطان. وهم أنفسهم كانوا على مكانة من المعرفة، أو يُعَدُّون من العلماء. ولذا عَرفوا

(296) جذوة المقتبس، 240(قم: 509) . الصلة، 237-238 (رقم: 541) . إنباه الرواة، 2/ 86. وانظر ترجمته في: الذخيرة، 4/ 1/ 2 وبعدها . نفح الطيب، 3/ 75. وفيات الأعيان، 2/ 488.

(297) الصلة، 236 - 237(رقم: 540) . بغية الملتمس، 323 رقم: 852. وعن صاعد آخر انظر : تاريخ علماء الأندلس، 1/ 204(رقم: 614) .

(298) نفح الطيب، 2/ 649.

(299) نفح الطيب، 2/ 379.

قيمة العلم ومكانة أهله. ولدينا في هذا أحداث كثيرة(300). ورأينا فيما سبق قصّة ابن التَيَّاني مع حاكم مُرسية MURCIA أبي الجيش مجاهد العامري(301)، التي تشير إلى اعتزاز العالم بعلمه، وتوقير الحاكم له وإكبار الناس لكلّ ذلك. وتلك القصّة كما تدلّ على اهتمام الملوك والحكام والأمراء بالعلماء وتقديرهم لهم وللصفات العلمية والخلقية والتزامهم بالسمت العلمي الذي أنبته الإسلام، فهي تدلّ على مكانة العلماء وسُمُوّ خُلُقهم واعتزازهم به، مثلما يعتزّون بعلمهم أو يزيد. فالأول أساس لأنَه أيضا يحمل الآخرين على احترامهم واحترام الأخلاق والعلم الذي أظهروه والأصل الذي رباهم. ولذلك فقد علّق الحِجَاري على هذه الحادثة بقوله: "هكذا ينبغي أن تكون الملوك وكذا يجب أن تكون العلماء "(302).

فكان هؤلاء العلماء هم أنفسهم يصونون علمهم بأخلاقهم. من ذلك ما نقله المَقَّري(303) عن **الإحاطة** لابن الخطيب، حين الحديث عن أبي محمد عبد الله بن سليمان بن داود بن عمر بن حَوْط الله الأنصاري الحارثي، أنّه "كان فقيهاً جليلاً أصولياً كاتباً أديباً شاعراً متفنناً في العلوم وَرِعاً ديّناً حافظاً ثَبْتاً فاضلاً، درس كتاب سيبويه **ومستصفى** أبي حامد الغزالي. وكان ـ رحمه الله تعالى ـ مشهوراً بالعقل والفضل، مُعَظَّماً عند الملوك، معلومَ القدر لديهم، يخطب في مجالس الأمراء والمحافل الجمهورية، مقدماً

(300) انظر مثلا: نفح الطيب، 3/ 69ـ75، 189.

(301) أعلاه، 32.

(302) المغرب في حلى المغرب، 1/ 166.

(303) نفح الطيب، 4/334. الإحاطة، 3/ 416.

في ذلك بلاغةً وفصاحة إلى أبعد مضمار " .

أمّا اليوم فما دامت قد ضعفت تلك المعاني الإسلامية، أو زالت لدى الكثير، فلا نجد أثراً واضحاً لهذا النهج عند الجمهرة من الحكام وكذا العلماء. ولكنّ العلماء المسلمين في كلّ عصر ومن أيّ ميدان، هم عين ذلك النموذج، لأنّهم من ذات المنبت. غير أنَّ الفرق بين الماضي والحاضر أنّ الحكام كانوا يُكْرِمون العلماء المخلصين الملتزمين، وبعضهم اليوم يحاربونهم ويغدرون بهم ويحكمون بالقضاء عليهم. فاعتُبر تعلّقُ الحكام بالعلم وتقدير أهله وتشجيعهم له، وكونهم هم من العلماء، سنة ماضية.

فيروي لنا المقّري في **نفح الطيب** عن الوزير أبي محمد عبد الرحمن بن مالك المَعافري لأنّه كان" كثير الصنائع جزل المواهب عظيم المكارم، على سنن عظماء الملوك وأخلاق السادة، لم يُرَ بعدَه مثلُه في رجال الأندلس، ذاكراً للفقه والحديث، بارعاً في الآداب، شاعراً مُجيداً، وكاتباً بليغاً "[304].

ولقد كانت لأبي بكر المظفّر بن الأَفْطَس محمد بن عبد الله بن محمد بن مَسْلَمة التُّجيبي (460هـ/1067م)، مكتبة فخمة احتوت على الكتب المنتقاة. وكان هو نفسه" كثير الأدب، جمّ المعرفة، محبّاً لأهل العلم، جَمّاعة للكتب، ذا خِزانة عظيمة لم يكن في ملوك الأندلس من يفوقه في أدب ومعرفة. قاله ابن حَيّان "[305]. لقد بذل ابنُ الأَفْطَس الأموالَ لجلب الكتب من الأقطار[306]. وكان أشدّ ملوك الطوائف شبهاً بالحكم الثاني

(304) نفح الطيب، 1/ 232.

(305) التكملة، ابن الأبار، 1/ 393 (رقم: 1102). كذلك: نفح الطيب، 3/380.

(306) الصلة، 478 حاشية.

المستنصر بالله، من ناحية العلم والاهتمام به والعناية بأهله وجمع الكتب والسُّخْوُ لها.

ويَروي صاحب **النفح** بأنّ ابن الأفطس هذا" ألّف في فنون الآداب كتاباً في نحو مئة مجلدة "(307) وذكر البعض أنّه" في نحو خمسين مجلداً"(308)، وذلك رغم مسؤولياته. وأجرى ابن بسام في **ذخيرته** ذكر ابن الأفطس وكتابه فقال" كان المظفّر أبو بكر محمد بن عبد الله بن مَسْلَمة المعروف بابن الأفطس أديب ملوك عصره غيرَ مُدافَع ولا منازَع، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق المترجم بالتذكرة، والمشتهر اسمه أيضاً، بكتاب ابن المظفّر في خمسين مجلداً، يشتمل على فنون وعلوم، من مغازي وسِيَر ومَثَل وخبر وجميع ما يختصّ به علم الآداب، أبقاه الله في الناس خالداً "(309). وكان هذا الكتاب محتوياً على كثير من العلوم، فهو أشبه بدائرة معارف، الموسوم بـ" **التذكرة** " والمعروف بـ" **الكتاب المظفري** "، نسبة إليه.

وعن وزير المَرِيَّة ALMERIA، أيام حكم الصقالبة الطوائف، الكاتب أبي جعفر أحمد بن عباس (427هـ/1035م)، يقول المَقَّري في **نفحه** بأنّه" كان

---

(307) نفح الطيب، 3/194، 380.

(308) نفح الطيب، 1/ 442. التكملة، 1/ 393. الصلة، 478حاشية. قارن: نفح الطيب، 3/181.

(309) الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، القسم الثاني، 398(مخطوطة المتحف العراقي، بغداد، رقم: 1587). (بيروت)، 2/2/ 641(العلمية)، 2/378. كذلك: التكملة 1/ 393. البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، ابن عِذاري (تحقيق ليفي بروفنسال، مصوّرة على طبعة باريس، 1930)، 3/ 236ـ237.

حسن الكتابة، جميل الخط، مليح الخطاب، غزير الأدب، قويّ المعرفة، مشاركاً في الفقه، حاضر الجواب، جمّاعا للدفاتر، حتى بلغت أربع مئة ألف مجلد، وأمّا الدفاتر المخرومة فلم يوقف على عدّها لكثرتها "(310).

جمع الكتب والمكتبات الخاصة

ازدانت بيوت الأندلسيين بالكتب، فاشتهرت كثير من المكتبات الخاصة للرجال والنساء، علماءَ ومتعلّمين، حتى إنّه كان لبعضهم جماعة خاصة من الوراقين وغيرهم، يقومون باستنساخ الكتب وخدمتها. فكان من البديهي أن تزيَّن دارُ كلّ عالم ـ مهما كان ميدانه ـ بمكتبة فخمة، قد تُعتبر أثمن ما في بيته، ينفع بها نفسه والآخرين. فإنّ الكثير منهم قد تميَز **وعُرف باقتنائه لمكتبة كبيرة مُتخيَّرة**. وهذا الأمر يرد لدى العديد من مصادرنا، التي تتحدّث عن العلم والعلماء والإنتاج والمؤلفات، كما يظهر بوضوح خلال هذا البحث.

ونقدّر ـ دون تردّد ـ بأنّ العديد من أهل العلم، من الرجال والنساء، كانوا ممّن **جمع الكتب** واهتمّ باقتنائها، فكانت له مكتبة خاصة كبيرة مهمة، وإن لم تذْكُر المصادرُ هذا الجانبَ، في ترجماتها لهم، أو ضاعت هذه المعلومات.

فهناك العلماء الكبار الذين قد تُكوِّن مؤلفاتهم مكتبة، لا بدّ أن تكون لهم مكتبات كبيرة، أمثال يحيى بن يحيى الليثي (234هـ) وعبد الملك بن حبيب السُّلمي (238هـ) وبَقِيّ بن مَخْلَد (276هـ) وابن وضاح

(310) نفح الطيب، 3/535. كذلك: الإحاطة، 1/ 267؛ المغرب، 2/206.

اللَّخْمي(587هـ) وابن حزم (456هـ) وابن الخطيب (776هـ) وآخرين، وإن لم ترد في المصادر أخبار واضحة مُشيدة بذلك. فإذا كانت بيوت عموم الناس، غير المشهورين بالعلم، قد احتوت على الكتب في مكتبة صغرت أو كبرت، تعتني بانتقاء الكتب واقتنائها، فكيف بهؤلاء العلماء؟

ومن هؤلاء العلماء مَن لا تخلو ترجمته من إشارة لطيفة عابرة لهذا الأمر، كأن تصفه بأنّه كان ضابطاً لكتبه أو معتنياً بتنقيحها[311]. أو لعلّ وصف أحدهم **بجمع الكتب** انحصر على مَن اشتهر بهذه الصفة وفاق غيره. وهذه الأسماء ذات العناية **بجمع الكتب**، هم من العلماء الذين عُرِفوا بعلمهم ومؤلفاتهم، أو ممن كان لهم بالعلم اهتمام واشتغل به. وإنّ كتب التراجم ترجمت للعلماء والمشتغلين بالعلم، تأليفاً وتدريساً. وخلال ذلك أشارت إلى أخبارهم التي منها **جمع الكتب**. وهي لم تترجم، إن كانت له مكتبة، كسبب فريد.

من دراستنا لحالة المجتمع الأندلسي العلمية نرى أنّ احتواء مكتبة أمر عام، لم يكن شأن العلماء وحدهم ـ ورد ذكر ذلك عنهم أم لا ـ بل عموم الناس ممّن لم يكن لهم مكان في كتب التراجم ـ لأنّه أمر عام ـ إلاّ لمن اشتهر منهم. وهذه الأمور تتضح أمام تصفّح الأمثلة الواردة، وترد في هذا البحث.

كان جمع الكتب وتكوين المكتبات معروفاً بين أهل الأندلس، وقد غدا ضرورة أصيلة وهواية منتشرة، وكما أَلِفَه الحكامُ والأمراء ـ حيث رأينا في

(311) جذوة المقتبس، 317. الصلة، 621. بغية الملتمس، 429. التكملة، 61. نفح الطيب، 2/104، 158، 599، 630، 3/ 149.

الأمثلة السابقة ـ فقد عرفه العلماء، بل هو جزء ضروري من حياتهم، لو صحّ لغيرهم الاستغناء عنه فلا يصحّ بالنسبة إليهم. فكان عامّاً لدى جميع الناس، على اختلاف مستوياتهم العلمية وطبيعة أعمالهم وتفاوت مدخولاتهم، بين النساء والرجال. ومكتبة في بيت أسرة هي لهم جميعاً، ومع ذلك فعديد من النساء اشتهرن **بجمع الكتب**. ولعلّ شهرة البعض أتت من هذا الاهتمام **بجمع الكتب** أكثر من المكانة العلمية أو التأليف، بل ربما أتت من هذا الاهتمام فحسب. وتساق هنا بعض الأمثلة لإيضاح هذا الجانب من غير استقصاء لها.

ذكر ابن بَشْكُوال في **صلته** عن عبد الله بن حَيّان الأَرَوْشي[312]، نزيل بلنسية (487هـ = 1094م)، من أنّه "كانت له همّة عالية في **اقتناء الكتب وجمعها**. جَمَع من ذلك شيئاً عظيماً "[313]. ويقدّم لنا ابن عَميرة الضّبّي (599هـ) في **بغيته** زيادة في المعلومات عن الأَرَوْشي المتعلّقة بهذا الشأن. والضَّبِّي ينقل ذلك من كتاب تاريخي لأبي عبد الله محمد بن خلف الصدفي الأديب الشاعر والمؤرخ البلنسي المعروف بابن عَلْقَمة (428ـ 509هـ = 1037ـ 1115م)[314]. وعلى ذلك فإنّ ابن علقمة كان معاصراً للأروشي وسكنا المدينة (بلنسية) نفسها فهو بلديُّه. ويرجح أنّ تاريخ ابن علقمة هذا هو كتابه القيم" **البيان الواضح في المُلِم الفادح**"، وهو مفقود، عُثِر

---

(312) نسبة إلى قرية أروش من عمل قرطبة. فأصل سلفه من هناك. انظر: التكملة، ابن الأبار، 1 / 287 (رقم: 774).

(313) الصلة، 288 (رقم: 634). (الجديدة)، 2/ 434 (رقم: 639).

(314) انظر ترجمته في: التكملة، 1/ 411 (رقم: 1165).

على قطع منه(315). فيقول الضبي: " ذكر ابن علْقمة في تاريخه: أنّ ابن ذي النون صاحب بلنسية أخذ كتب الأروشي من داره وسيقت إلى قصره، وذلك مئة عدْل وثلاثة وأربعون عدْلاً من أعدال الحمالين، يقدّر كلّ عدل منها بعشرة أرباع. وقيل: إنّه كان قد أخفى منها نحو الثلث "(316). ولهذه القصة مدلول، وأي مدلول.

وأورد أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأنصاري المراكشي(703هـ = 1303م)، في كتابه" **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**"(317)، حين الحديث عن أبي العباس أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري الخزرجي(569هـ = 1173م)، بأنّ أبا العباس هذا" كان مُحدّثا مكثرا ثقة ضابطاً مقرئاً مجوّداً حافظاً للفقه ذاكراً لمسائله عارفاً بأصوله متقدما في علم الكلام عاقداً للشروط بصيراً بعللها حاذقاً بالأحكام كاتباً بليغا شاعرا محسناً آنق أهل عصره خطاً وأجملهم فيه منزعاً. وكتب من دواوين العلم ودفاتره مالا يُحصى كثرة وجودة وضبطاً " . وذُكر عنه أيضاً أنّه كان" مقتنعا باليسير راضياً بالدون من العيش مع الهمّة العالية والنفس الأبية، على هذا قطع عمره. وهذا كان دأبه إلى أن فارق الدنيا. ولم تكن همّته مصروفة إلاّ إلى العلم وأسبابه، فاقتنى من الكتب جملة وافرة سوى ما نسخ بخطه

---

(315) انظر: دول الطوائف، محمد عبد الله عنان (القاهرة، 1389 / 1969)، 251 .

(316) بغية الملتمس، 344 (رقم: 920) .(الجديدة)، 2 / 445 (رقم: 923) .
كذلك: الحلل السندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، شكيب أرسلان (القاهرة، 1358 / 1939)، 3 / 88. وابن ذي النون هو المعروف بـ"القادر" .
انظر: التاريخ الأندلسي، 367 وبعدها.

(317) الذيل والتكملة، 1 / 225. كذلك: الإحاطة، 1 / 189 .

الرائق "(318).

وإنَّ هؤلاء العلماء بالرغم من حاجتهم للوقت لاكتساب العلم والعكوف عليه، تحصيلاً وتأليفاً وكذا تدريساً، كانوا هم يقومون باستنساخ كثير من الكتب لمؤلفين آخرين، إضافة إلى مؤلفاتهم ـ كما يشير النصّ السابق ـ بل وفي أسفارهم أيضاً التي قد لا يكون طلب العلم هدفها الأول. ثمّ إنّ كلّ ذلك كان يتمّ بجانب عمل يمارسه العالم يعتاش منه، سواء كان عملاً حراً ـ كتجارة ـ أو وظيفة، كالقضاء وغيره. وكانت للقضاء شروط: الفقه والعلم من ضمنها. ويبدو أنّ اشتغال العلماء بالتحصيل العلمي والتأليف والتدريس، لم يكن عموماً هو مصدر عيشهم، إلاّ ما قد يكون من جرايات.

فيبدو من إنتاج هؤلاء العلماء واهتمامهم بالعلم، وكأنّهم متفرغون جزئياً أو كلياً للعلم وخدمته. وهذه الوضعية ترينا الهمّة العالية والسعي الحثيث وراء المعرفة، وتبين دوافعها وجذورها العميقة، ما يؤكد المعنى الذي سبق ذكره: **من أنَّ طلب العلم في المجتمع المسلم والاهتمام به يمثّل أحد ظواهر هذا المجتمع وحضارته، التي ميّزها الإسلام، وجعل مجتمعه يعْتبِر هذه الأمور جزءاً من مقتضيات عقيدته. وأنَّ حضارته وتأريخه وأموراً أخرى، مرتبطة بهذه العقيدة وهي من ثماره، وعلى هذا الأساس تجب دراستها.** ولذلك كنّا نجد هؤلاء العلماء عند كلّ موقف تتطلّبه مصلحة الإسلام والمسلمين، حتى ميادين القتال وسوح الاستشهاد، فقد كان بينهم وبينها إلْفة ونسب. وقد كان منهم مَن يتصدّرها، كما يتصدّر مجالس العلم

(318) الذيل والتكملة، 1/ 229. الديباج المذهب، 49. كذلك: الإحاطة، 1/ 183.

وحَلْقــاته. فكــلا الأمــرين يصـــدران عن ذات النبــع وينطلقـــان من روح واحدة[319].

ونجد في مؤلفات علمائنا تواتر الأخبار عن الاهتمام بتدوين العلم وطلبه، حتى في السَّفَر، غير المكرّس للعلم، بل من أجل هدف آخر، تُغتنم فيه الفرصة للانتفاع العلمي. من ذلك ما يذكر صاحب كتاب" **الذيل والتكملة** "[320]، حين يذكر أبا العباس أحمد بن أحمد بن خلف الحضرمي، من أهل إشبيلية، المعروف بابن رَأْس غَنَمَة(643هـ= 1245م). فيقول ابن عبد الملك المراكشي: بأنّ أبا العباس" رحل إلى المشرق في حدود الخمس والتسعين وخمس مئة، مرافقاً الشهيد أبا بكر بن أحمد الكناني... فأديا فريضة الحجّ ولقيا هنالك بقايا الشيوخ، فأخذا عن طائفة منهم. وقفلا إلى الأندلس واستصحبا فوائد جمّة وغرائب كتب، لا عهد لأهل الأندلس بها، انتسخاها هنالك. وتوافقا على أن ينسخ أو يقابل أحدهما غير ما ينسخه رفيقه أو يقابله، استعجالاً لتحصيل الفائدة "[321].

ويذكر ابن بَشْكُوال في" **الصلة** " [322] عن أحمد بن محمد بن عبد الله بن قُزُلْمان(429هـ= 1037م)، " الذي سكن قرطبة وأقرأ الناس بها محتسباً"، بأنّه" جمع كتباً حساناً كثيرة النفع، على مذاهب أهل السنّة، ظهر فيها

---

(319) انظر: أعلاه، 32 وبعدها. التاريخ الأندلسي، 338، 407، 429.

(320) الذيل والتكملة، 1/ 28 ـ 29.

(321) الذيل والتكملة، 1/1/ 28 ـ 29.

(322) الصلة، 45 (رقم: 92).

علمه، واستبان فيها فهمه " . كما يذكر [323] مثل ذلك عن هشام ابن عبد الرحمن بن عبد الله المعروف بابن الصابوني(423هـ = 1031م)، فيصفه بأنّه كان" دَؤُوبا على النسخ، **جمّاعة للكتب**، جيد الخط" .

أما أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن يزيد بن محمد بن خبير بن عيسى اللخمي المعروف بابن الأحدب، من أهل إشبيلية(437هـ = 1045م)، فقد " كان رجلاً صالحاً، مقبلاً على ما يعنيه، قديم الطلب **جامعاً للكتب والأصول**، لقي جماعة من الشيوخ، فكتب عنهم وسمع منهم" [324]

ويذكر المقّري في " **نفحه**" [325] عن ذي الوزارتين أبي عبد الله محمد ابن عبد الرحمن بن الحكيم(708هـ = 1308م)، الذي تولّى الوزارة لسلطان غَرْناطة محمد الثالث (المخلوع)، بأنّه" كانت له عناية بالرواية وولوع بالأدب، **وصبابة باقتناء الكتب . جمع من أمهاتها العتيقة، وأصولها الرائقة الأنيقة، ما لم يجمعه في تلك الأعصر أحد سواه، ولا ظفرت به يداه** " . وكان ذو الوزارتين كاتباً بليغاً وشاعراً اشتهر بالأندلس ذكره، وقد "أحيا معالم الأدب، وأكرم العلم والعلماء، ولم تُشغله السياسة عن النظر، ولا عاقه تدبير الملك عن المطالعة والسماع، **وأفرط في اقتناء الكتب، حتى ضاقت قصوره عن خزائنها وأثرت أنديته من ذخائرها** "[326].

---

(323) الصلة، 650 (رقم: 1428).

(324) الصلة، 528 (رقم: 1156).

(325) نفح الطيب، 5/ 499.

(326) نفح الطيب، 5/ 504.

ويذكر ابن بشكوال عن أبي الطيب سعيد بن أحمد بن محمد بن سعيد الحديدي التُجيبي(428هـ= 1036م) من أهل طُليْطُلة (TOLEDO)، بأنَه" **جمع كتبا لا تُحصى**. وكان مُعظّما عند الخاصة والعامة، ورحل إلى المشرق وحجّ ولقي جماعة من العلماء "(327). كما يحدّثنا عن أبي عبد الله محمد بن أحمد بن عوْني بن محمد بن عوْني المعافري (512هـ= 1119م) من قرطبة، فيصفه بأنَه" كان معتنيا بالعلم مشهوراً بالمعرفة والفهم. **كثير الكتب، جامعاً لها، باحثاً عنها** "(328). ومثل ذلك جاء في وصف أبي الحكم منذر بن منذر بن علي بن يوسف الكناني (340ـ 423هـ) من أهل مدينة الفَرَج بأنّه" كان رجلاً صالحاً، **قديم الطلب للعلم كثير الكتب راويا لها، مُوَثَّقاً فيها** "(329).

وهذا عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، أبو الوليد ابن الفَرَضي الحافظ القرطبي المشهور (351ـ 403هـ= 962ـ 1013م) وصفه ابن بشكوال بأنّه" **كان جَمّاعاً للكتب فجمع منها أكثر ما جمعه أحد من عظماء البلد** " (330)كما وصفه بالمنزلة العلمية الواسعة الرفيعة إذ" جمع علماً كثيراً في فنون العلم "(331). وكما قال عنه مؤرخ الأندلس أبو مروان

---

(327) الصلة، 219 (رقم: 498).

(328) الصلة، 571 (رقم: 1260).

(329) الصلة، 624 (رقم: 1373) . الحلل السندسية، شكيب أرسلان، 2/ 76.

(330) الصلة، 253 (رقم: 572).

(331) الصلة، 252. انظر كذلك: نفح الطيب، 1/ 129.

ابن حَيَان القُرطبي(377ـ 469هـ = 987ـ 1076م) بأنه" لم يُرَ مثله بقُرطبة من سَعة الرواية وحفظ الحديث ومعرفة الرجال والافتنان في العلوم، إلى الأدب البارع والفصاحة المطبوعة، قَلَّما كان يَلْحن في جميع كلامه من غير حُوشية، مع حضور الشاهد والمَثَل(332) . كذلك ذكره أبو عمر يوسف بن عبد البر(463هـ) ـ الذي كان صاحبه وزميله ونظيره في التلقي وإن زاد عليه في السنَ نحو خمسة عشر عاما ـ فقال : " كان فقيهاً عالماً في جميع فنون العلم في الحديث وعلم الرجال وله تواليف حِسان "(333) .

وهذا أبو الخطاب العلاء بن أبي المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (421ـ 454هـ = 1030ـ 1062م)(334) تَحَمَّل ـ كأترابه ـ في رحلته العلمية إلى الشرق الإسلامي المشقَة الكثيرة، و" امتُحن في رحلته بضروب من المحن لم تُسمع لأحد قبله"(335)، " وأقام في رحلته

---

(332) الصلة، 252. (الجديدة)، 1 / 393 (رقم: 577) . من الممكن جدا بل لعله من المؤكد أن ابن حيان قد رآه وقد يكون على معرفة به ـ بأي مقدار ـ بل قد يكون حضر له وسمعه. ونجد في طريقة ابن حيان في الحديث عنه وما ذكره مؤيدا مهما لذلك.

(333) الصلة، 252. (الجديدة)، 1 / 392.

(334) بغية الملتمس، الضبي، 429 (رقم: 1241) ـ وهو من أبناء عمومة العالم الحافظ الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم القرطبي (456هـ = 1063م) . فأبو المغيرة عبد الوهاب بن أحمد بن عبد الرحمن بن سعيد بن حزم (438هـ)، والد أبي الخطاب العلاء، هو ابن عمّ الفقيه أبي محمد علي بن حزم، ولعلّه من أبناء العمومة. انظر: الصلة، 381(رقم: 815) . بغية الملتمس، 393 (رقم: 1109) المغرب في حلى المغرب، 1 / 357. جذوة المقتبس، 273 (رقم: 658) . نفح الطيب، 1 / 489، 3 / 156.

(335) الصلة، 445 (رقم: 959) .

الكريمة ثمانية أعوام وتسعة أشهر وستة عشر يوما" [336] وقد" كان من أهل العلم والأدب والذكاء والهمّة العالية في طلب العلم، كتب بالأندلس فأكثر. ورحل إلى المشرق فاحتفل في الجمع والرواية ودخل بغداد "[337].

وهو الذي ذكر عنه ابن حَيّان القُرطبي: " أنّه جمع من الكتب الغريبة ما لم يجمعه أحد "[338]. وكلّ ذلك وسنّه يوم وفاته ثلاث وثلاثون سنة. وفي هذا إشارة واضحة ذات مدلول مهم إلى المستوى العلمي العالي العام الواسع الذي يتلقّى فيه الوليد العلم ويهيَّأ له من أسبابه كلُّ سبيل ويحفّ به وافر التشجيع ويغرس في نفسه عِشْقُه للتلقّي والبذل له، فيُقبِل عليه وهو في النعومة، حتى ما ينفصل وما يرى الحياة بدونه.

ولا بدّ من الإشارة والإشادة بإدراك المرأة الأندلسية المسلمة لهذه الأمور ودورها في تهيئة الجوّ الأُسَري الظليل في محضن التَنْشِئَة للصغار ومأوى الإنتاج في النضج ومرفأ النشر لمن استوى. إضافة إلى مشاركتها في ميادين أُخَر، يبقى السابق معها أولى المهمات.

وكأنّ هذه الأمور: الاهتمام بجمع الكتب، والحفظ والاستيعاب، والتأليف كانت تسير متناسقة منسجمة، والكلّ يمارس بشغف وسائل كسب العلم وتحصيله، لا يبالون ما ينفقون وما يتجشّمون من صعاب في السفر، باذلين

(336) الصلة، 445.

(337) جذوة المقتبس، 298 (رقم: 725) . الصلة، 444. بغية الملتمس، 429 (رقم: 1241).

(338) الصلة، 445. (الجديدة)، 2/ 648 (966).

ويبدو أبو العلاء هذا من معارف ابن حيان كذلك. حيث يتكلم عنه بشكل مباشر، شاهد عيان.

الصبر والجهد والسهر في طلبه وطول المعاناة في كسبه. حتى روي عن أحدهم قوله: " **اليوم لي منذ أخدم هذه الكتب وأعاينها ستون سنة** "(339).

العلماء وعنايتهم بجمع الكتب في الأندلس

عُرف العلماءُ خاصةً بحبّهم للكتب وباقتنائهم لها. وهذا الذي ذُكر من اقتناء العلماء للكتب واهتمامهم بها واستيعابهم لها - في كلّ بقعة من العالم الإسلامي الواسع، وكذلك الأندلس - يَرِد الحديثُ عنهم لدى مؤلفي التراجم الأندلسية، من أمثال: ابن الفَرَضي(403هـ) في " **تاريخ علماء الأندلس**" والحُمَيْدي(488هـ) في " **جذْوة المُقْتَبِس**" وابن بسّام الشَّنْتَريني(542هـ) في " **الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**"، وابن بَشْكُوال في " **الصلة**" والضبي(599هـ) في" **بغية المُلْتَمِس**"، وابن الأبّار(658هـ) في " **التكملة لكتاب الصلة** " و" **الحلّة السيراء** " و" **إعتاب الكتّاب** " و"**المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصدفي**" (الفقيه الشهيد، 514هـ) وابن سعيد الأندلسي(685هـ) وأسرته في " **المُغرب في حلى المغرب**" وابن عبد الملك المراكشي(703هـ) في معجمه" **الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة** " وابن الزبير(708هـ) في " **صلة الصلة** " وابن الخطيب(776هـ) في"**الإحاطة في أخبار غرناطة** " وغيرها له والنُّباهي(793هـ) في " **المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا** " (" **تاريخ قضاة الأندلس**") والمقّري(1041هـ) في " **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر**

---

(339) الصلة، 216 (رقم: 485). (الجديدة)، 1/ 338 (رقم: 490).

وزيرها لسان الدين ابن الخطيب " و" **أزهار الرياض في أخبار عياض**" (544هـ)، وآخرين غيرهم جدُّ كثير من المؤلفين الأندلسيين، بجانب كتب فيها الكثير من التراجم الأندلسية لغيرهم.

فلدينا ثَبَت طويل جداً من العلماء، كانت لهم عناية باقتناء الكتب. وهم أنفسهم من المؤلفين الذين أَثْرَوْا المكتبة الإسلامية بمؤلفاتهم الضخام (كما وحجماً وكيفاً)، التي رفعتهم إلى مصاف العلماء الأعلام. فكان من مستلزمات مكانتهم العلمية أن تكون لهم مكتباتهم الخاصة. كما لاحظنا أنّ **جمّاعي الكتب** كانوا من أهل العلم، حتى ولو لم يكن هو تخصصهم أو ميدانهم الذي عَرَفوا، لانشغالهم بالوظائف العامة، كالقضاء والوزارة وغيرها، أو الأعمال العامة كالتجارة. وذلك أمر طبيعي، لمكانة العلم، والمجتمع متعلّم، بالمعرفة شغوف.

وكلّ هذا كان يتمّ، وبمدى واسع وكثرة عجيبة وشمول مدهش، رغم عدم توفّر الطباعة، وما تُكَلِّف صعويةُ الاستنساخ من الوقت والجهد والمال، وضعف وسائل النشر والإعلان، وبُعد الشُّقَّة وطول المسافة.

فيذكر ابن بشكوال عن أبي محمد قاسم بن محمد بن سليمان بن هلال القيسي (458هـ = 1066م) من أهل طُلَيْطُلَة TOLEDO ما يشير إلى كثرة مؤلفاته **وجمعه للكتب**، وأنّه انتسخ ذلك بنفسه حيث " نسخ جُلَّ كتبه بخطّه. وكان كثير الكتب في الفقه والآثار، حسن الضبط لها، ثقة في روايته. وكانت له حَلْقَة في الجامع يستفيد منها الناس"[340]. وابن أبي

---

(340) الصلة، 473 (رقم: 1019).

الحُباب كان" حافظاً صحيح الرواية، جيد الضبط لكتبه "(341).

واشتهر بعض العلماء بضبطهم لما جمعوا من الكتب الأُمّهات، التي اعتُبِرت أصولاً . من هؤلاء أبو جعفر أحمد بن محمد بن محمد بن عبيدة الأُموي المعروف بابن ميمون (353ـ طليطلة، 400هـ)، الذي " **جمع من الكتب** كثيراً في كلّ فن، وكانت جلّها بخطّ يده، وكانت منتخبة مضبوطة صحاحاً؛ أمهات لا يدع فيها شبهة مهملة، وقلّما يجوز عليه فيها خطأ ولا وَهْم، وكان لا يزال يتبع ما يجده في كتبه من السَّقَط والخلل، بزيادة في اللفظ أو نقصان منه، فيصلحه حيث ما وجده ويعيده إلى الصواب. وكانت كتبه وكتب صاحبه إبراهيم بن محمد أصح كتب بطليطلة "(342) ومن الطريف أنّه يوم وقع الحريق في سوق طليطلة احترقت دار ابن ميمون "إلاّ البيت التي كانت فيه كتب أحمد، وكان ذلك الوقت في الرباط، وعجب الناس من ذلك، وكانوا يقصدون البيت وينظرون إليه "(343).

وكذلك أبو عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة (496ـ شاطبة، 565هـ) كان "حسن الخط، من أهل الإتقان والضبط. وحُكِي أنّه كانت عنده أصول حِسان بخطّ عمّه، مع الصحيحين بخط الصَّدَفي في سِفْرين، قال: ولم يكن عند شيوخنا مثل كتبه، في صحتها وإتقانها

(341) الصلة، 20 (رقم: 35).
(342) الصلة، 22(رقم: 37).
(343) الصلة، 22.

وجودتها "[344]. وأبو عبد الله محمد بن أحمد بن مسعود بن عبد الرحمن الأَزْدي، ويُعْـرَف بابن صـاحب الصـلاة (542ـ625)، من أهل شـاطِبـة JATIVA. وهو غير عبد الملك بن صاحب الصلاة (594) مؤلّف كتاب المنّ بالإمامة، فقد" كتب بخطّه علماً كثيراً "[345]. وهي عبارة واضحة الدلالة على جمع الكتب وامتلاك مكتبة، استنسخ كثيراً من أسفاره بنفسه. وهي لا تدلّ على امتهان حرفة الكتابة أو الوِراقة.

ومثل ذلك كان محـمـد بن إِسمـاعيل المتـيشي (625هـ) الذي" كان مليح الخط والضبط، مشاركاً في علم الحديث والرجال، فاضلاً زاهداً، يقول الشعر؛ وكتب علماً كثيراً وأخذ عنه الناس. وكان أهلاً لذلك "[346]. وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن التُّجِيبي (لَقَنْتَ الصغرى نحو 540ـ 610هـ)، فقد" كتب العلم عن جماعة كثيرة أزيد من مئة وثلاثين، من أعيانهم المشرقيين أبو طاهر السِّلَفي، صحبه واختصّ به وأكثر عنه، وحُكِي

(344) نفح الطيب، 2/ 159 ـ 160. وعمه هو أبو عمران موسى بن سعادة (بعد 522هـ) وهو والد زوجة أبي علي الصدفي شهيد معركة كتندة CUTANDA سنة 514هـ. انظر: نفح الطيب، 2/ 221. المعجم في أصحاب أبي علي الصدفي، ابن الأبار، (الجديدة) 193(رقم: 167). وقد" سمع من أبي علي قديما وحديثا، وكان [موسى] صهرَه والقائم بمؤنه والمتولي لأشغاله دونه، سعة يسار وكرم اجتهاد، ويتفرّغ لذلك للامتاع بما رواه وتفرّد بحسن الأخذ منه فيما كفاه ". المعجم، 193. نفح الطيب، 2/ 228. التاريخ الأندلسي، 429.

(345) التكملة، 2/ 622 (رقم: 1625).

(346) التكملة، 2/ 623 (رقم: 1627).

أنّه لمّا وَدَّعَه في قفوله إلى المغرب، سأله عما كَتَب عنه، فأخبره أنّه كتب كثيراً من الأسفار ومئين من الأجزاء، فَسُرَّ بذلك"[347].

لكن أبا عبد الله محمد بن عبيد بن أيوب الدَّبّاج (317هـ) من أهل قرطبة اعتمد على غيره في النَّسْخ، إذ" كانت كتبه بخطّ الوراقين "[348]. فلقد مارس التجارة إلى جانب العلم، رغم تقدّمه فيه وتدريسه له. فقد كان عالماً ثقةً جليلاً وشيخاً طاهراً نبيلاً، وحين حلّ بالقَيْرَوان سمع أكابر الناس. " وكان يتعاطى عمل الديباج، فلذلك كان يعرف بالدبّاج "[349].

جمّاعات الكتب

وبينما ـ حتى في القرن السابع الهجري – الثالث عشر الميلادي ـ اعتَبَر ريكاردو دي بيري، جامعُ الكتب الانكليزي، المرأةَ حيواناً بغيضاً يكره العلم، فإنّنا نجد قبل هذا التاريخ ببضعة قرون كانت المرأة الأندلسية المسلمة، متعلِّمة وعالمة ومعلِّمة. تعتني هي أيضاً ـ كأخيها الرجل ـ بجمع الكتب ونسخها[350]. بل وقبل هذا التاريخ بسبعة قرون، يوم جاء الإسلام، وضعها في مكانتها وحقّق لها إنسانيتها في أفق كريم وبشكل عملي، مارسته بصورة لم تكن لتصلها بالمطالبة والمقاومة والصراع، قروناً طويلة وحتى الوقت الحاضر ولا في المستقبل، بدون الإسلام الذي أنزله الله تعالى،

(347) نفح الطيب، 2/ 161.

(348) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 37ـ 38 (رقم: 1199).

(349) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 37.

(350) مجلة معهد المخطوطات العربية، بحث ربيرا، 4/ 1/ 92 وبعدها، والبحث الإسباني الأصل، ص198.

هبةً للإنسان ونعمة تفضّل بها، عَدْلاً ومِنَّة وهُدَى ﴿ **قل إنّ هدى الله هو الهدى** ﴾[351] ولقد مارست المرأة المسلمة في الأندلس - وفي غيرها - كلّ ألوان المعرفة ومراكزها، وظهر الكثير منهنّ جَمَّاعاتٍ للكتب.

لقد كانت لُبنى(374هـ)، كاتبة الخليفة الحكم المستنصر المشهورة، تعتني وتهتمّ بجمع الكتب، وهي أديبة. فـ" كانت حاذقة بالكتابة، نحوية شاعرة بصيرة بالحساب، مشاركة في العلم، لم يكن في قصرهم أنبل منها، وكانت عَروضية، خطاطة جداً "[352]، ما يشير إلى أنّ الذين يتقدّمون للمهام في المرافق المختلفة، على اختلاف أحوالها، وفي المهام الخليفية وقصورها، لا بدّ من توفّر صفات تؤهّلهم لذلك وتمكّنهم من إجادة عملهم. وهذا يتطلّب وجود الكفاءة المطلوبة، كما تتمثّل فيهم، وقبل ذلك. ويزيّنهم الفضل والنبل، لاالتهتّك والتبذّل. لأنّ المحيط الذي يعملون **فيه تسوده هذه الأحوال وتغمره تلك الأجواء.**

وعن عائشة القرطبية بنت أحمد بن محمد بن قادم(400هـ = 1009م)، فقد قال عنها ابن حَيّان القُرطبي في" **المُقْتَبِس** "[353] بأنّه" لم يكن من حرائر الأندلس في زمانها من يَعْدِلها فهماً وعلماً وأدباً وشعراً وفصاحة وعفّة وجزالة وحصافة... **وكانت حسنة الخطّ، تكتب المصاحف والدفاتر وتجمع الكتب وتعتني بالعلم، ولها خِزانة علم كبيرة حسنة، ولها غنى وثروة**

(351) القرآن الكريم، سورة البقرة، 120.

(352) الصلة، 692 (رقم: 1529).

(353) نقلا عن: الصلة، 692 (رقم: 1531). كذلك: نفح الطيب، 4/ 290. دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 506.

تعينها على المروءة" . كذلك كانت سَمِيَّتُها التي أسّست في قرطبة مكتبة من أشهر المكتبات الخاصة في وقتها[354]. وهكذا، إضافة إلى ما سبق، كانت الثروة، حتى للمرأة، تعينها على المروءة وعمل الخير، لا على الرخص والميوعة والانحراف والالتواء والتخلّع والبيع الرخيص. لأنّ المال ليس في ذاته خَيْراً أو شرّاً، وليس الغنى ـ مجرداً ـ مدعاة للشرّ والهدم، بل اليد التي تمسكه، هي التي تُعَيِّن خَطَّه، فليس المال دافعاً للمسلك المهين وإنّما الخلق، وحسنه ينعش الخير وينبت الفضل. وهذا يقال في الفرد وفي المجتمع، ليس في المال فقط وإنّما في كلّ قوّة أو إمكانية.

شغف العلماء بالكتب والعلوم ونشرها

وحين الحديث عن الأعلام في الأندلس، في التصانيف المعنية بذلك، تتردّد دوماً عبارات متوافرة تشير إلى الاهتمام بجمع الكتب والعناية بتدوينها وانتساخها والتأليف فيها، بشكل شامل واسع. وكلّ هذه الشواهد على سبيل التمثيل، وإلاّ فهي متوافرة في كثرة كاثرة. ولذلك فإنّ هؤلاء العلماء، وهم يهتمون بجمع الكتب وتكوين المكتبات، كانوا من أصحاب المؤلفات الحِسان والإنتاج الحَفيل. والأمثلة تفيض بها المؤلفات وهي تشيد باقتنائهم الكتب والعناية بها وضبطها وتُثني على اهتمامهم بالتأليف والإكثار منها. وفيما يُذكر في هذا البحث تعبير بليغ عن أصالة هذه الصفة بأحسن أوضاعها ومقوماتها.

وقد مرّت بنا أمثلة حافلة غنية بإفصاحها عن هذه الميزة التي وَصَفت كلّ

---

(354) مجلّة معهد المخطوطات العربية، بحث ربيرا، 4/1/93.

عالم بأنّه كان كثير الدواوين جَمّاعة للكتب وذا همّة عالية في تدوينها وإنّ له تآليف حِسان(355). وظاهرة اهتمام العلماء بالكتب، جمعاً وتدويناً وتأليفاً وانتساخاً، وكذلك دأبهم على الإقراء والتحديث (التدريس والتحاضر) وإقبالهم على نشر العلم وبثّه(356)، تدلّ على النموّ في هذا الاتجاه والتجويد فيه باستمرار، مستزيدين دوماً، وَبِنَهَمٍ لا يشبع. والحرص في ذلك كلّه بادٍ صريح، ثمرة لقوله تعالى في القرآن الكريم :﴿ لَتُبَيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتُمُونَه ﴾ (357))، واتصافاً بحديث الرسول الكريم صلّى الله عليه وسلّم" منهومان لا يشبعان طالب علم وطالب مال "(358).

فكان نشر العلم أمانة ومسؤولية، ترتبط بالعقيدة وتقوم على الأساس نفسه في الاستجابة لنداء الله والالتزام بأمره والوقوف عند شرعه. سواء كان بالبلاغ المباشر: التعليم، أو غير المباشر: **الكتاب**.

وترد هنا مسألة لا بدّ من إثارة الانتباه إليها. ذلك أنّ الأندلس بلغت حداً عالياً من العلم والمعرفة في رفعة المستوى وعمق الأصول وسعة الشمول، في النساء والرجال. فلا بدّ أن كانت لهم طريقة ناجحة في التعليم وأسلوب في التدريس ونشره. **إنّها طريقة تستحقّ البحث والدراسة والتعريف، خاصة الأسلوب المباشر**. وكان أسلوب التدريس المباشر في عملية التعليم عاماً،

---

(355) انظر: الصلة، 47(رقم: 1015) و (1017)، 473(رقم: 1019)، 477 (رقم: 1031)، 483(رقم: 1047).

(356) انظر: أزهار الرياض، 3/ 63، 153. الصلة، 145.

(357) سورة آل عمران، آية 187.

(358) سنن الدارمي، 1/ 96.

يهرع إليه العلماء والمتعلمون. ومكانة العالم، يقوم جزء كبير منها، على بذل العلم للناس. وكان كلّ أحد من العلماء في إقبال شديد على **نشر العلم، حِسْبَةً**. وقد انفردت الإشارة إلى هذا الأمر، حين الحديث عن العلماء خاصة، أولئك الذين تفرغوا فيه وكرّسوا وقتهم وجهدهم له. وآخرون كانوا يمارسونه، وسيرتهم تنبئ بذلك. وهذا يكاد يكون عاماً.

فالحافظ أبو الوليد ابن الفَرَضِي (351ـ قُرطبة، 403هـ)، صاحب المؤلفات الكثيرة الحسنة، كان معنياً بالعلم" قائماً به نافذاً فيه "(359). وأبو عبد الله محمد بن أَصْبَغ بن محمد بن أصبغ الأسدي (قرطبة، 536هـ) قاضي الجماعة بقرطبة " أقبل على التدريس، وإسماع الحديث"(360). وأبو زكرياء يحيى بن هلال بن زكرياء (367هـ= 978م) من أهل قرطبة"كان مورودا في السماع منه، سمحاً ينشر علمه "(361).

فأبو جعفر أحمد بن الوليد بن أبي جمرة (444هـ) مُرْسِي" كان من بيت علم وجلالة ودين، مُعْرِضاً عن الدنيا كثير العمل، تصدّق بجلّ ماله، إلاّ ما يُقيم أَوْدَه. وله في الفقه فَتاوى حُفظت عنه، وتزهّد ورحل إلى المشرق فأدى فريضة الحج. ولما قفل إلى بلده أقبل على نشر العلم وبثّه وتدريسه، إلى أن توفي به "(362).

والقاضي أبو الوليد الباجي (بَطَلْيَوْس، 403ـ المَرِيَّة، 474هـ)" أحد أئمّة

---

(359) الصلة، 252(رقم: 572).

(360) الصلة، 586(رقم: 1288).

(361) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 191(رقم: 1596).

(362) الذيل والتكملة، 1/ 555. الديباج المذهب، 58.

المسلمين " [363] وصاحب المصنفات الكثيرة الشهيرة[364]، الذي عُنِيَ بالتأليف والتدريس[365]، بل إنّه حين رحل إلى الشرق الإسلامي في 426هـ لثلاث عشرة سنة[366]، قَدِم خلالها بغداد " وأقام بها ثلاثة أعوام يُدَرِّس الفقه ويَقْرَأ الحديث"[367]. مثلما فعل الحافظ أبو بكر أحمد الخطيب البغدادي (392ـ 463هـ) حين خرج إلى الشام " حدّث بدمشق بعامّة كتبه "[368].

وأحمد بن مَضاء (592هـ)" لحق بجبل تين، مَلَكَ أحد الجبال الشامخة الغربية لمراكش، فاستقرّ به مدرساً العلم ناشراً ما لديه من المعارف "[369]. وأبو محمد قاسم بن الحاج محمد بن مبارك الأموي الزَّقّاق (559هـ)" أَقْرأ طويلاً بإشبيلية وبفاس وبسلا وغيرها "[370].

والإمام الحافظ الحُمَيْدي الأندلسي (بغداد، 488هـ) صاحب المصنفات الكثيرة **وجذوة المقتبس**، كان شديد الحرص" على نشر العلم وبثّه في أهله"[371]. والإمام الحافظ المُسْتَبْحِر القاضي أبو بكر ابن العربي : محمد

---

(363) وفيات الأعيان، 2/ 409.

(364) نفح الطيب، 2/ 67.

(365) الذخيرة، القسم الثاني (محطوطة المتحف العراقي)، 63.

(366) نفح الطيب، 2/ 71.

(367) نفح الطيب، 2/ 71.

(368) الوافي بالوفيات، الصفدي، 7/ 191.

(369) الذيل والتكملة، 1/ 218.

(370) الذيل والتكملة، 5/ 571.

(371) نفح الطيب. 2/ 113. المرقبة العليا، 106. الذيل والتكملة، 1/ 536.

ابن عبد الله (إشبيلية، 468ـ فاس، 543هـ) كان ممَن "أقبل على نشر العلم وبثّه "[372].

وكلّ ذلك كان يتمّ مع الحرص في إخلاص، والرغبة في استمرار، والفرح في السعي إلى الناس. وذلك عام مألوف، كالقاسم بن عبد الرحمن بن القاسم بن دحمان بن فتوح بن نصر الأنصاري (بلنسية، 485ـ مالقة، 575) الذي" كان كبير الأساتيذ بمالقة وصدر المقرئين بها، خيرا فاضلا متواضعاً، طال عمره وعظم انتفاع الناس به وروى عنه الأصاغر كما روى عنه الأكابر، ونفع الله بالأخذ عنه عالماً كثيراً، وكان ناصحا في تعليمه حريصا على الإفادة ضابطاً ثقة فيما يرويه، متين الدين تامّ الفضل "[373].

ومن السهل ملاحظة أنّ هذا الإقبال على نشر العلم وإشاعته تطوّعاً، ولعلّه احتساباً(بدون أجر)، كان يقوم به علماء أعلام، عُرفوا بفضلهم وورعهم ومكانتهم من الناس ومن السلطان، فكانوا قدوة في علمهم وخلقهم والتزامهم واستقامتهم وهروعهم إلى الناس لنفعهم. وهذا واضح المدلول بأنّ هذه الأمور كانت نابعة من العقيدة ومدفوعة لحملها ومركونة على أسسها الفاضلة، التي تكون الدوافع الطوعية والرغائب، التي هي أقوى وأفضل وأصدق وأعمق وأمكن وأدوم من أيّة دواقع غيرها ولا تقوم بدونها.

وكما كان استمرار الإنتاج في التأليف دون توقّف الصعود ﴿ وفوق كلّ ذي علم عليم ﴾[374])، كذلك طلب العلم كان البذل له كريماً والسعي فيه

---

(372) الصلة، 591. (ج)، 3/ 857(1305). نفح الطيب، 2/ 29.

(373) الذيل والتكملة، 5/ 546.

(374) القرآن الكريم: 12/ 76(سورة يوسف).

حثيثاً والاستزادة مستمرّة والنموّ مُطَّرِد والرحلة إليه دائمة " ما زال المرء عالماً ما طلب العلم، فإذا ظنّ أنّه قد عَلِمَ فقد جَهِلَ "(375). وكلّ ذلك قويّ واضح في المؤلفات، ذات الاهتمام بهذا الجانب.

فيذكر ابن الفَرَضِي في **تاريخه** لعلماء الأندلس عن داود بن عيسى بن جبويه الكَلاعي الأحول من أهل قرطبة" رحل إلى المشرق فاجتمع مع بَقِيّ بن مَخْلَد، وكان بَقِيّ لا مال له، وكان داود واسع المال، فسأله بقي: أن يبيح له من ماله ما يشتري به الكتب، ويجمع به الدواوين، ويكون سماعهما واحداً. وقال له أرجو أن ينفعك الله بذلك. فأجابه داود إلى ذلك، فكان سبب استكثار بَقِيّ من الرواية والجمع. ولما انصرف إلى الأندلس كتب بَقِيّ الكتب لنفسه "(376). والحافظ أبو محمد عطية بن سعيد بن عبد الله الأندلسي (407هـ = 1016م) "طاف بلاد المشرق سياحة، وانتظمها سماعاً، وبلغ إلى ما وراء النهر، ثمّ عاد إلى نيسابور وأقام بها مدّة "(377). وذهب بعد ذلك إلى مكة المكرمة" وتوفي بها بعد أن أقرأ وحدّث أعواماً "(378) و"كان ثقة كثير الكتب صحيح السماع"(379). و"قد جمع كتباً حملها على بَخَاتِي كثيرة "(380). وابن الضابط أبو عمرو عثمان بن أبي بكر

---

(375) حديث شريف.

(376) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 143 (رقم: 427). (ج)، 1/ 259 (425).

(377) جذوة المقتبس، 319 (رقم: 7410). كذلك الصلة، 447 (رقم: 963).

(378) الصلة، 449.

(379) الصلة، 449.

(380) جذوة المقتبس، 320. كذلك: الصلة، 448. البخاتي: الإبل الخراسانية.

الصدفي السَّفاقِسي الأصل "كانت له رواية واسعة ومعه كتب كثيرة من روايته بالعراق والشام والحجاز ومصر. وكانت عنده غرائب. تجوّل بالأندلس منذ عامين، ثمّ انصرف إلى القيروان، فوجّهه الصِّنهاجي صاحب القيروان رسولاً إلى القسطنطينية ثمّ انصرف عنها "[381] أو مات في طريقها، إما وارداً وإما صادراً رحمه الله "[382].

وكان جَلْبُ الكتب من الأقطار الأخرى إلى الأندلس، معروفاً مشهوراً، خاصة في القرون المبكرة، وذلك يمثّل أحد روافد الثقافة الأندلسية. لقد شمل ذلك الميادين كافة، **وكان مَن يأتي إلى الأندلس من أهل الشرق الإسلامي يجلب معه الكتب**، كما فعل أبو علي القالي. أما الأندلسيون فكان ذلك هدفاً يعملون على تحقيقه ويسعون إلى إنجازه.

فها هو ذا أبو القاسم سَلَمَة بن سعيد بن سلمة بن حفص بن بُرْد الأنصاري(اسْتِجَّه، 327ـ إشبيلية، 407هـ) " رحل إلى المشرق وحج وأقام بالمشرق ثلاثاً وعشرين سنة، وأدب في بعض أحياء العرب. . . وكان رجلاً فاضلاً ثقة فيما رواه، راوية للعلم. حدّث وسمع الناس منه كثيراً[383]".

وقد نفع في رحلته وانتفع علماً وفضلاً، **فساق" من المشرق ثمانية عشر حملاً مشدودة من كتب**. وسافر من إسْتِجَّه إلى المشرق واتخذ مصر مؤئلاً، واضطرب في المشرق سنين كثير جداً يجمع في الآفاق كتب العلم، فكلما

(381) الذيل والتكملة، 1 / 229.

(382) الصلة، 409 (رقم: 881). الديباج المذهب، 49. انظر كذلك: العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة، 121 وبعدها.

(383) الصلة، 224 (رقم: 513).(ج)، 1 / 518 (350).

اجتمع من ذلك مقدار صالح، نهض به إلى مصر، ثمّ انزعج بالجميع إلى الأندلس. وكانت في كلّ فنّ من العلم، ولم يتمّ له ذلك إلاّ بمال كثير حمله إلى المشرق "[384].

وربما كان أهمّ ما يملك العالِمُ مكتبةً يزيّن بها داره. وهي أكبر ما لديه في الحِلّ والتَّرحال. وقد يكون زاهداً في كلّ شيء متقلّلاً منه، **غير الكتب، وعاء العلم**. وحين يسافر بعضهم يصحب معه كتبه، كلَّها أو بعضَها. وهي أهمّ ما يُعْنَى به، كما فعل ابن الصقر الأنصاري (569هـ) العالم المؤلف جمّاعة الكتب الذي تردّد بين الأندلس والشمال الإفريقي، خاصة مراكش. وحين عاد إلى غرناطة" استصحب إليها من مراكش خمسة أحمال" [385] أو كان ذلك حين توجّه إلى مراكش[386]، أو كان كليهما، ثمّ زاد عليها الكثير.

وهذا أمر عام في بلدان العالم الإسلامي، يصل إلى حدّ الطرافة أحياناً. كالذي جرى للإمام أبي حامد الغزالي (الطابران، 450ـ الطابران، 505هـ = 1058ـ 1111م) [387] حين سافر من بغداد إلى بلده فـ" أخذ العيارون ما معه، رجاهم أن يردّوا عليه كتبه ففعلوا "[388].

ولعلّ حيثما يحلّ أحدهم تكون له مكتبة، وقد يتركها في مكانها حين

---

(384) الصلة، 225.

(385) الذيل والتكملة، 1/ 229.

(386) الديباج المذهب، 49.

(387) وفيات الأعيان، 4/ 218.

(388) طبقات الشافعية الكبرى، السبكي، 6/ 195.

يرحل، للانتفاع بها. كما فعل الحافظ أبو عمرو الداني عثمان بن سعيد بن عثمان بن سعيد بن عمرو، من قرطبة (قرطبة، 371ـ دانية، 444هـ= 981ـ 1052م). رحل الداني طلباً للعلم من الأندلس إلى عدد من بلدان الشرق الإسلامي، وترك في بعض منها كتباً، إذ" خلّف كتبه بالحجاز ومصر والمغرب والأندلس "[389]. ويذكر المقّري عن أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل السلمي المرسي (مرسية، 570ـ العريش، 655) أنّه" كانت له كتب في البلاد التي ينتقل إليها، بحيث إنّه لا يستصحب كتباً في سفره، اكتفاء بما له من الكتب في البلد الذي يسافر إليه "[390].

وكانت هذه الظاهرة عامة عند علماء المسلمين في أقطارهم المختلفة. فذكر السخاوي حين الحديث عن مجد الدين الفيروزآبادي (كازرين، 720ـ زَبيد، 1415م) صاحب المؤلفات الكثيرة و**القاموس المحيط** بأنّه" اقتنى كتباً كثيرة، حتى نُقل عنه أنّه قال: اشتريت بخمسين ألف مثقال ذهباً كتباً. وكان لا يسافر إلاّ وفي صحبته منها أحمال، ويخرجها في كل منزل وينظر فيها. وصنف كتبا كثيرة"[391]. ويأبى أحدهم تعطيل الإفادة من الكتب فينفع بها نفسه وغيره، ويعمل على الانتفاع بها في كلّ الظروف.

فحين ذهب العالم الأندلسي " الأديب الحكيم " أبو الصلت أُمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الإشبيلي (دانية، 460ـ 529هـ) إلى مصر في 489هـ

---

(389) نفح الطيب، 2/ 135.

(390) نفح الطيب، 2/ 242.

(391) الضوء اللامع، 10/ 79. أزهار الرياض، 3/ 42.

أيام خلافة المستعلي الفاطمي بن المستنصر، حدث له ما حمل الوزير الأفضل شاهنشاه على سجنه. لكن الطريف في الأمر أنّه سُجن لسنوات في مكتبة غنية بالمؤلفات، يهيّئ فيها الجوّ المناسب للدرس والإنتاج، ولا تخلو من لقاء بالمرتادين، وربّ ضارة نافعة. وفي ذلك يقول ابن سعيد المغربي: "فسُجِن في القاهرة في خِزانة البنود، وكان فيها خزائن من أصناف الكتب، فأقام بها نحو عشرين سنة، فخرج منها وقد برع في علوم كثيرة، من حديثة وقديمة. وصنّف كتاب **الحديقة**، على منزع كتاب **اليتيمة**، في فضلاء عصره، وصنّف **الرسالة المصرية**، وصنّف في الطب والتنجيم والألحان، وعنه أخذ أهل إفريقية الألحان التي هي الآن بأيديهم "[392]. وذكر ابن خِلّكان كتباً أخرى، ألّفها أبو الصلت في سجنه، منها: رسالة" **العمل بالإسطرلاب**"، وكتاب" **الوجيز** " في علم الهيئة، وكتاب" **الأدوية المفردة**" وغيرها[393]. فكانت أعواماً ذات حصيلة كبيرة من العلم والتأليف إذ" خرج في فنون العلم إماماً، وأَمْتَنُ علومه الفلسفة والطبّ والتلحين، وله في ذلك تواليف تشهد بفضله ومعرفته "[394].

فهل نجد لهذه الطرافة أمثلة، وهل يَحْلُم علماؤنا أن يَحْظَوْا بها يوما ما؟

(392) المغرب في حلى المغرب، 1/ 262.

(393) وفيات الأعيان، 1/ 247. انظر كذلك: نفح الطيب، 1/ 496، 2/ 105. التكملة، ابن الأبار، 1/ 203. المقتضب من كتاب تحفة القادم، ابن الأبار، (تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1957)، 3ـ 4.(ج)، 56. خريدة القصر وجريدة العصر، العماد الأصفهاني، القسم الرابع (تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، 1964)، 1/ 223. عصر المرابطين والموحدين، عنان، 1/ 472.

(394) نفح الطيب، 2/ 105ـ 106.

ورغم إلفة عُرْف التقاضي عن التدريس، فإنّ عدداً متوافراً من علمائنا كان يدرِّس دون مقابل، تقرّباً إلى الله تعالى. والأمثلة كثيرة.

كذلك كان ابن بشكوال صاحب **الصّلة**، الذي يقول عنه ابن الأبّار في **تكملته** بأنّه حدّثه" عنه جماعة من شيوخنا الجلّة ووصفوه بصلاح الدخلة وسلامة الباطن وصحّة التواضع وصدق الصبر للراحلين إليه، ولين الجانب وطول الاحتمال في الكبرة رجاء المثوبة "[395].

ومن هؤلاء أيضاً أبو القاسم محمد بن إبراهيم بن وضّاح اللخمي (587هـ = 1191م)، غير سميّه المشهور. وأبو القاسم بن وضّاح اللخمي من غَرناطة ونزل جزيرة شُقَر[396]. وكان قد سافر إلى الشرق الإسلامي حاجّاً وطالباً

---

(395) التكملة، 1/ 306 (رقم: 831).

(396) جزيرة شُقَر JUCAR : هي أيضا اسم المدينة (مدينة شقر) التي تقوم فوق الجزيرة عند مصبّ نهر (أو وادي) شقر، وتسمى حاليا Alcira أي الجزيرة. وتقع قرب شاطبة JATIVA، وبينها وبين بلنسية VANECIA ثمانية عشر ميلاً.
انظر: نصوص عن الأندلس، العذري (تحقيق عبد العزيز الأهواني، مدريد، 1965)، 19، 144. الروض المعطار، 102(طبعة بيروت الكاملة)، 349. الحلة السيراء، 2/ 267ح 2. نفح الطيب، 1/ 166ح 5. تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط (تحقيق أحمد مختار العبادي، مدريد، 1971)، 108 ـ 109ح 3. الحلل السندسية، شكيب أرسلان، 3/ 229.
ومنها الشاعر الأندلسي ابن خفاجة (451ـ533هـ= 1059ـ1139م). انظر: التكملة، 1/ 143ـ144(رقم: 373) . خريدة القصر، 4/2/ 1ـ6، 625 ـ 633. تاريخ الأدب الأندلسي (عصر الطوائف والمرابطين)، إحسان عباس (بيروت، 1971)، 204 وبعدها . تاريخ الفكر الأندلسي، بالنثيا،123 . وإليها ينتسب عدد من العلماء. انظر: الحلل السندسية، 3/ 230 ـ 233.

للعلم" وأقام في رحلته نحواً من تسعة أعوام، وقفل إلى الأندلس، فنزل جزيرة شقر من أعمال بلنسية، وأقرأ بها القرآن نحوا من أربعين سنة لم يأخذ من أحد أُجرة ولا قبل هدية "(397).

الاحتساب والتحبيس

وتقديم العون والحصول على الكتب لطلبة العلم وبذل هذا العلم والسعي لنشره ووهب كتبه للناس - بأيّ شكل - كان سُنّة متبعة وعرفا محموداً، رغم ضخامة الاحتياج إليه أحيانا. تلك صفة عرفها المجتمع المسلم، بأوسع نطاق وأعلى صورة. فالمجتمع الكريم لا يبخل بالخير، بل يسعى إليه ويحتسبه.

فالاحتساب في مجال العلم - مثل غيره - إحدى ثمار ذلك البناء الاجتماعي للمجتمع المسلم، القائم على العقيدة الإسلامية. وليس هو إلاّ واحداً من تلك المظاهر العلمية والدوافع الأصيلة الجميلة. التي أسهمت في إيجاد هذا الجوّ الرفيع الفريد. فهي وإياها مرتبطة بالروح نفسها قائمة على عين الوجهة، تسير بالخط نفسه وتعمل لذات الهدف، محفوفة بأكرم الدوافع.

فهذا أبو العباس أحمد بن محمد بن أبي الخليل مفرج الأموي الإشبيلي المعروف بابن الرومية (محرم، 561ـ ليلة الاثنين مستهل ربيع الآخر إشبيلية، 637هـ) كان ممّن تحلّى بهذه الصفة. **وقد كان إماماً في الحديث ومتقدّما في**

---

(397) التكملة، 2/ 544 (رقم: 1472). نفح الطيب، 2/ 160.

علم النبات، وله في كلّ منهما تصانيف جيّدة برع في العلوم البحتة SCIENCE والعلوم الشرعية وله في كل منهما مؤلفات عدّة، وذلك لوجود القدر المشترك بينهما، وهما الحديث والنبات، إذ موادهما الرحلة والتقييد وتصحيح الأصول وتحقيق المشكلات اللفظية وحفظ الأديان والأبدان وغير ذلك، وكان هدا زاهدا في الدنيا مؤثرا بما في يديه منها، وموسّعاً عليه في معيشته " كثير الكتب، جَمّاعاً لها في كلّ فنّ من فنون العلم، سمحاً لطلبة العلم، ربما وهب منها لِمُلْتَمِسه الأصل النفيس الذي يَعِزُّ وجودُه، احتساباً وإعانة على التعليم؛ له في ذلك أخبار مُنْبِئة عن فضله وكرم صنفه. وكان كثير الشغف بالعلم، والدؤوب على تقييده ومداومته سَهَرَ الليل من أجله، مع استغراق أوقاته وحاجات الناس إليه، إذ كان حَسَنَ العلاج في طبّه المورود، الموضوع، لثقته ودينه "(398).

وكانت فكرة الاحتساب (أي جَعْل العملَ لوجه الله تعالى) في التأليف - كما في التدريس - واضحة بيّنة، دفعت المسلمين أيضا إلى التفوّق والعمق والإنتاج الغزير، مع البذل لهذا الشأن، جهداً وإنفاقاً ورحلة. وقد مرّت بنا أمثلة، وهي كثيرة. وهكذا وجهة المسلم في كلّ عمل.

فهذا أبو العبّاس أحمد بن هشام الجُذامي الزّوْزَنالي (536هـ) وهو مَرَوِي سكن قرطبة " كان مقرئاً متقناً ضابطاً مُجَوِّداً، حسن السَّمْت ملائم الصمت، أَقْرَأَ مدّةَ إقرائه كتاب الله مُحتسباً "(399). وكذا كان ابن مضاء

---

(398) الإحاطة، 1/208. الذيل والتكملة، 1/2/ 512ـ 513. وانظر عنه: التكملة، 1/121. نفح الطيب، 2/ 596ـ 598. برنامج شيوخ الرعيني، 142(رقم: 65).

(399) الذيل والتكملة، 1/2/563، (رقم: 866)

(513ـ إشبيلية، 592هـ) حين قدم " الأندلس تفرّغ لإفادة العلم، صابراً محتسباً مُمَكِّناً طلاّبَه منه، إلى أن توفي عفا الله عنه بإشبيلية"(400).

وكان سعيد ابن الخطيب، الجدّ الأبعد لذي الوزارتين الغَرناطي لسان الدين ابن الخطيب (لَوْشَة، 25رجب 713ـ فاس، أحد الربيعين 776)، في مدينة لَوْشة، بين غرناطة وإشبيلية، " يذيع بهذا المكان فصولاً من العلم، ويجهر بتلاوة القرآن، فيستوقف الرفاقَ المُدْلِجة الحنينُ إلى نغمته، والخشوعُ إلى صدقه، فتُعَرِّس رِحالَها لَصْقَ جداره، وتريح ظهرها موهناً، إلى أن يأتي على وِرْدِه "(401).

وكان هذا أمراً عاماً في العالم الإسلامي الواسع المتوحّد. فلقد كان محمد ابن مرهوب بن الحسن أبو نصر الفَرَضي الضرير (530هـ) صاحب المصنَفات الحسنة كان" لا يأخذ أجرة على تعليمه الفرائض والحساب ولكن يأخذ الأجرة على تعليمه الجبر والمقابلة ويقول: الفرائض مهمّة، وهذا من الفضل "(402).

ومن لطائف ما يُروى في ذلك، فعلُ أبي عبد الله محمد بن يحيى بن أحمد بن الحَذَّاء القُرْطُبي (347ـ سرقسطة، 416هـ) المدفون" بباب القبلة على مقربة من قبر حَنَش بن عبد الله الصَّنْعاني رحمهما الله "(403). ونقل

---

(400) الذيل والتكملة، 1/ 222، (رقم: 291)

(401) نفح الطيب، 5/ 10. الإحاطة (المذكرات)، 4/440. لسان الدين ابن الخطيب، عنان، 32، 287.

(402) الوافي بالوفيات، 5/ 100. المنتظم، 10/ 64.

(403) الصلة، 507 (رقم: 1103).

ابن بشكوال قول أبي علي الغساني في ابن الحذّاء بأنّه كان" أحد رجال الأندلس فقهاً وعلماً ونباهة، متفنناً في العلوم يقظاً، ممن عُني بالآثار وأتقن حملها، وميّز طرقها وعللها، حافظاً للفقه، بصيراً بالأحكام، إلاّ أنّ علم الأثر كان أغلب عليه "[404]. وله عدّة مؤلفات، وكان قبل وفاته قد" عهد أن يدفن بين أكفانه كتابُه المعروف بـ" الإنباه على أسماء الله " فنُثرَ ورقُه وجُعِلَ بين القميص والأكفان، نفعه الله بذلك"[405].

التحبيس

وكان عدد من أصحاب المكتبات الخاصة والعلماء يُحَبِّس (يُوقِف) مكتبةً بعد وفاته، أو شيئا منها في حياته. والوقف أو **الأحباس ـ كما يسمّيها، وحتى الآن، أهلُ الغرب الإسلامي ـ تشريع اجتماعي معروف بليغ المعنى عميق القيمة كبير المدلول، ذو أثر بيّن ضخم النتيجة. وهو يدلّ على قوّة البناء الإسلامية وخلوصه لله تعالى والتوجّه لمرضاته. وهو عنوان المحبّة للناس والاهتمام بمصالحهم والعمل بما ينفعهم. وهو تعبير عن رابطة خيّرة تلغي طابع المصلحة الذاتية والنفعية بأيّ صورة وتتجاوز حبّ الذِّكْر وتزيل معاني الحقد والمنافسة الفردية وتؤكّد الإيثار وتربي المحبّة صادقة، تحمل التفكير والاهتمام بصالح المسلمين العام، المستمرّ في حياة فاعلها وبعد وفاته. وهي بذلك تذيب كلّ الصلات والروابط الضيقة، وطنية أو قومية، وتسمو فوق كلّ الاعتبارات، لأنّها تَعْتَبِر العقيدةَ الإسلامية، مُنشِئةَ رابطةٍ**

(404) الصلة، 1ـ 5.

(405) الوافي بالوفيات، 5/ 196. الصلة، 507.

حقّة، ومصلحةَ أتْباعها هي المصلحة الحقيقية. وتمثيلُ العقيدة والاستجابة لشريعتها هو الاعتبارُ المرغوب. وأحْسب أنّ الوقف بحاجة إلى دراسة دقيقة شاملة، لأنه يمثل إحدى المؤسسات في الحضارة الإسلامية.

لقد أخذ التحبيس أو الوقف كلّ الأشكال والصور في الحياة الاجتماعية التي تعبر بقوّة متفرّدة عن هذا المعنى، كان منها **تحبيس الكتب**. وإنّ من يقوم بهذا يعطي أعزّ ما لديه وأكثر وأحسن ما يملك. وهو ضخم كبير، وخاصة من هؤلاء العلماء الذين تضمّ مكتباتهم المؤلفات الكثيرة، قد تبلغ الآلاف، منها مؤلفاته، ومنهم المكثرون في التصنيف. وفي المكتبات المُحَبَّسة نجد عدداً من كتبها بخطوط مؤلّفيها. فكان الواحد من هؤلاء يُؤْثِر المسلمين لما أنفق من أجله الكثير، من وقته وجهده وماله وعصارة فكره. وهو عطاء عام دائم، غير متعلّق بشخص أو قوم أو وطن، فلا يجلب نفعاً أو ذِكْراً بين الناس مصنوعاً، أو شكراً مسموعاً. فهم لا يبحثون عن ذلك إنّما عن رضا الله تعالى. فكانت الأمور تجري في إطار التقوى وتتساوى مع مقدار التمسّك بالعقيدة والحرص، حتى على المندوب، فضلاً على المفروض. ومَن كان في الدين أعرف كان في هذا الأمر أمضى. والأمثلة ترسم صورة لهذا المعنى وتشير إلى واقعية هذه المعاني وحضورها حيّةً في المجتمع الإسلامي، يوم كان يَصدر عن الإسلام ويقوم على عقيدته. فكان ذلك ثمرة لتلك المعاني التي غَمرت الرؤوسَ وملأت النفوسَ واستقرّت في القلوب، فتحولّت الرغبات والإرادات والوجدانات والعواطف والفكر في هذا الاتجاه، فرحةً مستقرّة لممارستها، راضية هنية قوية مستبشرة لتحقيقها،

ساعية حريصة للمحافظة عليها وإشاعتها.

فأبو محمد قاسم بن حامد الأموي من أهل كورة رَيّة أو رَيُّه (REGIO) والتي تُعَدُّ مدينة مالَقَة MALAGA واحدة من قواعدها الكبرى"كان صبوراً على النسخ، جُلُّ كتبه بخطّه، وكان زاهداً، فاضلاً، ناسكاً، ورِعاً مع الفقر والإقلال. وكانت وفاته قبل الفتنة، وحَبَّس قاسم كتبَه. من كتاب ابن سعدان "[406]. وقاسم بن سعدان (347هـ = 958م) من أهل رَيَّة وسكن قرطبة، ولعلّه هو صاحب الكتاب المذكور توّا، أوقف مكتبته عند الوفاة على الطلبة. فيذكر ابن الفَرَضي أنّه" كان ضابطا لكتبه مُتْقناً لروايته، حسن الخطّ جيّد الضبط، عالماً بالحديث، بصيراً بالنحو والغريب والشعر. ولا أعلم بالأندلس أحداً عُني عنايتَه. ولم يزل في نَسْخٍ ومقابلة إلى أن مات. ولم يُحَدِّث، وحَبَّس كتبه فكانت موقوفة عند محمد بن محمد بن أبي دُلَيم، وكثير من سماعنا عليه فيها "[407].

وأبو عمر هارون بن سالم (نحو 198-238هـ)، وهو قرطبي قديم، "وكان منقطع القرين في الفضل والزهد والعلم، وكان يقال فيه إنّه مُجاب الدعوة. **وكان يحفظ المسائل حفظاً حسناً، ... وكانت كتبه موقوفة عند أحمد بن**

---

(406) تاريخ علماء الأندلس، ابن الفرضي، 1/ 360 (رقم: 1061). (ج)، 2/ 605 (1059) ولعلّ المقصود بالفتنة، تلك التي كانت بعد سقوط الدولة العامرية - أو هي التي أسقطتها - نهاية القرن الرابع الهجري وأوائل تاليه، حيث أن ابن الفرضي - راوي الخبر - كان من بين شهدائها: سنة 403هـ. لقد كانت - والعياذ بالله تعالى - حالقة.

(407) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 367 (رقم: 1072).

خالد " (408) قريبه من طريق أمّه. والحافظ أبو محمد عبد العزيز الأندلسي (الأندلس، نحو 577ـ البصرة، 617هـ) كان" ديّناً مُتَصَوِّناً كبير القدر ... ثقة فاضلاً، صاحب حديث وسُنَة، كريم الأخلاق. قال مفضل القرشي: كان كثير المروءة غزير الإنسانية. وقال ابن الحاجب: كان كَيِّسَ الأخلاق، محبوب الصورة، لَيِّن الكلام، كريم النفس، حلو الشمائل، محسناً إلى أهل العلم بماله وجاهه، وقيل: إنّه أوصى بكتبه للشرف المُرْسِي، رحمه الله تعالى "(409). وأبو بكر محمد بن علي بن ياسر الأنصاري الأندلسي الجَيَّاني (جَيّان، 492ـ حلب، 563هـ) الذي حجّ وطلب العلم ورحل من أجله وصحب العلماء، منهم أبو القاسم بن عساكر صاحب **تاريخ دمشق**، " وبلغ الموصل فأقام بها مدّة يسمع منه ويأخذ عنه، ثمّ انتهى إلى حلب فاستوطنها وسُلِّمت إليه خزانة الكتب النورية وأُجريت عليه جِراية. وكان فيه عسر في الرواية والإعارة معاً، ووقف كتبه على أصحاب الحديث "(410).

والحافظ الحُمَيْدي الأندلسي (الجزيرة (ميورقة) بالأندلس، قبل 420ـ بغداد، 488هـ) صاحب المصنفات الكثيرة فهو" من أهل العلم والفضل والتيقظ، لم أرَ مثلَه في عفّته ونزاهته وورعه وتشاغله بالعلم ... ووقف كتبه على أهل العلم، رحمه الله تعالى "(411).

---

(408) المقتبس، ابن حيان، 2/ 221. كذلك: ترتيب المدارك، المجلد الثاني، 48. تاريخ علماء الأندلس، 2/ 169.

(409) نفح الطيب، 2/ 626.

(410) التكملة، 2/ 501 (رقم: 1380). كذلك: نفح الطيب، 2/ 58، 157.

(411) نفح الطيب، 2/ 114ـ115. نقلا عن ابن ماكولا. الوافي بالوفيات، 4/ 317=

وأبو مروان عبد الملك بن مَسْلَمة بن عبد الملك بن سلمة ابن الصقيل (المرية، 540هـ) من أهل وَشْقَة (HUESCA) ونزل بلنسية (VALENCIA) الذي" عُني بالتجوّل في طلب العلم ولقاء حملته"، وتوفي عن غير وارث إلاّ بيت المال، فصارت كتبه ببلنسية وماله بالمَرِيَّة (ALMERIA) لبيت المال "[412]. وهذا يشير إلى تنظيم مثل هذه المسائل، وأنّ بيت المال ليس في الأموال وحدها بل في أمور أخرى كذلك، مثل الكتب. فهل كانت الكتب في مثل هذه الحالة تقام لها مكتبة تُجْمَع إليها المكتبات أو يوجّهه بيت المال إلى المكتبات العامة أو المؤسسات العلمية؟ لكن إبقاء الكتب في بلنسية مستوطنه قد يفصح عن وجود مكتبة عامة أو أكثر، بأن تكون أحدها رئيسية، أو أنّ المساجد تضمّ مكتبات صُرِفت إليها هذه الكتب. ولعلّ الأول أرجح، إضافة إلى إفصاحه عن أنّ بلنسية أولى بكتب نزيلها من غيرها.

ومن المؤلفين مَن يُوقِف أحدَ مؤلفاته أو بعضاً منها وقفاً عاماً أو محدوداً. وقد يكون الواقف ليس مؤلِّفاً، بل يختار من الكتب ما يراه ليوقفه. من ذلك ما يرويه لنا المقّري في **نفحه** عن توقيف سلطان الأندلس أبي عبد الله محمد نسخة من كتاب **الإحاطة** لابن الخطيب على بعض مدارس غَرناطة،

= كذلك: الصلة، 560 (رقم: 1230). وفيات الأعيان، 4/282.
وقد يخص أحدُهم كتبَه لعالم من أفراد أُسرته أو أقاربه ينتفع بها، وقد يعتبر هذا نوعا من الوقف. ونجد من ذلك أمثلة عديدة مَرَّ بعضها(أعلاه، 147)، و" حسين ابن إبراهيم بن محمد بن ثابت: من أهل قرطبة. وأصل أبيه من ماردة. وهو ابن بنت أبي علي الغساني" فقد"صارت إليه كتب جدّه أبي علي وأصوله العتيقة".

(412) الذيل والتكملة، 5/20.

ويكتب لنا حجّة الوقفية المكتوبة على ظهر النسخة، كما نقلها الأديب الفقيه أبو عبد الله محمد بن الحداد الوادي آشي ":[413]كان على ظهر النسخة الرائقة الجمال، والفائقة الكمال من **الإحاطة بتاريخ غرناطة** المُحَبَّسة على المدرسة اليوسفية، من الحضرة العلية، بخط قاضي الجماعة، ومُنَفِّذ الأحكام الشرعية المطاعة، صدر البلغاء، وعلم العلماء، ووحيد الكبراء، وأصيل الحسباء، الوزير الرئيس المعظّم يحيى بن عاصم ـ رحمة الله تعالى عليه ـ ما نصّه:... " [414]ثمّ يورد نصّ الحُجّة مبينا مكانة العلم وفضله وقيمة الكتاب **الإحاطة** ومنزلة مؤلفه" والشيخ الرئيس ذي الوزارتين أبي عبد الله بن الخطيب ـ رحمه الله تعالى ـ من أثر هذه الدولة النصرية..."[415]. ثمّ يتحدّث عن السلطان المُوقف، مبيّنا، أنّه أوقف هذا الكتاب مع غيره من الكتب الجيّدة" ممّا هو واحد في فنّه وفذّ في معناه، عَقَد في جميعها التحبيس على أهل العلم والطلبة بحضرته العليا هناك ليشمل به الإمتاع، ويعمّ به الانتفاع، والله تعالى ينفع بهذا القصد الكريم ويتولّى المُثوبة على هذا العقد الدسيم. وهذه النسخة في اثني عشر سِفْراً متقنة الخطّ والعمل، اكتتب هذا على ظهر الأوّل منها، وبتاريخ رجب الفرد من عام تسعة وعشرين وثمان مئة، عرف الله تعالى بركته بمنّه "[416].

---

(413) نفح الطيب، 7/ 102 ـ 103.

(414) نفح الطيب، 7/ 102 ـ 103. كذلك: لسان الدين بن الخطيب، عنان، 178.

(415) نفسه.

(416) نفح الطيب، 7/ 104 ـ 105.

ولم يكن الوقف مقصوراً على المؤسسات العلمية والمرافق الثقافية الموجودة داخل المدينة الواحدة، وإنّما ـ تبعاً لدوافع الوقف ـ يتعدّاه إلى المدن الأندلسية الأخرى، بل إلى خارج الأندلس من مناطق العالم الإسلامي، على اعتبار التوحّد والارتباط بين أجزائه، ويتكلّف المُحَبِّس إرسالها. ويتّضح لنا بأنّ عمليات الوقف هذه كانت تتمّ في حياة مُحَبِّسها، مؤلِّفاً كان أو غير مؤلِّف.

فيذكر المقّري في **نفحه** أنّ " لسان الدين ابن الخطيب " ـ رحمه الله تعالى ـ أرسل في حياته نسخة من الإحاطة إلى مصر، وَوَقَفَها على أهل العلم، وجعل مقرّها بخانقاه سعيد السعداء، وقد رأيت منها المجلد الرابع، وهذا نصّ وقفيته: الحمد لله وحدَه، وقف الفقير إلى رحمة الله تعالى الشيخ أبو عمر ابن عبد الله بن الحاج الأندلسي ـ نفع الله تعالى به ـ عهد موكّله مصنّفه الشيخ الإمام العلامة بركة الأندلس لسان الدين أبي عبد الله محمد بن الشيخ أبي محمد عبد الله بن الخطيب الأندلسي السَّلْماني ـ فسح الله تعالى في مدّته، وفتح لنا وله أبواب رحمته، ومنحنا وإياه من رفده وعطيته، وأسكننا وإياه أعالي جنته ـ جميعَ هذا الكتاب **تاريخ غَرناطة**، وهو ثمانية أجزاء، هذا رابعها، عن مصنّفه المذكور بمقتضى التفويض الذي أحضره، وهو أنّه فوّض إليه النيابة عنه في جميع أموره المالية كلّها، وشؤونه جميعها، والنظر في أحواله على اختلافها وتباين أجناسها، تفويضاً عاماً على العموم والإطلاق، والشمول والاستغراق، لم يستثنِ شيئاً مما تجوز النيابة فيه إلاّ أسنده إليه، وهو ثابت على سيدنا ومولانا قاضي القضاة يومئذ بثغر

الإسكندرية المحروس ـ أدام الله تعالى أيامه ـ كمال الدين، خالصة أمير المؤمنين أبي عبد الله محمد بن الربعي المالكي، ثبوته مؤرَّخ بثالث ذي الحجّة عام سبعة وستين وسبع مئة، وقفاً شرعياً على جميع المسلمين ينتفعون به قراءةً ونَسْخاً ومطالعة، وجعل مَقَرَّه بالخانقاه الصالحية سعيد السعداء، رحم الله تعالى واقفها وجعل النظر في ذلك للشيخ العلاّمة شهاب الدين أبي العباس أحمد بن حَجَلَة، حرسه الله تعالى، ثمّ من بعده لناظر أوقاف الخانقاه المذكورة، فلا يحلّ لأحد يؤمن بالله العظيم، ويعلم أنّه صائر إلى ربّه الكريم أن يبطله ولا شيئاً منه، ولا يبدله ولا شيئاً منه، فمن فعل ذلك أو أعان عليه فإنّما إثمه على الذين يبدّلونه، إنّ الله سميع عليم. ومن أعان على إبقائه على حكم الوقف المذكور جعله الله تعالى من الفائزين المطمئنين الذين لا خوف عليهم ولا هم يحزنون. وأَشْهَدَ الواقفُ الوكيلَ عليه في ذلك في الثاني والعشرين لشهر الله تعالى المحرّم عام ثمانية وستين وسبع مئة "[417].

ولعلّ هذا يشير إلى أنّ الوقفية كانت تكتب على كلّ جزء من أجزاء الكتاب، كما في المثال السابق، أو على الجزء الأوّل منه، كما في المثال قبله. وأنّ الكتب المُحَبَّسة كان يكتب عليها أحياناً، خاصّة التحبيس

(417) نفح الطيب، 7/ 105 ـ 106. كذلك: لسان الدين بن الخطيب، عنان، 180. خطط المقريزي، 4/273.

وأحمد بن حجلة هو: ابن أبي حجلة أحمد بن يحيى بن أبي بكر التلمساني (725 ـ 776هـ = 1325 ـ 1375م) له عدة مؤلفات منها: " ديوان الصبابة " الذي عارضه او جاراه او باراه ابن الخطيب انظر: أعلاه، 153).

الإفرادي[418]. ولعلّ هذا لا يشمل دوماً تحبيس مجموعات الكتب التي ربما كان ذلك يتمّ في كتاب منفصل، أو يذكر شفاهاً أمام مجموعة من الناس، بما يشبه الوصية، أو الوصية ذاتها.

لكن ابن الخطيب لم يقتصر في تحبيسه ذاك على **الإحاطة** بل شمَل بعضَ مؤلفاته الأخرى، منها كتاب **روضة التعريف بالحبّ الشريف**. ولدينا وثيقة في هذا حفظها لنا ابن خَلدون في مذكراته" **التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً** ". وهي رسالة كُتبت" في الثاني من جمادى الأولى من تمام تسعة وستين وسبع مئة"[419]، بعث بها إليه صديقه لسان الدين بن الخطيب، وممّا جاء فيها:" أنّ كتاباً رُفع إلى السلطان في المحبّة، من تصنيف ابن أبي حَجَلة من المشارقة، أشار الأصحاب بمعارضته، فعارضته، وجعلتُ الموضوع أشرف، وهو محبّة الله؛ فجاء كتاباً ادّعى الأصحابُ غرابة. وقد وجّه إلى المشرق صحبة كتاب **تاريخ غرناطة**، وغيره من تآليف. وتعرف تحبيسه بخانقاه سعيد السعداء من مصر؛ وانثال الناس عليه، وهو في لطافة الأغراب، يتكلّف أغراض المشارقة "[420]، وما يشير إلى أنّ ابن الخطيب أرسل هذه الكتب المُحَبَّسة إلى القاهرة جملة واحدة.

---

(418) انظر أيضا: بحث عن (العناية بالكتب وجمعها في إفريقية التونسية)، حسن حسني عبد الوهاب، مجلة معهد المخطوطات العربية (القاهرة، 1374هـ/1955م)، 1/1/ 85.

(419) التعريف بابن خلدون، ابن خلدون (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1370هـ/1951م)، 122.

(420) التعريف بابن خلدون، 120ـ 121. كذلك: لسان الدين بن الخطيب، عنان، 155ـ156، 186.

وظاهرة وقف أو تحبيس الكتب - مثل كثير من الظواهر المشار إليها - ليس مقصورة على الأندلس، بل شائعة عامة في العالم الإسلامي كافة. ولعلّه يحسن ذكر أمثلة لهذه الظاهرة من أجزاء العالم الإسلامي.

فأبو نصر أحمد بن يوسف السليكي المَنازي الكاتب (437هـ)"[421] كان من أعيان الفضلاء وأماثل الشعراء، وَزَرَ لأبي نصر أحمد بن مروان الكردي، صاحب ميافارقين وديار بَكر. .. وكان فاضلاً شاعراً كافياً، وترسّل إلى القسطنطينية مراراً وجمع كتباً كثيرة ثمّ وقفها على جامع ميافارقين وجامع آمد، وهي إلى الآن موجودة بخزائن الجامعين، ومعروفة بكتب المنازي "[422].

والحافظ أبو بكر أحمد بن علي بن ثابت الخطيب البغدادي (392ـ بغداد، 463هـ) صاحب **تاريخ بغداد** والمصنّفات الكثيرة " كان قد تصدّق بجميع ماله، وهو مئتا دينار، فرّقها على أرباب الحديث والفقهاء والفقراء في مرضه، وأوصى أن يتصدّق عنه بجميع ما عليه من الثياب، ووقف جميع كتبه على المسلمين، ولم يكن له عقب، وصنّف أكثر من ستين كتاباً، وكان الشيخ أبو إسحاق الشيرازي أحد من حمل جنازته "[423]. والحافظ الكبير محمد بن محمود محبّ الدين أبو عبد الله بن النجار البغدادي (578ـ 643هـ) صاحب المؤلفات والتاريخ " الذي ذيّل به على تاريخ الخطيب لبغداد واستدرك فيه على الخطيب، فجاء في ثلاثين مجلداً، دلّ على تبحّره

(421) العبر، الذهبي، 3/187. والمنازي نسبة إلى مناز جرد مدينة في أرمينية.
(422) وفيات الأعيان، ابن خلّكان، 1/ 143. الوافي بالوفيات، 8/ الورقة 131.
(423) وفيات الأعيان، 1/93.

في هذا الشأن وسعة حفظه، وقد نقلتُ منه تراجم عديدة في هذا الكتاب، رحم الله مصنّفه. وكان إماماً ثقة حجّة مقرئاً مجوّداً حلو المحاضرة كيّساً متواضعاً، اشتملت مشيخته على ثلاثة آلاف شيخ، ورحل سبعاً وعشرين سنة ... ووقف كتبه بالنظامية "(424).

ويورِد المثل التالي ليؤكّد هذه الظاهرة ويبيّن عمقها واعتياديتها، بل وتوفّر من يقوم برعاية عملية الوقف والإشراف عليها، ثمّ الإشارة إلى تنوّع عملية الوقف، حتى في مجال الكتب، كما تتعدّد في كلّ الأمور الأخرى.

فأبو صالح الحافظ المؤذن الصوفي أحمد بن عبد الملك النيسابوري (470هـ) محدّث نيسابور " كان عليه الاعتماد في الودائع، من كتب الحديث المجموعة في الخزائن الموروثة، عن المشايخ الموقوفة على أصحاب الحديث. وكان يصونها ويتعهّد حفظها، ويتولّى أوقاف المحدّثين من الحبر والورق وغير ذلك. وأذّن على منارة المدرسة البيهقية سنين، احتساباً ووعظاً. وكان يأخذ صدقات التجار والرؤساء ويوصلها إلى ذوي الحاجات، وإذا فرغ جمع وصنّف وأفاد. وكان حافظاً ثقة ديّناً خيّرا كثير السماع، وكتب الكثير بخطّه وعمل تاريخ مرو وكتب عن الخطيب، وكتب الخطيب عنه "(425).

وقد أشير إلى أنّ الوقف كان في كلّ القضايا التي تمسّ الحياة الاجتماعية، بكلّ أنواعها السلم والحرب، ومرافقها فردية أو عامة تخصّ النساء والرجال

---

(424) الوافي بالوفيات، الصفدي، 5/ 9ـ 10.

(425) الوافي بالوفيات، 7/ 156ـ 157.

والكبار والأطفال يقوم بها النساء والرجال[426]. إذن فهي ليست مقصورة على الكتب، والأمثلة على غيرها كثيرة جداً، **تحتاج إلى دراسة مستقلة توفر لها مادة علمية دسمة مضيئة**، لكن بالإمكان ذكر بعض الأمثلة للإشارة.

لقد كان خَلصة الزاهد، من أهل قرطبة، "بزازاً، ثم ترك التجارة و قسم ماله بين بنيه، و أسهم الفقراء منه. و حبَّس داره على أولاده. فإذا انقرضوا رجعت إلى المسجد المجاور لها، و يُعرف بمسجد اعتزاز"[1].

وأما أبو البركات أحمد بن عبد الوهاب بن يحيى بن السيبي (514)هـ الذي تولى تأديب أولاد المُسْتَظهِر، فقد "خَلَّف مالاً كثيراً. قيل إن مبلغه مئة ألف دينار، وأوصى بثلثي ماله. وأوقف أوقافا على مكة و المدينة. و كان كثير الصدقة يتفقد الفقراء بالحرمين و أهل العلم"[2].

و يتبين من عملية الوقف، التي لا تُقَدَّم لشخص بعينه أو ذي جاه أو رئيس أو سلطان أو غني، بل هي عامة، لا تحمل أية صفة شخصية، بل في موطن الانتفاع، لمن ينتفع بها، خدمة للمصلحة، خلال العصور المتعاقبة.

وهذا يشير إلى عمق هذا الارتباط الذي أنشأته العقيدة الإسلامية. و كان من ثمراته حب المسلمين و السعي لما ينفعهم من حيث كونهم مسلمين.

---

(426) راجع في الوقف وأنواعه: من روائع حضارتنا، مصطفى السباعي. 121ـ128.

(1) التكملة، 1/ 313(رقم : 846).

(2) الوافي بالوفيات، 7/ 162(رقم : 3095).

بل و دون معرفتهم في أي قطر من اقطاره. فكم هم الذين ينتفعون بوقف شخص لم يلتقوا به أو يعرفوا عنه أو سمعوا به، بل إن هذه هي الصفة الغالبة للوقف، و يدركها المُوقِف دون سعي لغيرة او تذمر فيه، بل يشعر بالانسجام الكامل و الطمأنينة الغامرة، لأن ذلك يقوده خطوة إلى رضا الله تعالى، و يضع لَبِنة تُعِين في قوة و بناء المجتمع المسلم.

الدراية والرِّواية

يرافق ظاهرةَ جمع الكتب ويزيد قيمتها ويجعل نفعها واقعياً ملموساً، ذلك المستوى الرفيع من الحفظ والاستيعاب والتمكّن، دراية ورواية[427].

وصفةُ الجمع بين الدِّراية والرِّواية وما يتعلّق بهما ضبطاً وإتقاناً هي الأخرى متوافرة لدى علمائنا المسلمين. وهي من مستلزمات العلم عندهم، فلقد ذُكر بأنّ" **العلم دِراية ورِواية، وخبر وحكاية**"[428]. وكانت الرواية سلاحاً لاكتساب الدراية ومقوّماً لها وأساساً تبنى وترتفع بها، ولذلك فمَن كان تَدَرَّع بالرواية تغدو عنده العناية بالدراية واضحة.

ذكر أبو زكرياء يحيى بن علي الخطيب اللغوي أنّه لما دخل دمشق (456هـ) كانت للخطيب البغدادي" حلقة كبيرة يجتمعون في بُكرة كلّ

---

(427) الدراية: التمحيص والتحقيق والتوثيق، والرواية: الحفظ والنقل. وكلتاهما ضروري وهما متلازمتان للمعرفة السليمة. أولاهما ثمرة الثانية وتقوم بها، والثانية قاعدة الأولى وعليها تقام.

(428) المرقبة العليا، النباهي، 178.

يوم فيقرأ لهم، وكنت أقرأ عليه الكتب الأدبية المسموعة، وكان إذا مرّ في كتابه شيء يحتاج إلى إصلاح يصلحه ويقول: أنت تريد مني الرواية وأنا أريد منك الدراية، قال: وكان إذا قرأ الحديث في جامع دمشق يُسْمَع صوتُه في آخر الجامع، وكان يقرأ معها صحيحاً "[429].

يذكر ابن بشكوال في **صلته** عن أبي مروان عبد الملك بن أحمد بن عبد الملك بن شُهَيْد (393هـ= 1002م) بأنّه كان" مَعْدِن الدّراية والرّواية "[430].

ومثله أبو إسحاق إبراهيم بن محمد بن إبراهيم الحضرمي المعروف بابن الشرفي (396هـ)، صاحب الشرطة والمواريث والصلاة والخطبة بالمسجد الجامع بقرطبة" كان معتنياً بالعلم، مُقَدَّماً في الفهم، من أهل الرواية والدراية. صحب الشيوخ وتكرر عليهم وسمع منهم. وكان متسنناً على هَدْيٍ وسَمْتٍ حَسَن "[431]. وقاضي الجماعة بقرطبة حَمْدِين بن محمد بن حمدين (547هـ)" كان ذا رواية ودراية، وعناية بالعلم "[432].

وكان أبو عبد الله محمد بن أحمد بن عبد الله بن محمد بن عليّ بن شريعة اللخمي الباجي (433هـ=1041م) من" أجلّ الفقهاء عندنا دراية ورواية، بصيراً بالعقود متقدّماً في علم الوثائق وعللها، وألّف فيها كتاباً حسناً، وكتاباً مستوعباً في سجلات القضاء، إلى ما جمع من أقوال الشيوخ المتأخرين، مع ما كان عليه من الطريقة المثلى وتوفيته العلم حقّه من الوقار

---

(429) الوافي بالوفيات، 7/ 195.

(430) الصلة، 355(رقم: 761). قارن: الحلّة السيراء، 1/ 239 ـ 240.

(431) الصلة، 88(رقم: 194).

(432) المرقبة العليا، 104.

والتصاون، والتزامه من ذلك ما لم يكن عليه أحد من شيوخه رحمه الله "[433]. والقاضي أبو القاسم صاعد الأندلسي (المَريَّة، 420ـ طُلَيْطُلَة، 462هـ) صاحب كتاب **طبقات الأمم**" كان من أهل المعرفة والذكاء والرواية والدراية "[434].

وأبو عثمان سعيد بن نصر بن أبي الفتح مولى أمير المؤمنين عبد الرحمن بن محمد [الناصر لدين الله]، من أهل قرطبة (395هـ =1004) "كان من أهل الرواية والاجتهاد والدراية بطلب العلم والحديث وتجويد الكتب والمقابلة لها وتصحيحها، يُلْجَأ إليه فيها ويُعارَض بها" [435] و" كان شيخاً فاضلاً، عالماً بالآداب، حسن الضبط لروايته، مُقَيِّداً لكتبه" . وأبو بكر بن برنجال (دانية، 536هـ) " كان من أهل الدراية والحفظ والرواية "[436]. وأبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن نبيل الرُّعَيْني(453ـ قرطبة، 518هـ)، من أهل قرطبة" كانت عنده رواية ومعرفة ونباهة، ودراية وتَقَدُّم في معرفة الشروط وإتقانها "[437]. وأحمد بن مالك بن سليمان المري (غَرناطة، نحو 480) كان من جلّة فقهاء غَرناطة" ذا دراية ورواية "[438].

وكان أبو بحر سفيان بن العاصي الأسدي (440ـ قرطبة، 520هـ) "من جلّة

---

(433) الصلة، 523 (رقم: 1144).

(434) الصلة، 237 (رقم: 540).

(435) الصلة، 210 (رقم: 468).

(436) الصلة، 585 (رقم: 1287).

(437) الصلة، 574 (رقم: 1266).

(438) الذيل والتكملة، 1/ 536 (رقم: 817).

العلماء وكبار الأدباء، ضابطاً لكتبه، صَدُوقاً في روايته، حسن الخطّ، جيّد التقييد. من أهل الرواية والدراية سمع الناس منه كثيرا "(439). والقاضي الشهيد محمد بن يحيى بن بكر الأشعري المالقي (673ـ طريف 741هـ) كان" ممّن جُمع له بين الدراية والرواية "(440).

وأورد ابن الأبار في **تكملته** عن أبي عمر أحمد بن هارون بن عات النّفْزي (542ـ 609) من أهل شاطبة وشهيد موقعة العقاب، أنّه كان" أحد الحفاظ للحديث، يسرد المتون والأسانيد ظاهراً، لا يخلّ بحفظ شيء منها. موصوفا بالدراية والرواية، غالباً عليه الورع والزهد، على منهاج السلف، يأكل الجَشِب، ويلبس الخَشِن، وربّما أَذَّن في المساجد، وله تآليف دالّة على سعة حفظه مع النظم والنثر"(441). وكذلك أبو عبد الله محمد بن مرزوق الحفيد (848هـ) فإنّه في الحديث"إليه الرحلة انتهت في رواياته ودراياته"(442). وأنّه" مستمرّ على الإرشاد والهداية، والتبليغ والإفادة والرواية والدراية والعناية "" (443). وكانت له بالعلم عناية تكشف به العماية، ودراية تعضّدها الرواية "(444). وأبو العبّاس أحمد بن القاضي بن أبي عزفة (633هـ)" برز علماً وعملاً ودراية ورواية "(445).

(439) الصلة، 230 (رقم: 527).

(440) المرقبة العليا، 141 . كذلك: نفح الطيب، 5/ 385ـ 387.

(441) التكملة، 1/ 101 (رقم: 262). كذلك: نفح الطيب، 2/602.

(442) نفح الطيب، 5/422.

(443) نفح الطيب، 5/423.

(444) نفح الطيب، 5/427.

(445) برنامج شيوخ الرعيني، الرعيني الإشبيلي، 42.

وذكر ابن بشكوال في **صلته** أن أبا جعفر أحمد بن عليّ الأنصاري(542هـ)، من أهل غرناطة" كان من أهل العلم والمعرفة والذكاء والفهم، كثير العناية بالعلم. من أهل الرواية والدراية "[(446)].

وأبو بكر محمد بن مروان بن زُهْر الإيادي الإشبيلي (طَلَبيرة، 422هـ)"كان متقناً للعلوم، فاضلاً، جامعاً للدراية والرواية " [(447)] متوسّعاً في الثانية[(448)]. وأبو الحسن علي بن أحمد الأنصاري(444ـ 528هـ) من أهل غرناطة"كان من أهل الرواية والإتقان والدراية مع الدين والفضل"[(449)]. كذلك كان أبو عبد الله محمد بن مالك الفهْري(511ـ شريش 592) من أهل شَرِيش" من أهل الرواية والدراية"[(450)].

أمّا أبو عمر عثمان بن أبي بكر بن حمود بن أحمد الصدفي (بعد 440هـ) فقد" عُنِيَ بالرواية وشهر بالفهم والدراية. يجمع إلى ذلك حسن الخلق وأدب النفس، وحلاوة الكلام ورِقّة الطبع "[(451)].

وهكذا كان يتمتّع علماؤنا بهذه المكانة التي استحصلوها بإدراكهم لمقتضيات المعرفة وشروط العلم، كما تَعَلَّموها وعَلِموها خلال تلك الأجيال

---

(446) الصلة، 82 (رقم: 179).

(447) نفح الطيب، 2/244. وفيات الأعيان، 4/ 437. الصلة، 514ـ 515 (رقم: 1122).

(448) انظر: الوافي بالوفيات، 5/16.

(449) الصلة، 425 (رقم: 915).

(450) التكملة، 552 (رقم: 1493).

(451) الصلة، 409 (رقم: 881).

الخبيرة. وقد امتاز الجِلّة من العلماء والمؤلّفين بالرواية، كما عُرِفوا بالدراية. وإن كان بعضهم غلبت عليه أَحَدُهما، واتّضح أمره فيها.

فأبو الوليد محمد بن عبد الله بن خيرة(489ـ 551هـ) من أهل قرطبة" كان من جِلّة العلماء الحفاظ متفنناً في المعارف كلّها، جامعاً لها، كثير الدراية واسع المعرفة، حافل الأدب"(452). وأبو عبد الله بن جُبَيْر قاسم الجُبيري (371هـ)" كان فقيهاً عالماً، حسن النظر... صدراً في أهل الشورى، وكان يجتمع عنده ويناظر عليه في الفقه، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية"(453). وأبو عبد الله محمد بن عاصم النحوي(332هـ) من أهل قرطبة" وكان من كبار الأدباء وعلمائهم، وكانت الدراية أغلب عليه من الرواية "(454). كذلك كان ابن رُشْد الحفيد (520ـ مراكش، 595هـ)" كانت الدراية أغلب عليه من الرواية "(455). والفقيه القاضي أبو عبد الله محمد عيسى بن المناصف(620هـ) كانت" عنايته بالنظر أغلب عليه من الرواية"(456). وأبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن عباس بن جوشن بن الحصار(351ـ 438) من أهل طليطلة" وعني بالرواية والجمع لها، والإكثار منها، فكان واحد عصره فيها، وكانت الرحلة في وقته إليه، وكانت الرواية

---

(452) الصلة، 593 (رقم: 1302). راجع طبعة العطار.

(453) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 369 (رقم: 1077).

(454) الصلة، 478 (رقم: 1034).

(455) التكملة، 2/ 554 (رقم: 1497).

(456) برنامج شيوخ الرعيني، 129.

أغلب عليه من الدراية. وكان ثقة فيها صدوقاً فيما رواه منها "[457]. وأبو عمر محمد بن عيسى اليَحْصُبي (559هـ) المعروف بابن الجبير من أهل لَوْشة (LOJA)عَمَل غَرناطة " كان من الأدباء النابهين، وكان ذا عناية بالرواية والتقييد "[458].

ومن غلبت عليه الرواية ليس بمهمل الدراية ولا كان يقوم بها دون توقيف. فالقاسم بن محمد بن أحمد الأَوْسي(575ـ 642هـ) " عُنِي طويلا أتمّ العناية بشأن الرواية واستكثر من الإفادة واشتهر بالضبط والإتقان وانقطع إلى خدمة العلم وتقييد الآثار وتخليد الفوائد والتواريخ، وتفنّن في المعارف"[459]. وابن مَضاء" كان مقرئاً مجوّداً محدّثاً مكثراً قديم السماع واسع الرواية عاليها ضابطاً لما يحدّث به ثقة فيما يأثر"[460].

لكن ربما السبب هو الاستكثار منها، فالقاسم بن محمد الأوسي ـ الذي مرّ ذكره ـ وُصف" بسعة الرواية وتمكّن الدراية "[461]. فأبو عمر أحمد بن أبي القاسم الباجي كان" شديد التحفّظ في أداء روايته. من أهل الثقة والصحة والجودة، وسلامة الباطن، نفعه الله"[462]. وأبو الخطاب أحمد بن واجب القيسي (بلنسية، 537ـ مراكش، 614هـ) وُصف بأنّه" عَدْلٌ ضابطٌ.

(457) الصلة، 330 (رقم: 704) . الحلل السندسية، 2/ 16.

(458) التكملة، 2/ 494 (رقم: 1367).

(459) الذيل والتكملة، 5/ 565ـ 566 (رقم: 1090).

(460) الذيل والتكملة، 1/ 217 (رقم: 291).

(461) الذيل والتكملة، 5/ 566.

(462) برنامج شيوخ الرعيني، 116.

وقد رَوَى عنه كثير من أشياخنا وأصحابنا؛ وهو مُتَّفق عليه في الثقة والضبط والمعرفة بالرواية "[463]. بل كان" حامل راية الرواية بشرق الأندلس "[464].

ولقد أُشيد ببعضهم بأنّ اهتمامهم منصبّ على الرواية، فعُرف أبو القاسم خلف بن أحمد الجراوي (475هـ) من أهل المرية" كان معتنياً بالعلم هواية له"[465]. وأبو محمد عبد الله بن سندور بن منتيل (قبل 500هـ) من أهل سرقسطة"كان معتنيا بالرواية ولقاء الشيوخ "[466]. وأبو عمر نصر بن عبد الله الغافقي(535ـ 633) "كان من أهل المعرفة بالفقه والرواية، ومن أهل الدين المتين"[467]. وأبو الحسن علي بن الفقيه أبي عبد الله محمد بن يحيى الغافقي الشاري فقد " أخذ كثيراً عن أعلام المشيخة، واعتنى بالرواية"[468]. ووصف قاسم بن أَصْبَغ بن أبي الأسود بن عبد الواحد المعروف بابن الملاح، من أهل باجة بأنّه" كان من أهل الرواية والحديث. وكان أديباً بليغ اللسان جيد القلم "[469].

بل لقد وُصف بعضهم بأنّه" راوية" أو بفلان " الراوية" لاشتهاره بها وسعة

---

(463) برنامج شيوخ الرعيني، 48.

(464) التكملة، 1/ 106 (رقم: 276).

(465) الصلة، 171 (رقم: 389).

(466) التكملة، 2/ 808 (رقم: 1973).

(467) برنامج شيوخ الرعيني، 161.

(468) برنامج شيوخ الرعيني، 74.

(469) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 367 (رقم: 1071).

إلمامه وجلالة اهتمامه والأمثلة كثيرة. فقد وُصِف أبو عبد الله محمد بن عبد العزيز بن سعادة (516ـ شَاطِبَة 614هـ) بـ" الشيخ الراوية "(470). وأبو القاسم محمد بن عامر بن فرقد (563ـ 627هـ (وصف بـ" الشيخ الصَّيِّن الراوية "(471). وأبو عمر سالم بن صالح المالِقي (620هـ)" الشيخ الأديب الراوية، المقيّد الفاضل " (472) وهناك أمثلة أخرى ممكن الرجوع إليها(473).

ولعلّ" الرواية " هنا وفي أماكن أخرى تعني رواية الحديث النبوي الشريف، وليس هي بالضرورة دوماً كذلك، ما لم تكن هنالك قرينة كالحالة السابقة. وكان كذلك أبو عمر أحمد بن يحيى بن أحمد بن سُمَيق بن محمد بن عمر بن واصل بن حرب بن اليُسْر بن محمد بن علي من أهل قرطبة (451هـ) الذي " عُنِي بالحديث وكُتُبِه وسَماعه وروايته وجمعه" (474) وأبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبد الرحمن بن عثمان بن سعيد بن عبد الله بن غَلَبون الخَوْلاني من أهل قرطبة المتوفى سنة 448هـ الذي تلقّى العلم عن شيوخ كثيرين" وكتب العلم عنهم. وكانت له عناية كثيرة بتقييد الحديث وجمعه وروايته ونقله. وكان ثقة فيما رواه ثبتاً فيه، مكثراً محافظاً على الرواية. وكان فاضلاً ديّناً، متصاوناً، متواضعاً "(475).

---

(470) برنامج شيوخ الرعيني، 165.

(471) برنامج شيوخ الرعيني، 134.

(472) برنامج شيوخ الرعيني، 105.

(473) انظر: برنامج شيوخ الرعيني، 14، 79، 121.

(474) الصلة، 57(رقم: 119).

(475) الصلة، 536(رقم: 1173).

و" الرواية " تشير في أحيان إلى رواية العلوم بأنواعها، والتي يكون الحديث الشريف منها. فقد كان أبو عمر أحمد بن سعيد المَعافري البَجّاني(459هـ)" من أهل العناية بالرواية وسماع العلم "(476). وَوَصَف صاحبُ **التكملة** أبا جعفر أحمد بن محمد بن يونس من أهل مَرْبِيطِر بنَصِّ العبارة السابقة نفسها(477). وكان مثله أبو عمر أحمد بن عبد القوي بن عبد المعطي البَطَلْيَوْسي " ذا عناية بالرواية "(478). كما كان أبو محمد عبد الله بن حيدرة بن مُفَوَّز المَعافري الشاطبي" عريق البيت في العلم والنباهة ذا عناية ورواية "(479). وأمّا أبو جعفر أحمد بن محمد بن عامر السكسكي من أهل قرطبة فقد "كان من أهل الأدب حسن الخطّ، جيّد الضبط، راوية للأشعار، معدوداً من النبهاء "(480). وأبو القاسم سلمة بن سعيد بن سلمة الأنصاري(406هـ) من أهل إسْتِجّة (ECIJA) فقد" كان حافظاً للحديث يُملي من صدره، يشبه المتقدّمين من المحدّثين. وكانت روايته واسعة، وعنايته ظاهرة، ثقة فيما نقل وضبط "(481). وإنّ أبا الحسن محمد بن عبد الرحمن بن إبراهيم بن يحيى بن مسعود (543هـ) المعروف بابن الوراق، وصاحب الصلاة بجامع قرطبة "كان ديّناً فاضلاً معتنياً بتقييد العلم والآثار

---

(476) التكملة، 1/ 19(رقم: 40).

(477) التكملة، 1/ 53 (رقم: 150).

(478) التكملة، 1/ 22 (رقم: 48).

(479) المعجم، ابن الأبار، 218 (رقم: 193).

(480) التكملة، 1/ 41 (رقم: 117).

(481) الصلة، 224 (رقم: 513).

جامعاً لها حسن النقل لجميعها، جميل الخطّ والوِراقة، ثقة ثَبْتاً، طويل الصلاة كثير الذكر لله تعالى "[482].

وقد يُوصَف أحدُهم بأنّه" من أهل العناية والرواية" ، كما أورده ابن بَشْكُوال في الصلة [483] عن أبي محمد عبد الله بن عُبيد الله بن وجيه بن عبد الله الكَلاعي الشَّقُنْدي من أهل قرطبة. وكذلك الحال مع أبي القاسم محمد بن محمد بن مسرور الأُموي الصيدلاني من أهل قرطبة(391هـ) حيث" كانت له عناية ورواية "[484].

وقد تردّدت هذه الصفة أو مثيلاتها بألفاظ متعدّدة تتّسع جوانبها لكلّ هذه المعاني، لتشمل تفصيلاتها ومستلزماتها من الصفات العلمية الواسعة الأطراف الغنية الأهداف. كأن يكون أحدهم: من أهل البصر والمعرفة والإتقان والتيقظ متحققاً، ومن أهل العلم والبلاغة [485] والصلاح، ومن أهل الفهم والبراعة والنباهة والتقدّم والرياسة في العلم والاشتغال فيه والقِدَم في طلبه[486]. و" متقدّماً في الفهم، معروفاً بالثقة والخير، قديم الطلب للعلم" "[487]كان شيخاً فاضلاً عاملاً ذكياً قديم الصلاح والعناية بطلب

(482) الصلة، 591 (رقم: 1298).

(483) الصلة، 248 (رقم: 563).

(484) الصلة، 479 (رقم: 1039).

(485) راجع مثلا: الصلة، 19 (رقم: 32).

(486) راجع مثلا: الصلة، 170 (أرقام: 385 ـ 387).

(487) الصلة، 517 (رقم: 1127). جاء ذلك في وصف أبي بكر محمد بن المغيرة بن عبد الملك (425هـ) من أهل قرطبة.

العلم، ثابت الأدب، ضابطاً لما نقل "[488] و" من أهل العلم والذكاء والحفظ والفهم ... الحافظ المتبحّر الراوية الطويل الهجرة في طلب العلم "[489] و"معروف السلف بالنباهة والعلم "[490] ووُصف " بالتيقظ والتحفّظ والورع والنزاهة "[491].

الورع والاستقامة

وكذلك كان شأن العلماء وعموم أهل العلم التخلّق بصفات أخرى، كأن يوصف بأنّه من أهل الدين والورع والفضل والنزاهة والعفّة. وقد مرّت بنا نصوص في هذا الشأن. كما جاء في وصف أبي عمرو الداني (444هـ)، فقد: " كان حسن الخطّ جيّد الضبط من أهل الحفظ والعلم والذكاء والفهم، متفنناً بالعلوم جامعاً لها معتنياً بها. وكان ديّنا فاضلا، ورعا سَنِيّاً "[492]. وورد مثل ذلك عن الحُمَيْدي الحافظ الأندلسي أبي عبد الله محمد ين فَتُّوح بن عبد الله بن حُمَيْد (بغداد، 484هـ)، وهو تلميذ وصاحب ابن حزم الأندلسي (456هـ). كان الحُمَيْدي " إماماً من أئمة

(488) الصلة، 517 (رقم: 1128). حين الحديث عن أبي القاسم محمد بن عبيد الله ابن محمد البناني المعمر (424هـ) من أهل إشبيلية.

(489) نفح الطيب، 2/ 61. جاء ذلك في وصف الحافظ أبي عبد الله محمد بن عمر ابن يوسف الفخار القرطبي (419هـ).

(490) التكملة، 1/ 303 (رقم: 826). حين الحديث عن أبي القاسم خلف بن محمد بن خلف بن سليمان بن خلف بن محمد بن فتحون (557هـ) من أهل أوريولة.

(491) التكملة، 1/ 303.

(492) الصلة، 406 (رقم: 876) كذلك: نفح الطيب، 2/ 136. أعلاه، 34، 121.

المسلمين في حفظه ومعرفته وإتقانه وثقته وصدقه ونبله وديانته وورعه ونزاهته، حتى قال بعض الأكابر ممّن لقي الأئمّة: لم تَرَ عيناي مثل أبي عبد الله الحُمَيْدي، في فضله ونبله ونزاهة نفسه وغزارة علمه وحرصه على نشر العلم وبثّه في أهله، وكان وَرِعاً ثقة "(493).

وهكذا كانت تذكر لأحدهم كلّ صفة رغم التفاوت فيها وظهور واحدة أو أكثر على غيرها، يُعْرَف بها أو تَغْلِب عليه. فذكر صاحب **الصلة** (494) عن أبي بكر خازم بن محمد بن خازم المخزومي من أهل قرطبة المتوفى سنة 496 بأنّه" كان قديم الطلب وافر الأدب وهو كان الأغلب عليه". وكذلك أبو عبد الله محمد بن أدهم بن محمد بن عمر بن أدهم القاضي(427هـ)، من أهل جَيَّان (JAEN) كان قديم العناية بطلب العلم، متصرّفا في فنونه، مثابراً عليه. وكانت علوم الآداب أغلب عليه وروايته كثيرة عن شيوخ جِلَّة"(495).

وقد يَرِد هذا الوصف بعبارات أخرى تشير إلى التقدّم، والاهتمام الأكثر إلى علم من العلوم. مثلما جاء عن أبي أحمد جعفر بن مُفَرِّج بن عبد الله الحضرمي من أهل إشبيلية (SEVILLA,SEVILLE) حيث" كان متقدّماً في علم الطب، مطبوعاً فيه، وذا علم في الحساب وفنونه "(496). وكذلك أبو

---

(493) نفح الطيب، 2/ 113. كذلك وفيات الأعيان، ابن خلّكان، 4/ 282. أعلاه، 143 ,148 .

(494) الصلة، 180(رقم: 412). (ج)، 1/ 286(416).

(495) الصلة، 519(رقم: 1133). (ج)، 2/ 758(1141).

(496) الصلة، 129(رقم: 296).

عبد الله جعفر بن محمد بن مكي بن أبي طالب بن محمد بن مختار القيسي اللغوي (535هـ) من أهل قرطبة الذي" كان عالماً بالآداب واللغات ذاكراً لهما، متفنناً لما قَيَّده منهما ضابطاً لجميعها، عني بذلك العناية التامة، وجمع من ذلك كتباً كثيرة، وهو من بيئة علم ونباهة، وفضل وجلالة"[497].

وقد تُذْكَر لأحدهم صفات أخرى ذات أهمية، وليست من صلب الأسباب العلمية ومقتضياتها الأساسية، أي اكتساب العلم ومعرفته والتحلّي بفضائله. وتعتبر متمِّمَة مُجَمِّلة بجانب الصفات العلمية، وقد تكون من مستلزماتها الجانبية، كأسلوب المعاملة وخفّة الروح.

فالقاضي الإشبيلي أبو بكر بن العربي (468-543هـ) قد جمع إلى الصفات العلمية ومتطلّبات المعرفة وسمت العلماء والحرص على نشر العلم " وكان من أهل التفنّن في العلوم والاستبحار منها والجمع لها، متقدما في المعارف كلها، متكلما في أنواعها، نافذا في جميعها، حريصا على أدائها ونشرها وثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن العشرة ولين الكنف، وكثرة الاحتمال وكرم النفس، وحسن العهد، وثبات الوعد "[498]. من أمثال أبي عبد الله محمد بن يوسف بن سعادة (496-565هـ) الذي رحل في طلب العلم سنوات في الأندلس والمشرق" وقد حصل في رحلته علوماً جمّة ورواية فسيحة "[499]،

(497) الصلة، 135 (رقم: 297).

(498) الصلة، 591 (رقم: 1297). (ج)، 3/ 856 (1305).

(499) نفح الطيب، 2/ 159.

ووُصِف " بالتفنّن في العلوم والمعارف، والرسوخ في الفقه وأصوله، والمشاركة في علم الحديث والأدب "(500). ورَوَى المَقَّري في **نفحه** بأنّه كان صليباً في الأحكام، مقتفياً للعدل حسن الخَلْق والخُلُق، جميل المعاملة لين الجانب، فَكِه المجالسة، ثَبْتاً، حسن الخط، من أهل الإتقان والضبط " (501).

والحكيم الطبيب أبو الفضل عبد المنعم بن عمر الغساني الجُلياني(502) (603)هـ صاحب المؤلفات الكثيرة(503). لقد " كان أديباً فاضلاً، له شعر مليح المعاني، أكثره في الحكم والإلهيات وآداب النفوس والرياضيات. وكان طبيباً حاذقاً، وله رياضات ومعرفة بعلم الباطن، وله كلام مليح على طريق القوم، وكان مليح السمت، حسن الأخلاق، لطيفاً، حاضر الجواب "(504).

أمّا القاضي أبو محمد قاسم بن أحمد بن محمد بن عثمان بن عباس الطليطلي المعروف بابن أرفع رأسَه(314ـ393هـ) فقد " كان كريم الأخلاق أديب اللقاء كثير المزاح، مسارعاً إلى الإصلاح بين الناس "(505).

وعن أبي عمر أحمد بن يحيى بن أحمد بن سميق (372ـ451هـ) فقد ذَكَر صاحبُ **الصلة** بأنّه " كان مليح الخبر طريف الحكاية "(506). وأمّا

---

(500) نفسه.

(501) نفح الطيب، 2/ 159ـ 160.

(502) جُلِيانة (JULIANA) : قرية من أعمال غَرناطة.

(503) نفح الطيب، 2/ 614. الذيل والتكملة، 5/ 1/ 57.

(504) نفح الطيب، 2/ 635.

(505) تاريخ علماء الأندلس، 1/ 371 (رقم: 1083).

(506) الصلة، 58(رقم: 119).

العلامة ذو الفنون علم الدين القاسم بن أحمد المريني اللورقي (575 -661هـ)، والذي ترك بعض المؤلفات "وكان مليح الشكل حسن البزّة"[507].

خلق العلماء

كلّ ذلك يزيّنه الخلق الجميل ويلفّه الطبع النبيل. فللعلم أخلاق، وكذا كان علماؤنا رحمهم الله تعالى. لقد كان ابن الفرضي "حسن الصحبة والمعاشرة، حسن اللقاء"[508]. ومثل ذلك ذكر ابن بشكوال عن عمر بن عبيد الله بن يوسف بن عبد الله بن يحيى بن حامد الذهلي ويعرف بالزهري (454هـ= 1062م) من أهل قرطبة، وصفه بأنه كان "جامعا للكتب مكثراً في الرواية"، كما "كان رجلاً خيّرا، متصاونا، ثقة فيما رواه ضابطا له، قديم الطلب جمع كتباً ورواها"[509].

وكانوا يوصفون أيضاً بـ"النباهة والنزاهة". فيذكر ابن الأبّار في "التكملة"[510] عن أبي محمد عبد الله بن عَميرَة بن طريف بن أشكُورنُه الأَزْدي، من أهل مرسية(563هـ= 1167م)، بأنّه "كان: شيخاً فاضلا جليلا متواضعاً، من أهل النباهة والنزاهة، تخيّره أهل بلده للإمامة بهم، لما كان عليه من حسن السمت وبراعة الهَدْي وصدق الخشوع وصَمْت الإخبات

(507) نفح الطيب، 2/ 137.

(508) الصلة، 252 (رقم: 572)

(509) الصلة، 400 (رقم: 862).

(510) التكملة، 2/ 842 (رقم: 2048). وعن أمثلة أخرى انظر: التكملة، 1/ 303 (رقم: 826)، 2/ 913 (رقم: 2142).

وسلامة الباطن. فأقام على ذلك حياته كلّها ". فلقد كان أبو علي الغساني (498هـ) من جهابذة المحدّثين، اعتنى بعلوم مختلفة" وجمع من ذلك كلّه ما لم يجمعه أحد في وقته "[511]. وكان موصوفاً "بالجلالة والحفظ والنباهة والتواضع والصيانة "[512].

وذلك أيضاً مع الاتصاف بصفات أخرى، تجعل منهم رواداً وملاذاً ونماذج للإنسانية رفيعة، كرعاية الخير وإشاعة المحبّة والصلابة في الحقّ، الذي طالما يصفون به الشخص بأنّه كان" **صليباً في الحقّ** "[513]. واستعمل الأندلسيون هذا المصطلحَ، الذي نجده شائعاً لديهم، ولم أجده في غير المؤلفات الأندلسية. ومعروف أنّ لأهل الأندلس بعض المصطلحات والعبارات التي اختصّوا بها. كما ذكر ابن بشكوال عن أبي الحسن عبد الرحيم بن محمد ابن قاسم النحوي المقرئ (543هـ = 1149م) من أهل مدينة الفَرج، بأنّه" كان من أهل المعرفة والفهم، والذكاء والحفظ، قويّ الأدب، كثير الكتب. وكان ديّناً فاضلاً خيّراً كثير الصلاة صاحب ليل وعبادة، كثير البكاء حتّى أثّر ذلك بعينيه "[514].

وهذه المعاني كانت متلازمة ومتناسبة العلمية مع طبيعة المعرفة والوجهة التي توجّهوا فيها، وليس مِن أيٍّ مِن هذه الصفات دخيل. فأبو سعيد فرج

---

(511) الصلة، 143 (رقم: 329). كذلك: تذكرة الحفاظ، الذهبي، 4/1234.

(512) الصلة، 143.

(513) انظر مثلا الصلة، 473. نفح الطيب، 2/ 159. أزهار الرياض، 3/156. التكملة، 1/301، 2/ 477 (رقم: 1313).

(514) الصلة، 389 (رقم: 837).

ابن قاسم بن أحمد بن لبّ التّغلبي (701-782هـ) غرناطي "من أهل الخير والطهارة والذكاء والديانة وحسن الخلق "[515].

والأمثلة على كلّ ذلك أكثر من الكثيرة[516]، بل هي القاعدة العامة. لكن العناية هنا بذكر نماذج من العلماء الذين وردت الأخبار عنهم (بصفات علمية)، ومن جماعي الكتب والعناية بها والتأليف فيها.

كانت لهؤلاء صفات متوافرة لديهم، جعلت لهم سمتا خاصا مميزا، ألبسهم إياه الإسلام في ذلك الجوّ العلمي البليل المهيئ للإنبات. تلك سمات كانت علامة لازمة مُلازمة، وهكذا كان الآخرون. بل وجدنا أن هؤلاء العلماء، مع التقوى والفضل والمكانة العلمية، كانوا زاهدين. من أمثالهم أبو حفص عمر بن سهل بن مسعود اللخمي المقرئ(1050 م = 442هـ) من أهل طليطلة. كان عالماً وحافظاً" خفيف الحال قليل المال، قانعا راضيا، رحمه الله"[517].

فلم يطمعوا إلاّ بالعلم، أخذاً وعطاءً، ينفقونه بسخاء كما أنفقوا من

---

(515) نفح الطيب، 5/511.

(516) انظر مثلا: الصلة، 63، 162، 165، 169، 439، 440، 471، 491، 571، 573، 576، 589، 591. التكملة، 2/ 831. تاريخ علماء الأندلس، 1/298 (رقم: 883) . نفح الطيب، 2/136، 221، 425، 630، 635، 663. 4/334، 5/159، 194، 420. بغية الملتمس، 486. وبها اشتهر علماؤنا خلال القرون التي بهذه الصفات النفسية العالية.

(517) الصلة، 399(رقم: 860) . كذلك : جذوة المقتبس، 301. الصلة، 447-448، 471، 591. بغية الملتمس، 194 . نفح الطيب، 2/234.

أجله وللناس المال[518]. **ولعلّ مَن كان بالعلم كريماً فهو لما سواه من الخير أكرم. وتلك أمور امتازت بها حضارتنا الإسلامية، غِراس الإسلام.** بل إنّ منهم الذي دعاه هذا الخلق والالتزام إلى التصدّي لكلّ أنواع الخدمات وتحمل الصعوبات وتولي المسؤوليات والأخذ بالنفس إلى بذل ما عندها، بل الإقبال على سوق الكتاب والتسابق إلى الشهادة كما مرّ بنا[519]. فما كانوا تجاراً ولاطلاّبَ وجاهة، بل أخياراً ثقات وصوراً وضّاءة أشرقت منيرة، صَدَقت في علمها الذي ارتوت منه نفوسهم. فأنبتتهم كراما رأوا العمل ثمرة العلم والإيمان قواماً

فالعلم لا يُكتم بل يُقدَّم للناس، بحرص مخلص، قبل أن يسألوه ومن غير أن يطلبوه. فما عَرَفت أخلاقُ علمائنا كتماناً لعلمهم واكتنازاً لمعرفتهم والفضل الذي يملكون. وما كان البخل به لهم شنْشنة، رغم ما كانوا يبذلونه في تحصيله ويجهدون في السعي من أجله.

وبينما كان كلّ ذلك وأمثاله يجري في الأندلس " كانت أوربا النصرانية لا تعرف من العلوم إلاّ مبادئ بسيطة مقصورة بالأكثر على رجال الدين"[520]. حتى إنّ ملك فرنسا شارل الخامس المعروف بالحكيم(782هـ = 1380م) " لم يستطع أن يجمع في مكتبة فرنسا الملكية أكثر من تسع مئة مجلد، يكاد ثلثها يكون خاصاً بعلم اللاهوت "[521].

---

(518) انظر مثلا: نفح الطيب، 2/ 221.

(519) انظر: أعلاه، 25 , 28 , 88 , 125 , 127 , 160

(520) تأريخ العرب (مطوّل)، فيليب حتي، 2/ 633.

(521) حضارة العرب، غوستاف لوبون، 434.

لقد ذكر علماء التراجم - بإنصاف وثقة - صفات مترجَميهم، حتى تلك التي لا تحمد في الإفراط والتفريط أو التأخّر والإخفاق، بجانب غيرها من الصفات لمن كانت له من بعضها. فقد ذكر ابن بشكوال في **الصلة** عن أبي عمر أحمد بن عبد العزيز بن فرج بن أبي الحُباب النحوي من أهل قرطبة (400هـ) أنّه" كان مِن جِلّة شيوخ الأدب، عالماً باللغة والأخبار، حافظاً ضابطاً لها، وكان فيه صلاح وخير، وكانَ يُنْسَب إلى غَفْلة، إلاّ أنه كان ثقة ضابطاً رحمه الله ".[522] وأمّا أبو عمر أحمد بن محمد بن عمر الصدفي الزاهد المعروف بابن أبي جُنادة من أهل طُلَيْطُلة(450هـ) فقد كان" من أهل العلم، والعمل وترك الدنيا، فاراً بدينه، **ملازماً لثغور المسلمين**، وكان كثيراً ما يؤكِّد في الرواية، ولا يرى لأحد النظر في مسألة ولا حديث حتى يروي ذلك. وكان حسن الضبط لكتبه، متحرياً، لم يُبُحْ لأحد أن يسمع منه، ولا رَوَى لأحد شيئاً من كتبه "[523].

وأمّا أبو جعفر أحمد بن عبد الله بن شانَج المطرز (514هـ) من أهل قرطبة، فقد كان" من أهل المعرفة بالآداب واللغات ومعاني الأشعار، حافظاً لها معتنياً بها، ذاكراً لها، كتب بخطّه علماً كثيراً؛ ولم يكن بالضابط لما كتب، على أدبه ومعرفته، ولا أَعْلَمُه حَدَّث إلاّ باليسير، على وجه المذاكرة. وكان عسير الأخذ، نكد الخلق "[524]. وأبو بكر خازم بن محمد بن خازم المخزومي (410ـ496هـ) من أهل قرطبة كان" قديم الطلب وافر الأدب ...

(522) الصلة، 19(رقم: 35).
(523) الصلة، 59(رقم: 121).
(524) الصلة، 75(رقم: 165).

ولم يكن بالضابط لما رواه، وكان يخلط في روايته "[525] ومثله أبو الحسن خليص بن عبد الله بن أحمد العبدلي (513هـ) من أهل بلنسية فقد" كتب بخطّه علماً كثيراً، ولم يكن بالضابط لما كتب"[526]. وهذا يدخل في باب علم الجرح والتعديل.

والعلاّمة الشهير الرئيس أبو محمد عبد المهيمن الحضرمي السبتي (676-749هـ)، رغم أنّ " له في الآداب الراية الخافقة، والعقود المتناسقة، ومشيخته حافلة، تزيد عن الإحصاء، وشعره منحطّ عن محلّه من العلم والشهرة، وإن كان داخلاً تحت طور الإجادة "[527]. وأبو عبد الله محمد بن علي بن ياسر الجَيّاني (563هـ)، فرغم علمه وفضله وأنّه أوقف كتبه، إلاّ أنّه" كان فيه عسر في الرواية والإعارة معا"[528]. ومحمد بن أحمد بن سلامة المعروف بابن الزراد (305هـ) من أهل قرطبة فـ" لم يكن بالضابط لكتبه "[529].

ومحمد بن عمر بن لُباب (225-314هـ) من أهل قرطبة" كان إماماً في الفقه، مقدّماً على أهل زمانه في حفظ الرأي والبصر في الفتيا ... ولم يكن له علم بالحديث ولا معرفة لشيء منه. وكان غير ضابط لروايته. يحدّث بالمعاني لا يراعي اللفظ. **وكان حافظاً لأخبار الأندلس مليئاً بها** "[530]. وأبو

---

(525) الصلة، 180(412). أعلاه، 152.

(526) الصلة، 180- 181(رقم: 413).

(527) نفح الطيب، 5/ 465.

(528) نفح الطيب، 2/ 157.

(529) تاريخ علماء الأندلس، 2/26(رقم: 1165).

(530) تاريخ علماء الأندلس، 2/35(رقم: 1189).

العباس أحمد بن محمد الأنصاري ابن البراذعي " كان مقرئا، وله فهرسة، منها نقلت أسماء رجاله، ولم يكن بالضابط "(531).

وذكر ابن الأبّار أنّ أبا العباس أحمد بن عبد الرحمن التُّجيبي (488ـ 563هـ) من أهل مُرْسِيَة وصاحب الأحكام بها وأثنى عليه علما وفضلا وسيرة ونزاهة، مدّة تولّيه الشورى والقضاء، إلاّ أنّه وصفه بأنه " رديء الخطّ جداً "(532).

نموذج من المكتبات الخاصة

ويظهر من ذلك أنّ المكتبات الخاصة في الأندلس كانت منتشرة جدا، وهي تفوق أضعافاً عدد المكتبات العامة. إنّ من هذه المكتبات الخاصة ـ لكثرة محتوياتها، من الكتب وفرط العناية بها ـ ما كانت لها مبانٍ خاصة بترتيب محكم.

وتُذْكَر مِن هذه المكتبات الخاصة ـ مدّة الخلافة ـ مكتبة بني فُطَيْس، وكبيرهم قاضي الجماعة بقرطبة الوزير أبو المُطَرِّف عبد الرحمن بن محمد بن فُطَيْس(348ـ 402هـ = 960ـ 1012م)(533)، **الذي شيّد مبنىً خاصاً لها و" وضع تصميمه بحيث يَسْمَح برؤية جميع خزائن الكتب من مكان معيّن**، وطلى مدخل المكتبة وسقفها وجدرانها وشرفتها والوسائد الوثيرة

---

(531) التكملة، 1 / 68(رقم: 180).

(532) التكملة، 1 / 71(رقم: 188).

(533) انظر: أعلاه، 18، 33.

والأبسطة باللون الأخضر"[534]. وفي ذلك يقول أبو الحسن النُّباهي في كتابه" **المَرْقَبَة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفُتْيا** " ، حين يترجم للقاضي أبي المُطَرِّف بن فُطَيْس بأنّه " كان له بداره مجلس عجيب الصنعة، حسن الآلة، مُلَبَّس كلُّه بالخضرة: جدرانه وأبوابه وسقفه وفُرُشُه وستوره ونمارقه. وكلّ ذلك متشاكل الصفات، قد ملأه بدفاتر العلم ودواوين الكتب، التي ينظر فيها ويخرج منها. وبهذا المجلس كان أُنسه وخَلْوته - رحمه الله! "[535].

وقد عَيَّن لهذه المكتبة أميناً أو حافظاً هو من أفاضل الأدباء، وجعل لها فهارس منظّمة. وعمل فيها مجموعة من النساخين، فكان" له ستّة ورّاقين ينسخون له دائماً، وكان قد رتّب لهم على ذلك راتباً معلوماً. وكان متى علم بكتاب حسن عند أحد من الناس طلبه للابتياع منه وبالغ في ثمنه. فإن قدر على ابتياعه، وإلاّ انتسخه منه وردّه عليه"[536]. وكان لا يسمح بسهولة لإعارة كتبه لأحد خارج المكتبة، و" إذا سأله أحد ذلك وألحف عليه أعطاه للناسخ فنسخه وقابله ودفعه إلى المستعير فإن صرفه وإلا تركه عنده "[537]. وكانت هذه المكتبة ضخمة إلى حدّ كبير، إذ حين توفي أبو

---

(534) مجلّة معهد المخطوطات العربية، بحث ربيرا، عن: المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، 4/1/90. لكن لم يتّضح مصدر ربيرا في هذا الوصف، فهل استنتجه من النصوص، وأين هي؟

(535) المرقبة العليا، 88. ربما استنتاج ربيرا السابق كان من هذا النص، ولا بأس.

(536) الصلة، 310(رقم: 682). كذلك: الديباج المذهب، 150.

(537) الصلة، 311.(كذلك: مجلة معهد المخطوطات العربية، بحث ربيرا، 4/1/90)

المطرّف بن فُطَيْس " اجتمع فيها من الثمن أربعون ألف دينار قاسمية، يبلغ صرفها ثمان مئة ألف درهم "(538).

بل ليبدو أنّه من المألوف أن يكون الوراقون على درجة عالية من المعرفة والعناية بالعلم. وقد يكون ذلك من المقوّمات الاجتماعية والعلمية والمهنية لمهنتهم يومها، في ذلك المجتمع الإسلامي المتعلّم الراقي. وإن كان هو أكثر مما يتطلّبه أداء عملهم في النسخ، وإذا كان هذا يجعل أداء عملهم أجود. ولعلّ هذا شبيه لمشرف الطباعة أو المصحّح، حين يكون ذا ثقافة عالية أو حامل شهادة، تؤهّله العناية والدقّة في الطبع مع التصويب والاستدراك، لما قد يقع في المسودّة من الخطإ، سهواً أو بدونه. وهو مستوى لم نألفه عموما في الطباعة في الأقل، وقل مثل ذلك في الكتبيين، وهم متفاوتون.

كان محمد بن عيسى بن محمد الحضرمي الوراق، أحد النساخين عند أبي المطرّف بن فُطَيْس، قاضي الجماعة بقرطبة، المذكور آنفا(539). ولقد كانت للحضرمي " عناية كثيرة بسماع العلم وتقييده وروايته، وكان رجلا صالحاً ثقة. وكان حسن الخط جيّد الضبط. وكان ينسخ للقاضي الراوية أبي المطرّف بن فُطَيْس كتبه، ويقيّد مقاله "(540). وكان هذا الحضرمي الوراق، إمام مسجد بني فُطَيْس في قرطبة، وسكناه بدربهم. وكان القاضي ابن فُطَيْس يتلقّى عنه. " ويحدّث عنه ابن فُطَيْس في كتبه فيقول: حدّثنا

---

(538) الديباج المذهب، 150؛ العبر، الذهبي، 3/ 78. الأعلام، 3/ 325.

(539) أعلاه، 30, 47, 49, 178 وبعدها.

(540) الصلة، 481.

الحضرمي، يعني إمامه هذا "[541]. **وهذا دليل التواضع في طلب العلم مع الصراحة. وهي ظاهرة أخرى**، نجدها في المجتمع المسلم، فلا يأنف أحد في أخذ العلم، ممّن هو أدنى منصباً أو مكانة علمية، ما دام عنده بأمرٍ ما دراية.

ولم يُحْرَم من حيازة الكتب وامتلاك المكتبات حتى أصحاب الدخل المحدود، ولا أصحاب الأعمال البسيطة. وقد أشار إلى هذا أيضا ـ مع اختلاف ـ المستشرق الإسباني خوليان ربيرا JULIAN REBERA في بحثه الجيّد عن" **المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية** " المنشورة ترجمتُه العربية في **مجلّة معهد المخطوطات العربية** التي تصدرها (كانت) الجامعة العربية[542]. وهذا أمر لا يصعب فهمه في مثل ذلك المجتمع، الذي كانت صُوَر التعاون والتهادي وحسن العلاقة والألفة والمحبّة متوفّرة فيه. وقد رأينا توّاً ما يفعله ابن فُطَيْس حين يلحّ أحد عليه في استعارة كتابٍ ما. وليس من الصعوبة أن يقوم الشخص نفسه باستنساخ الكثير ممّا يريد، وقد رأينا عدداً من العلماء الذين هم بحاجة قوية إلى الوقت يقومون بنقل ما يريدون، فكتبوا بخطّهم علماً كثيراً.

لكن ربيرا يعطي لذلك شاهدا" مكتبة معلم مدرسة، فقير، هو: محمد ابن حزم، وكان يعيش على ما يكسبه من التدريس للأطفال، يساعده في ذلك ابن له يتعهّد الصبيان وابنة تتعهّد البنات. وقد خصّص المَبالغ الضئيلة ـ التي كان يستطيع ادّخارها ـ لشراء الكتب"[543]. ومحمد بن حزم هذا هو

---

(541) الصلة، 481.

(542) مجلة معهد المخطوطات العربية، 4/ 1/ 92.

(543) مجلة معهد المخطوطات العربية، 4/ 1/ 92.

غير سميّه محمد بن حزم بن أبي بكر التنوخي، من أهل طليطلة وسكن قرطبة[544]. وفي كلام ربيرا هذا أكثر من أمر لا نجد عليه دليلاً، وغير واضح من أين استفاد الكاتب. ويحسن قبل المناقشة إيراد ترجمة محمد بن حزم لدى ابن الأبّار، والتي أشار إليها الأستاذ ربيرا.[545]

وهذه ترجمته المقتضبة جدا عند ابن الفرضي " محمد بن حزم المُعلم، من أهل قرطبة. سمع من أبان بن عيسى بن دينار ويحيى بن إبراهيم بن مُزَيْن وقاسم بن محمد وبقيّ بن مخلد، وغيره. وكان مجتهدا في طلب العلم فاضلا. ذكره خالد "[546].

يتبيّن من ذلك أنّها أسرة امتهنت التعليم حيث مارسه وأخته وأبوه. وهذا النصّ بالغ الأهمية، إذ يعطينا أيضاً ـ باختصار ـ معلومات تتعلّق **بالحياة العلمية للأندلس وأسلوب التعليم فيها. وهو موضوع بحاجة إلى عناية خاصة**. فكانت أخته تعلّم الإناث، وهو أمر يُفْهَم من عبارة ابن الأبّار "وكانت له أخت ... واحدة "، وهو ما فهمه ربيرا الذي ذَكر أموراً في عبارته السابقة غير واضح مصدرها، فقرّر أنّه:

1ـ فقير. ولا دليل عليه، حيث يشير نصّ ابن الأبّار السابق إلى كثرة الكتب التي جمعها . وخروجه للحجّ يُرَجِّح ذلك.

2ـ يعيش على ما يكسبه في التدريس للأطفال. وليس من الضروري أن

(544) التكملة، 1/365 رقم: (991). نفح الطيب، 2/150.

(545) التكملة، 1/358 (رقم: 964).

(546) تاريخ علماء الأندلس، 2/25(رقم: 1163).(ج)، 2/665(1161).

يكون التدريس مصدر عيشه الوحيد أو أهمّ مصدر. وغير واضح إن كان تدريسه مقصوراً على الأطفال، فقد درّس آخرين... يدلّ عليه فضله وعلمه" وكان راوية للأدب والطُرَف ... خَيّراً فاضلاً متقدّماً مبرزاً".

3ـ يساعده في ذلك ابن له يتعهّد الصبيان. لم يرد ذكر ابن له.

4ـ وابنته تتعهّد البنات. ليست ابنته بل أخته.

5ـ خصّص المبالغ الضئيلة التي كان يستطيع ادّخارها لشراء الكتب. ليس هنالك إشارة إلى الضآلة، مع ملاحظة ما ذكر في الفقرة الأولى.

ومع ذلك فإنّ في محمد بن حزم مثالاً واضحاً للاهتمام بالعلم والعناية بالكتب، اقتناءً وانتفاعاً، لا تلغي هذه المناقشة قيمة بحث ربيرا.

غير المسلمين وجمع الكتب في الأندلس

لقد سرت عادة أو هواية جمع الكتب في الأندلس ومارسها المُسْتَعْرَبُون LOS MOZARABES (غير المسلمين) من اليهود والنصارى في المجتمع الأندلسي. وكانت كثرة منهم تجيد اللغة العربية وتتذوّق إنتاجها. وفي وثيقة لاتينية (عرفت باسم: INDICULUS LUMINOSUS، أي الدليل المنير) كتبها أحد النصارى، وهو: البارو القرطبي Sp. ALVARO DE .CORDOBA, L. ALVARUS CORDUBENSIS سنة 240هـ (854م)، يصف فيها هذا الأمر، من أنّ النصارى كانوا" يبذلون أموالاً طائلة في تأسيس مكتبات عظيمة "(547).

(547) المصدر نفسه، 5/1/69. التاريخ الأندلسي، 170ـ171، 284.
ANDALUSAN DIPLOMATIC RELATIONS, 56.

ولقد كان وزير غرناطة اليهودي إسماعيل بن النغْريلَة (الإسرائيلي) "جَمَّاعة للكتب"[548]. وكان وزيراً لباديس بن حَبُّوس الصِّنْهاجِي(465هـ =1073م)، صاحب غَرناطة أيام الطوائف. وقد خلّف إسماعيلُ هذا ابنَه يوسف في الوزارة. فكانت له مكتبة جليلة تُعَدُّ من كبرى المكتبات الخاصة في الأندلس، وقتها[549].

ويعتبر استعمال يوسف في الوزارة وأبيه مِن قَبْله، وأمثال ذلك، ودونما مبرّر، من الأخطاء الكبيرة التي كانت لها نتائج سيّئة[550]، حالاً ومآلاً.

إدارة المكتبات وتنظيمها

وإدارة المكتبات كانت من المهام الكبيرة، يُوَلاّها خيار الرجال علماً وفضلاً، واعتُبِرت إحدى الخُطط (الإدارات) المهمّة، ضمن المؤسسات العلمية.

فيذكر ابن عبد الملك المراكشي(703هـ) في كتابه **الذيل والتكملة** حين الحديث عن أحمد بن عبد الرحمن بن الصقر الأنصاري، السابق الذكر، بأنّ الخليفة الموحّدي عبد المؤمن بن علي الكُومي(558هـ= 1163) "ولاّه قضاء

---

(548) الإحاطة، 1/ 439.

(549) الإحاطة، 1/ 439. دولة الإسلام في الأندلس، 2/ 507. دول الطوائف، 137. مجلة معهد المخطوطات العربية، 5/1/ 71.

(550) الذخيرة، 1/5/ 268ـ 272. البيان المغرب، 3/ 264ـ 266. الإحاطة، 1/ 437ـ 440. التبيان (مذكرات الأمير عبد الله، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، 1955) ص 30ـ 55. نفح الطيب، 4/ 322. دول الطوائف، 127ـ 137.

غَرناطة ثمّ صرفه عنها إلى قضاء إشبيلية، صُحْبَةَ ابنه وليّ عهده أبي يعقوب. ولما صار الأمر إلى أبي يعقوب ألزمه **خُطّة الخزانة العلمية، وكانت عندهم من الخُطط الجليلة، التي لا يُعَيَّن لتولّيها إلاّ علْيَة أهل العلم وأكابرهم** "(551). وقد سبق أن عَرَفْنا شيئاً مما كان يتمتّع به هذا الصقر الأنصاري في الفضل والعلم(552). فكان غزير العلم، إذا جلس للتأليف" تفجّرت منه بحور علم لا يكدِّرها الدِّلاء. وله تصانيف مفيدة تدلّ على إدراكه وجودة تحصيله وإشرافه على فنون من المعارف '(553). وله مؤلفات جيّدة منها" **أنوار الأفكار فيمن دخل جزيرة الأندلس من الزهاد الأبرار**"، أتمّه ابنُه(554)، كما كان شاعراً مُجيداً عالي الرتبة فيه(555).

وكان تَليد الفتى (الخصي) مولى الحكم المستنصر بالله، قيّماً على المكتبة الخليفية بقرطبة أيام الحكم المستنصر(556).

---

(551) الذيل والتكملة، 1/ 228. كذلك: الديباج المُذْهَب، 49. الإحاطة، 1/ 183-184. الخزانة العلمية أو خِزانة الكتب، بمعنى المكتبة العامة. .Eng. NATIONAL LIBRARY, Sp. BIBLIOTECA NACIONAL. وقد يستعمل مطلقاً ويراد المعنى نفسه. نجد هذا المصطلح مستعملا حتى الآن في المغرب بالمعنى نفسه.

(552) انظر: الكشاف العام.

(553) الذيل والتكملة، 1/ 230.

(554) الذيل والتكملة، 1/ 227. الإحاطة، 1/ 185.

(555) الذيل والتكملة، 1/ 230. وعن أمثلة أخرى انظر: ما يلي وأعلاه، 127.

(556) التكملة، 1/ 335. الحلّة السيراء، 1/ 203. نفح الطيب، 1/ 385، 394. مكتبة ابن أبي عامر، التكملة، 1/ 384. الصلة، 328.

وعلى ما تقدّم يتبيَّن أنّ العناية بالكتب وكثرتها لا يَشُكُّ الباحثُ أن يقدّر وجود المكتبات العامة خلال القرون الثمانية، لوجود المسلمين في الأندلس، التي تكون انتشرت فيها خزائن الكتب الغنية المزدهرة، بكثرة كتبها وأبنيتها والعناية بذلك، كما ازدهرت بعلومها. وكانت كلّ مدن الأندلس على هذه الشاكلة، غير أنّ التفاوت فيها في طريق التنافس، كثرة وأصالة وجلالة. ولكن للأسف فالأخبار عنها قليلة في المتوفر لدينا من المصادر. ورغم ما فُقِد من مصادر، أو ما يعتبر في حكمها، فإنَ التفرغ لهذا المبحث ـ وأمثاله ـ والسَّفَر إلى مَظَانّ المؤلفات العربية والأجنبية ـ مخطوطة ومطبوعة ـ سيزيد مادّته ويعمّق أصالته ويوضّح صورته ويزيد كلّ ذلك ضياء. ومع ذلك فلا نعدم الآن الإشارات لبعضها، تلفت النظر وتعين على صياغة بعض الصور، وإن أصاب بعضَها الإهمال، أو ضَياع ما دُوّن عنها من أخبار. والحقّ فإنّ الشأن كذلك في عدد من المسائل، بدت خافتة الضوء، بسبب ما اكتنفها من القَتَامة أو الضَياع. فإنّ علماءنا ومدوّنينا قد ملؤا الصفحات واستهلكوا الإنتاج الوفير لمعامل الورق الأندلسية الكبيرة الراقية وحفظها، ثمرات العقول النيّرة وأقلامهم الثرّة المؤمنة الأمينة الخيّرة.

وخلال المتابعة وجدتُ إشارةً، تبدو إلى المكتبة السلطانية الرسمية في مملكة غَرناطة، ولم أستطع الحصول على معلومات أكثر، لإعطاء فكرة أقوى ورسم صورة أوضح عنها. وهذه الحال تدع الباحث، في حال التاجر كُسِرَتْ تجارتُه أو عاد بدونها، أو كزارع حريص مؤتمن سعى في الحصول على بذور، تحتضنه أرضُه طيّبةً، فترُك في حسرة تُفَوّت النفع للحاضرين والقادمين. لكن الأمل ما زال قائماً أن تتهيّأ عوامل الإنبات.

وَجَدتُ الإشارة في كتاب **الكتيبة الكامنة** من مؤلفات لسان الدين ابن الخطيب(776هـ)، حين ترجم للفقيه أبي عبد الله محمد بن أحمد بن محمد بن فرج بن شَقْرال اللَّخْمِي الطَّرَسُوني[557]. ولَقَبُه الطَّرَسُوني يدلّ على أندلسيته الأصلية، حيث أنّ طَرَسُونة (TARAZONA) مدينة في شمالي الأندلس[558]، ربما كان منها أصل أسرته، الذي وصفه بالمعرفة والمقدرة وأورد له شعراً. وكان في حاشية المحقّق أنّ ابن الخطيب ترجم له في **الإحاطة في أخبار غرناطة** من غير إشارة إلى موضعها، أهي في القسم المخطوط منها(المطبوع الآن، 2000م)؟ أنّ الفقيه الطَّرَسُوني(730هـ) كان "**ناظراً لِخزانة الكتب السلاطنية**"، من غير بيان عنها. ثمّ أبان ترجمة أخرى تحت اليد في بغية الوعاة للسيوطي(910هـ) الذي نقل الترجمة جلّها أو بالأحرى كلّها على ما يبدو من "**تاريخ غرناطة**" أي"**الإحاطة**"، فذكر مكانته العلمية. فوصفه بعلوّ مكانته بالعلوم اللغوية والبراعة في الخطّ،

---

(557) الكتيبة الكامنة(إحسان عباس)، 73. ورد ذكره في أعمال الأعلام لابن الخطيب (بيروت، 300)، ضمن قائمة من الفقهاء والعلماء.

(558) وتبعد مدينة طرسونة TARAZONA اثني عشر ميلاً (22كم) جنوب غربي مدينة تُطِيلَة(TUDELA). وكانت طرسونة " مستقر العمال والقواد بالثغر وعليها ترد عشور مدينة أربونة NARBONNE= جنوب شرقي فرنسا) ولكنها غدت فيما بعد من بنات تطيلة (TUDELA). الروض المعطار، 123 (طبعة بيروت الكاملة، 389). الحلل السندسية، 2/ 172. فرحة الأنفس، ابن غالب (قطعة منه نشرت في مجلّة معهد المخطوطات العربية) 1/2/ 287. نفح الطيب، 1/ 166. وسقطت طرسونة سنة 524هـ. " وأخذ العدو مدينة تطيلة وأختها طرسونة سنة أربع وعشرين وخمسمائة ". نفح الطيب، 4/ 455. قارن: فرحة الأنفس، 1/2/ 287 . معجم البلدان

وذكر بعض من تلقّى عنهم، " وكان حسن التذهيب والتجليد حظيّاً عند الوزير المحروق ورتّب له معلوماً، وجعله ناظرا لخزانة الكتب السلطانية"[559].

والسير في بسط المسألة الحالية هذه موازٍ للسير لماجريات (مجريات) دراستها. فكانت هناك متابعة استمرّت ساعات مع المجاورة لكثير من المصادر الأساسية لإتمام الفجوات أو البت حول خزانة الكتب، طبيعتها ومكانتها وتاريخ النّضارة الطّرسُوني، ومن هو الوزير المحروق. وكان التخمين الخزانة في مملكة غَرناطة.

بواسطة المعلومات التي ذكرها وأسماء الأماكن والأساتذة والوزير، بعد أن تبيّن أن ليس له ترجمة في الأجزاء (الأربعة) المطبوعة من الإحاطة، وتبيّن أنّ الوزير ليس المحروق، بل هو الفقيه الوزير أبو عبد الله محمد بن أحمد بن المحروق(728هـ) وزير السلطان محمد الرابع ابن الأحمر(733هـ)[560]، وأشار صاحب **الإحاطة** أنّ التعريف آت بابن المحروق[561]، في الأجزاء التالية، وهي ما زالت مخطوطة؟ كما لم تتوفر معلومات عن الطرسوني بواسطة أحد أساتذته، القاضي أبي الحسن بن أبي العيش[562]. ومع كلّ ذلك فلم يمكن الوصول إلى شيء كثير عن الطرسوني ولا عن خِزانة الكتب. وهكذا فوتت قلّة المصادر - أو البعض عن البعض الآخر - فرصة التعرّف الواضح على مثل هذه المسائل المهمة الأساسية. وحتى

---

(559) بغية الوعاة، 1 / 45 (رقم: 74).

(560) الإحاطة، 1 / 331، 518. نهاية الأندلس، عنان، 122.

(561) الإحاطة، 1 / 545.

(562) ورد ذكره في: أعمال الأعلام (بيروت)، 299.

يحين الإطلاع على ترجمته ومتعلّقات الخزانة الأخرى من المخطوطات وغيرها.

وكان هذا الشأن عاماً في العالم الإسلامي. فأبو عبد الله محمد بن علي ابن ياسر الأنصاري الجَيّاني (جَيّان، 492ـ حلب، 563هـ) المار الذّكر، العالم الفاضل، الذي "كان متديّناً صدوقاً حافظاً عالماً بالحديث"(563). وهو أندلسي استوطن حلب بعد 559هـ ويتولّى إدارة المكتبة هناك والإشراف عليها حيث "سُلِّمت إليه خِزانة الكتب النورية، وأُجريت عليه جِراية"(564). وهذه القصّة وأمثالها دليل تَوَحُّد العالم الإسلامي الواحد والارتباط على أساس العقيدة. وكانت الحياة تقوم على هذا الأساس، وليس الأمر يتّضح لوجود الأمثلة الكثيرة فحسب، بل الحياة اليومية كانت كذلك، تدور وتسير؛ سواء أكان ذلك في الأندلس أم في غيره. **وخِزانة الكتب هذه** كان ممّن تولّى إدارتها ـ قبل هذا الجياني ـ ابن القيسراني الشاعر (عكا، 478ـ دمشق، 548هـ). وهو أبو عبد الله محمد بن نصر المنتسب إلى خالد بن الوليد رضي الله عنه. وكان" من الشعراء المُجيدين والأدباء المتفننين"(565)، وهو" حامل لواء الشعر في زمانه"(566)." وسكن دمشق وتولّى إدارة الساعات التي على باب الجامع"(567). وكان عارفاً بالهيئة "(568)، " وأتقن

(563) نفح الطيب، 2/ 58.

(564) التكملة، 2/ 501 (رقم: 1380). نفح الطيب، 2/157.

(565) وفيات الأعيان، 4/458.

(566) الوافي بالوفيات، 5/112. كذلك: العبر، الذهبي، 4/133.

(567) الوافي بالوفيات، 5/112. كذلك العبر، 4/133.

(568) العبر، 4/133.

الهندسة والحساب والنجوم "[569]، ثمّ " سكن حلب مدّة، **وولي بها خزانة الكتب**"[570].

وهكذا يظهر أنّ إدارة خزانة الكتب يتولاها عالم معروف، ممّن اشتغل به طلباً وتدريساً وتأليفاً. فأبو الفتح محمد بن سعد بن محمد بن محمد بن محمد الديباجي المَرْوَزي النحوي (517ـ 609هـ)، وكان عالما جليلا صاحب تصانيف" **ينظر في خزانة الكتب التي بالجامع الأكبر بمرو** "[571].

فالمسؤولية فيما يتعلّق بخزائن الكتب والعناية بها **والقيام بمهماتها، كانت تُسْنَد إلى أُناس ذوي إمكانية ومكانة علمية. ليس فقط فيما يتعلق بإدارة المكتبات بل بمسائل أخرى ذات صلة. حتى فيما يتعلق بالوراقة والاستنساخ، كما مرّ ذلك في أكثر من مثال**[572]. فمن المهام الكتبية (المكتبية) ما كان متّصلاً بالعناية بالكتب وضبطها. وممّن عمل في هذه المهمّة محمد بن يحيى بن عبد السلام الأسدي النحوي الرباحي(358هـ)، الذي تلقّى العلم في الأندلس ورحل في طلبه إلى المشرق وعُرف بالصلاح والتديّن، وكان إماماً موثوقاً عُرِف بالفقه وغلب عليه علم العربية" وكان جيّد النظر، دقيق الاستنباط، حاذقاً بالقياس. نظر الناس عنده في الإعراب،

---

(569) الوافي بالوفيات، 5/ 113. كذلك العبر، 4/ 133.

(570) الوافي بالوفيات، 5/ 113.

(571) بغية الوعاة، السيوطي،1/111-112(رقم: 183). معجم الأدباء، 17 212.

(572) أعلاه،148 , 179 , 184 - 192 . أما عن الوراقة والوراقين والانتساخ. فانظر أعلاه، 180 , 191.

وأدَّب عند الملوك. واستأدبه أميرُ المؤمنين الناصر رضي الله عنه لابنه المغيرة، ثمّ صار إلى خدمة المستنصر بالله، في مقابلة الكتب وتوسّع له في الجِراية" (573).

وهكذا فإنّنا نلاحظ بوضوح - مما مرّ بنا - أنّ أمناء المكتبات والمشرفين عليها كانوا عادة من أهل التصانيف ومن العلماء الأجلاّء الذين لهم في العلم والفضل مكانة وإسهام. وكذلك كانت العناية بكلّ الأمور المكتبية، من العناية في دقّتها ومقارنتها والعناية بالوِراقة والتسفير، يشرف عليها علية وعلماء. وكذلك كانت العناية بجودة البناء ورفوفه وردهاته وأجنحته، بحيث يكون لكلّ نوع من العلم جناح خاص به، وبحيث يكون البناء مناسباً ونظيفاً، ثمّ تَوَفُّر خيار الوراقين الخاصين الذين يعملون ليل نهار.

والحقيقة أنّ العناية بهذه الأمور واختيار المشرفين لها - من هذا المستوى - يعتبر سبقاً، مثل عديد من الأمور في هذا الميدان. كان توفّر هذا المستوى الخلقي والعلمي واضحاً وعاماً في كلّ الأمور. لكن تبقى هنالك مهامّ بحاجة أشدّ إلى هذه النوعية من المشرفين، تحتلّ المكتبات وإدارتها وشؤونها الأخرى المقدّمة. ربما كانوا كذلك يوفرون حتى الضيافة والخدمات الأخرى والاستراحة. أحسُّ بذلك من الجوّ العلمي والاجتماعي العام. وكذلك توفيرُ مشرفين يعاونون القُراء والباحثين ويهيّئون لهم حاجاتهم. وهناك عدّة مهمّات يقوم العديدُ بها، كلّ في تخصّصه،

---

(573) تاريخ علماء الأندلس، 2/ 69(رقم: 1292). نفح الطيب، 3/ 178؟

وكذلك القيام بتجهيز وإعداد أدوات الكتابة وخدماتها المتنوّعة. وهكذا ارتقت وتميزت الحضارة الإسلامية وسبقت في كل الأمور الإنسانية الفاضلة البَنّاءة المعطاءة، ليس في هذه الأمور فحسب، بل في جوانب الحياة الإنسانية كافة. وهذا الذي رأيناه في الأمور المتعلقة بالمكتبات العامة في الحضارة الإسلامية: تنظيمها وغناها وخدماتها، التي ما زالت متفوقة، مما نُقل بعضُه إلى الحضارة الحديثة ـ وجوانب المعرفة الأخرى ـ التي يَلْمَس وإلى حدّ جيد ـ الزائر إليها والباحث فيها أو المنتفع بها. وقد رأيت ذلك بنفسي وعايشته وانتفعت به في أثناء دراستي للدكتوراه في مكتبة جامعة كيمبرج الشهيرة. ومع ذلك فهي لا تلحق تلك الصيغ التي عاشتها دور العلم ومؤسساته في الحضارة الإسلامية، ومنها المكتبات وخزانات أو خزائن الكتب العامة بل وحتى الخاصة.

مواد الكتابة وفنونُها

إنّ الاهتمام بالكتب ـ دون شكّ ـ ساعد على تقدّم وتجويد صناعات وفنون، ذات عَلاقة بالكتاب تأليفاً وتوريقاً وتأنقاً.

وقد يكون مثل هذا الجانب في البحث الحالي جانبياً، تكفي الإشارة إليه أو المرور به، في خطوات عَجْلَى.. وذلك لإعفاء النفس من تجشّم مشقّة المتابعة وعسر تجميع المعلومات المطلوبة وتنسيقها، لتكوين صورة مناسبة عنه، إلى أيّ حدّ. وبالإمكان أن يكون بحثاً مستقلاً لذاته، في غير هذا المكان. ومثل هذا يقال في عدّة أمور تدافعت في هذا البحث، لكن الرغبة في التقصّي وخدمة الموضوع وإيثار الدراسة الملحّة الملمّة السليمة

الواضحة المؤهّلة الحقّة الكريمة الحريصة، تقبَّلتْه. ولولا طول المتابعة والصبر عليها في مظانها لساخت القدم وتوقّف القلم عن الكتابة، التي تقوم ببناء الحقائق الاستقرائية القائمة على الوقائع العملية الدّلالية. ورغم ذلك فهنالك مجال إفراد مثل هذا الموضوع في متابعة أطول، وفي مصادر أبعد في المنال، أشدّ مما هو حاضر اللحظة. وتنفرد هنا عدد من القضايا بالدراسة:

صناعة الورق

وما من شكّ أنّ هنالك ارتباطاً بين الكتب والورق. فكثرتها تدلّ على تقدّم صناعة الورق وازدهارها وكلّ ما يتعلّق بها، من " صناعة الوراقين المعانين للانتساخ والتصحيح والتجليد وسائر الأمور الكتبية والدواوين، واختصّت بالأمصار العظيمة العُمران ' [574] **والمسلمون " هم الذين يستخدمون فقط هذا الورق المبتكر "**[575]**، وأنّهم أولو الفضل على العالم في هذه الصناعة، واحدة من كثير، وهم الذين صنعوا الورق من القطن والكَتّان والقِنّب والأسمال**[576].

فاشتهرت الأندلس بمصانع الورق. وتميّزت بهذا الإنتاج عددٌ من المدن

(574) المقدّمة، ابن خلدون، 3/ 1096.

(575) مجلّة معهد المخطوطات العربية، بحث ريبرا عن " المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية "، 4/ 1/ 80.

(576) نهاية الأندلس، 447. حضارة العرب، 482ـ 483. الإسلام والحضارة العربية، 1/ 226.

الأندلسية، مثل: غَرْناطة GRANADA وبَلَنْسِيَة VALENCIA وطُلَيْطُلَة TOLEDO وشَاطِبَة [577] JATIVA التي كان " يضرب بحسنها المثل ويُعمل بها الورق الذي لا نظير له "[578]. وثبتت ووجدت مخطوطة في الأسكوريال EL ESCORIAL مصنوعة من القطن، يعود تاريخ كتابتها إلى 400هـ = 1009م[579]. ومن السهولة وضع تاريخ أقدم لصناعة الورق من القطن وغيره. وقد أثيرت مناقشات أيضا حول اختراع نوع من الطباعة في الأندلس[580].

ومن الأندلس انتقلت صناعة الورق إلى فرنسا، ثمّ إلى أنحاء أوربية أخرى[581]. كما كانت صقلية طريقاً آخر اجتازتها هذه الصناعة من إفريقية التونسية إلى جنوب إيطاليا فأوربا[582]. وأوربا كانت قبلاً في عصورها المظلمة الوسطى، تعرف في الكتابة الرُّقُوق (جلد الحيوان، مفردها: رَقٌّ: جلد رقيق يكتب فيه). وهي غالية الثمن وغير صالحة للكتابة ونادرة.

---

(577) الحاشية السابقة. كذلك: ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، حسن حسني عبد الوهاب (تونس، 1965ـ1966)، 1/ 208، 2/ 166.

(578) نفح الطيب، 1/ 166.

(579) حضارة العرب، 482. نهاية الأندلس، 447. الأسكوريال هو القصر الملوكي الذي يقع شمال غرب مدريد بنحو خمسين كم. يحتوي في مكتبته ما يزيد على ألفين من المخطوطات العربية. عن الأسكوريال انظر: أدناه، 203-204. كذلك: الحلل الأندلسية، 1/ 355ـ360.

(580) الحضارة الإسلامية في الأندلس، 57. الحلة السيراء، 1/ 253. الإسلام والحضارة العربية، 1/ 225. تاريخ العرب(مطول)، 2/ 671.

(581) نهاية الأندلس، 447. ورقات، 1/ 207ـ208، 2/ 166.

(582) ورقات، 1/ 207، 2/ 165.

وكان الرهبان في تلك الديار يَحُكُّون المؤلفات القديمة ليكتبوا فيها مواعظهم(583). وهذه الحال لا تكفي حتّى لسدّ حاجة أوربا الأمية الجاهلة في تلك الأعصر.

الخطّ الأندلسي

إنّ الخطّ الأندلسي (وعموم الغرب الإسلامي) يختلف عنه في الشرق الإسلامي، ويضطلع بهذه المهمّة أولئك الذين يهتمّون بهذا الفنّ.

لقد تفنّن الأندلسيون في الخطّ وتأنّقوا بتجويده، وليس ذلك بالنسبة إلى الوراقين والوراقات (وهم أشبه بالمطابع ودور النشر) لأنّه مهنتهم، بل بالنسبة إلى الآخرين. وفيما سبق وروده عن العلماء أعلاه، تكرّرت الإشارة إلى كثير منهم بأنّه" **حسن الخطّ** ". وذلك يشير إلى أنّه كانت لهم به عناية، ولكثرة الممارسة والاعتماد على النسخ اليدوي.

لقد أُحصي في أحد أرباض (أحياء) قرطبة البالغة واحداً وعشرين رَبَضاً فوُجِد أنّه" كان بالرَّبَض الشرقي من قُرطبة مئة وسبعون امرأة كلّهنّ يكتبن المصاحف بالخطّ الكوفي؛ هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها؟" (584) مع ملاحظة صعوبة الخط الكوفي ودقّته، وأنّ كتابة المصاحف تحتاج إلى خبرة زائدة وفنية عالية ومستوى علمي مناسب.

---

(583) حضارة العرب، 481ـ 482.

(584) المعجب في تلخيص أخبار المغرب، عبد الواحد المراكشي (تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963)، 456ـ 457.

عملية التأليف

إنّ هذه الحصيلة الضخمة في التأليف، المتمثّلة في الأعداد الكبيرة من الكتب، توّجها العلمُ الواسع ذو المستوى الرفيع في الأندلس الإسلامية، فقد الكثير منها، أو أكثرها، وما وصلنا غير قليل، بالنسبة إلى ذاته، لكن بالمقارنة ـ أمام موجوداته ـ قليل، بل جدّ قليل.

وعملية التأليف ليست إنتاجا سهلا أو يسيرا، بل هو عصارة متأصلة ناضجة عميقة وعبقة ونتاج فكري متحضّر، أقامته تلك الأجواء النقية، سبقاً واستكثاراً وتشبثاً قل نظيره حتى اليوم. فهو عصارة تلك العقول الكبيرة والنفوس الكريمة، التي علّمها الإسلام كيف تحبّ العلم وتخدمه، تجويداً وعطاءً وحفظاً وحرصاً، خلال أجيال عديدة وقرون متطاولة. وما كان بالإمكان مثله لولا ارتقاء مستوى العلم والاهتمام به، على ضوء الإسلام ودوافعه وهديه. فكان ذلك استجابة لإسلامهم وانسجاما مع عقيدتهم، وهو بدوره جزء منها أو من مستلزماتها. وغرسُ ذلك ليس سهلاً. وهو بحاجة إلى عوامل متعدّدة: بيئية واجتماعية ونفسية. وتوفُّر بعضها لا يؤدّي بالضرورة إلى توفير غيرها، التي تثمر هذا البناء. لا يتوفّر أبداً إلاّ بالإسلام، بكلّ مبانيه ومعانيه المتفرّدة ومقوّماته وأسسه وخصائصه. **وهو موضوع حريٌّ أن يستقل به بحث معمق.**

والتأليف الجادّ ذو الأصالة، عملية اعتصار تكون شاقة، على الأقلّ في أحيانها الكثيرة. ومن رسالة لابن حيّان القُرطبي (469هـ = 1076م) إلى ابن عبد الغفور بعد إعارته سفراً من **تاريخه**: " ليس يخفى عليك مكان هذه

الصحف المُسْتَمْلاة من الصدور، المُسْتَعْراة من النظير، من أَنْفُس مؤلّفيها، وقلوب مصنّفيها، فابذل شأن الاهتمام بها "[585].

والإنتاج الكثير ظاهرة تستحقّ الاهتمام وتستأهل التقدير، وتدلّ على الأصالة والعمق والغزارة. ولدينا مع ذلك بعض إشارات بديعة لها فوق دلالتها الخاصة. والنموّ والتوسّع وتنوّع الثمار القوية الأصيلة، تدلّ كذلك على التمكّن والتعيّن والتصوّن، والتأصيل الجليل التي تدلّ عليها، وتصيغها صياغة نادرة، يرتبط توزينها بوصفها غدت فطرة وطبيعة متمكنة.

لقد جمع العالِم اللغوي أبو العلاء صاعد البغدادي (417هـ = 1026م) وافد الأندلس في حدود 380هـ[586] كتابه" **الفصوص في الآداب والأشعار والأخبار**" للمنصور بن أبي عامر، كما تقدّم ذكره، على غرار **أمالي القالي**[587] أو نوادره[588] بل معارضاً له[589].

وقد أتمّه فيما لا يزيد عن سبعة شهور حيث" كان ابتداؤه له في ربيع الأول سنة خمس وثلاثين وثلاث مئة، وأكمله في شهر رمضان من العام. وأثابه عليه بخمسة آلاف دينار دراهم في دفعه "[590]. ولقد اتّهم بعضُ

---

(585) الذخيرة، (القاهرة)، 1/2/97. (بيروت)، (العلمية)، 1/364.

(586) جذوة المقتبس، 240(رقم: 509) . وفيات الأعيان، 2/ 488.

(587) وفيات الأعيان، 2/ 489.

(588) جذوة المقتبس، 240.

(589) نفح الطيب، 3/ 77ـ 78.

(590) الصلة، 238.

المؤلفين صاعداً بالكذب[591]، إلاّ أنّ خبر كتاب الفصوص حقيقة ـ على ما يبدو ـ رواها العديد[592].

والوزير الغرناطي لسان الدين ابن الخطيب (776هـ = 1375م) ألّف كتابه **أعمال الأعلام**، وهو ثلاثة أقسام(أجزاء)، كلّه أو بعضه في أربعين يوما[593]. وإذا كان الأمر كذلك، فهل أنّ جمع المادّة العلمية استنفدت بعض هذه المدّة، أو كان تأليفاً مباشراً؟ والقسم الأندلسي من هذا الكتاب مطبوع في أكثر من ثلاث مئة صفحة (قياس 18X 25سم). ويعتبر من المراجع المهمّة في التاريخ الأندلسي، وفيه تحليلات ذات قيمة تاريخية كبيرة. والمثل التالي يدعّم القبول لمدّة تأليف هذا الكتاب.

وابن الخطيب نفسه ألّف كتاباً آخر خلال فترة قصيرة جدا وسمّاه "**روضة التعريف بالحبّ الشريف**" عارض به ديوان الصَّبَابَة[594] في المحبّة وأخبار أهلها، لأبي العباس أحمد بن يحيى بن بكر بن أبي حَجَلة

(591) الصلة، 238.

(592) أعلاه، 111.

(593) انظر: مقدّمة محقّق القسم الأندلسي من أعمال الأعلام (ليفي بروفنسال) ويمثل هذا القسم: الثاني. كما طبع القسم الثالث الخاصّ بالشمال الإفريقي تحت اسم تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط ونشر في الدار البيضاء، المغرب، 1964 بتحقيق أحمد مختار العبادي ومحمد إبراهيم الكتاني. أمّا القسم الأول الخاص بتاريخ الشرق الإسلامي فهو ما يزال مخطوطا. وله خطّية في الخزانة العامة بالرباط. انظر عنه: لسان الدين ابن الخطيب، 247ـ250.

(594) روضة التعريف بالحبّ الشريف، لسان الدين ابن الخطيب، 1 / 37ـ38 (مقدّمة المحقّق)، 90؛ التعريف بابن خلدون، 121؛ لسان الدين ابن الخطيب، عنان، 151.

التلمْساني (725ـ 776هـ = 1325ـ 1375م)، وعرض فيه ابن الخطيب أفكاراً فلسفية ونظرات صوفية في محبّة الله تعالى[595]. فتحدّث فيه عن حبّ الله المبلِّغ إلى قربه، المستدعي لرضاه، وحبّه المؤثر بالنظر إلى وجهه. ويا لها من غاية تلقى رحلة المتّصف بها بعد قطع بحار الغناء على ساحل الولاية" [596]. وقد أشار ابن الخطيب إلى ذلك أيضا في رسالة بعث بها إلى صديقه ابن خَلدون، مؤرَّخة في جُمادى الأولى سنة 769هـ[597]، ووصفه فيها بكونه" كتابا ادّعى الأصحاب غرابته "[598]. وهذا يعني أنّ الفراغ من تأليف هذا الكتاب كان في بداية العام المذكور أو قبله[599].

وقد نُشر كتاب" **روضة التعريف بالحبّ الشريف**" بتحقيق علمي في مجلدين[600]، يقعان في أكثر من ثمان مئة صفحة، يشغل النصّ منها ما يزيد على ستّ مئة صفحة، مزوّدة بتعليقات المحقّق.

ورغم مشاغل ذي الوزارتين ابن الخطيب ـ وزير غرناطة الأول أو رئيس وزرائها ـ فقد استغرق تأليفه لكتاب" **روضة التعريف**" قرابة شهرين. ويشير

---

(595) التعريف بابن خلدون، 121؛ لسان الدين ابن الخطيب، 151، 262. روضة التعريف، 1/ 39، 97ـ 98.

(596) روضة التعريف، 1/ 39، 98.

(597) التعريف بابن خلدون، 122.

(598) التعريف بابن خلدون، 121. وانظر هذا النصّ في أعلاه.

(599) لسان الدين ابن الخطيب، 155، 265؛ روضة التعريف، 1/ 38(مقدّمة المحقّق).

(600) نشر في الدار البيضاء بالمغرب (طبع بيروت، 1970، بتحقيق محمد الكتاني.

ابن الخطيب نفسه إلى ذلك في خاتمة الكتاب فيقول: " وعلى ذلك فقد علم الذي يعلم الأسرار، ويقرب الأبرار، ويقيل العثار، ويقبل الأعذار أنّ مدّة الاشتغال به لم تجاوز شهرين اثنين، بين كتب وكتم، وابتداء وختم، مع ما يتخلّل الزمن من حمل، لو رمي به رَضْوَى لتدعدع، أو نزل على ثبير لخشع، من خشية الله تصدّع. بمداراة عدوّ قد تكالب على الإسلام، وسياسة سواد صمّ عن الملام، وتعدّى حدود النهى والأحلام. وارتقاب هجوم جيش الآجال، وراية الشيبة من الأعلام، وقد أنذر الفجر بانقشاع الظلام، وكاد يصعد الخطيب فينقطع الكلام "(601).

وإنّ العلاّمة ابن خَلدون(808هـ= 1406م)، معاصر ابن الخطيب وصديقه، كتب مقدّمته (الذائعة الصيت، باللغة العربية واللغات الأخرى، التي نقلت إليها، سواء التي تعتبر سبباً كبيراً في مكانته وشهرته العلمية) في خمسة شهور.. وهي تقع في نحو ألف صفحة من القطع الكبير المألوف (قياس 18X 25سم).

يقول ابن خَلدون في نهاية المقدّمة: " أتممت هذا الجزء الأول [المقدّمة] بالوضع والتأليف قبل التنقيح والتهذيب في مدّة خمسة أشهر آخرها منتصف عام تسعة وسبعين وسبع مئة. ثمّ نقّحته بعد ذلك وهذّبته وألحقت به تواريخ الأمم كما ذكرت في أوّله وشرطته: وما العلم إلاّ من الله العزيز الحكيم "(602).

---

(601) روضة التعريف، 2/ 709. لسان الدين ابن الخطيب، 265.

(602) مقدّمة ابن خلدون (تحقيق علي عبد الواحد وافي، القاهرة، 1388 / 1968)، 1/ 277، 4/ 1475.

فهلاّ يستحقّ منا هذا السلف الكريم التقدير والاحترام الممزوج بالإعجاب الداعي إلى الاقتداء في هذه الضخامة والوفرة والثراء والإنتاج مع الدقّة والعمق والأصالة، كطابَع غلاّب. ولعلّه أيضاً محفز لنا إلى دراسته ونشره والانتفاع به بكلّ وجه. وأنّ ما ذكر لم يكن من باب الحصر، بل فقط على سبيل الاستشهاد والإشهاد والتمثيل للتدليل:

ولو أبصروا ليلى أقرّوا بحسنها وقالوا بأني في الثناء مُقصّرُ[603]

مصائر المكتبة الإسلامية في الأندلس

ولكن أين ذهب كلّ هذا التراث الضخم؟

لقد انتهى أكثره، تلفاً وحرقاً، والقليل المتبقّي كثير وفير. فنحن نعرف أسماء كتب كثيرة، وبعضها بأجزائها العديدة لا نعلم لها وجودا. وبعضا آخر قليل جداً بقيت لنا منه الترجمة الأوربية وذهب الأصل العربي[604].

لقد قامت في الأندلس وعدد من الدول الأوربية ـ خلال عدّة قرون ـ حركة نشطة لترجمة الكتب العربية في العلوم المختلفة إلى اللاتينية. وأنّ مركز الترجمة في طليطلة استمرّ زهاء قرنين من الزمان، يقوم بهذه المهمّة. حتى إنّ عدداً من الكتب بقيت تدرّس في بعض الجامعات الأوربية لخمسة قرون أو أكثر[605]. كما انتقلت المخطوطات العربية الكثيرة إلى مختلف

---

(603) نفح الطيب، 3/ 153.

(604) انظر: فجر الأندلس، حسين مؤنس (القاهرة، 1959)، 561. مجلة الجمعية التاريخية المصرية بحث لحسين مؤنس عن (السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين، القاهرة، 1950)، 3/ 1/ 65. دول الطوائف، عنان، 252.

(605) حضارة العرب، 539.

المكتبات الأوربية، التي تمتلك لديهم الكثير منها حتى اليوم. فكم من كتاب خطّيته الوحيدة موجودة لديهم!

ولعلّ بعض المؤلفات الأندلسية بقيت لنا منها الترجمة الفرنجية فقط.

ويبدو أنّ بداية انتقال المخطوطات العربية إلى أوربا كان مبكرا، منذ النصف الأول من القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)[606].

وتضمّ مكتبات إسبانيا والبرتغال اليوم على رفوفها الآلاف الكثيرة، وبعضها غير مفهرس ولا معروف. كما تمتلك متاحفها كثيرا من التحف. وما زالت تقوم على أرضها المباني الرائعة من الآثار الأندلسية. حيّة نابضة ناطقة لمجد، هو أيضا يندب حظّ أهله في نفسه أو حظّ نفسه في أهله.

ومكتبة الأسكوريال (تقع على بعد خمسين كيلومترا شمال غربي مدريد)، أُولى هذه المكتبات ومن أضخمها[607]. فهي تضمّ الآن قسما مما كانت تحتويه مكتبات الأندلس العامة والخاصة، الذي قدّر له النجاة، من الإهلاك على يد التعصّب الأعمى. فبعد أعوام قليلة من سقوط غرناطة(897هـ = 1492م)، آخر الحواضر الإسلامية في الأندلس، بدأ النصارى الإسبان بتنفيذ الخطّة المبيّتة لتنصير المسلمين والقضاء على كلّ مقوّماتهم. واتّبعت لكلّ منهم أسلوباً يُرى أنّه أكثر فعالية، دون النظر إلى بشاعة الطريق وفقدانها لأيّة صفة إنسانية، بل خالية من أيّ اعتبار، حتى مصلحتهم هم. ﴿ * أفَلَمْ يَسِيروا في الأرض فتكونَ لهم قُلُوبٌ يَعْقِلونَ بها

---

(606) ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS, 216 n 5
والترجمة العربية: العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية، 112 حاشية 1.

(607) انظر: أعلاه، 180.

أو آذانٌ يَسْمَعونَ بها فإنّها لا تعمى الأبصارُ ولكن تعمى القلوبُ التي في الصدور﴾ [سورة الحج، 46].

والوسيلة التي اتُّبعت في الكتب هي الحكم بالإعدام، الذي أصدره رئيس الكنيسة الإسبانية المطران فرانثِسكو خِمينس دي ثِسْنيروس [608] سنة 905هـ (1500م) . وكان الأمر جمع كلّ ما يمكن من الكتب في رَحبة (ساحة) باب الرملة Bibanambla، أكبر ميدان في غرناطة، واحتُفل بإحراقها في حفل من أعمال الإيمان[609].

وقد تفاوت تقديرات عدد المخطوطات التي أُحرقت في هذه العملية، من خمسة آلاف إلى ما يزيد على المليون مخطوط. ولكن ربما يؤخذ على أنّها ما كانت تقلّ عن مئة ألف مخطوط[610].

ويُتوقّع أنّ عدداً آخر أُعدم، حرقاً أو تدميراً، في مختلف الظروف الأخرى، سبقت ذلك أو لحقته. ثمّ إنّ بقية يسيرة جداً من الكتب جُمعَت ولُمّت وحُملت فيما بعد إلى مكتبة قصر الأسكوريال EL ESCORIAL، الذي أسّسه الملك فيليب الثاني في القرن العاشر الهجري (السادس عشر الميلادي). وبعد نحو نصف قرن من ذلك، في أيام الملك فيليب الثالث،

---

(608) انظر: أعلاه، 180 .FRANCISCO Ximenes de Cisneros
وانظر: هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة، ظروفها وآثارها، 102، 110 .

(609) Auto - da - Fe . الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، 430.

(610) نهاية الأندلس، 316. الآثار الأندلسية، 430. قارن: حضارة العرب، 274.
عدا ما يذكر من أنّه اختير منها نحو 300 مُؤلَّف بالعلوم البحتة (SCIENCE)
نقلت إلى جامعة قلعة هنارس (وادي الحجارة) (ALCALA de HENARES)
(شمال مدريد الآن نحو ثلاثين كيلومتر)، ولعلها أول أو أقدم جامعة في إسبانيا.

استولت السفن الإسبانية في المياه المغربية على سفينة كانت تحمل مكتبة مولاي زيدان، سلطان مراكش. وهي تحتوي على ثلاثة آلاف مخطوط أو أكثر[611]. فوصلت مجموعة المخطوطات العربية في مكتبة الأسكوريال بضعة آلاف. وفي سنة 1082هـ (1671م) شبَّ حريق في القصر أكل أكثر هذه المخطوطات، ولم يترك إلاّ ألفين منها تقريبا، هي التي تحتويها الآن المكتبة العامة (المكتبة الإسلامية) من المخطوطات العربية في ذلك القصر العتيد.

لقد كانت أبواب هذه المكتبة موصدة أمام القرّاء والباحثين، لعلّه خشية "أن تتسرّب روح التفكير الإسلامي إلى تفكير إسبانيا النصرانية"[612]. ولكن أبيح استعمالها فيما بعد، وحتى اليوم.

وهنالك مخطوطات أخرى كثيرة في مختلف العلوم والفنون، ليس فقط في إسبانيا، بل في عديد من البلاد الأوربية وغيرها. وكذلك في الشمال الإفريقي، خاصة المغرب الأقصى، حركة نشطة في التنقيب والعناية بالمخطوطات في مناطق أخرى كثيرة. وهي ثروة ضخمة بحاجة إلى إحياء: لنشرها ودراستها والتعريف بها. وذلك واجب المسلمين، دولاً وشعوباً ومؤسسات علمية في كلّ مكان. وبإمكان الباحثين والأساتذة الإسهام في ذلك، كلّ في تخصّصه، وفي الميادين العلمية كافّة، بانتظار الجهود الجادة.

---

(611) نهاية الأندلس، 392. كذلك: رحلة الأندلس، حسين مؤنس (القاهرة، 1963)، 331ـ 334.

(612) نهاية الأندلس، 504ـ 505.

الخلاصة

هذه الظواهر الفريدة والأعراف العتيدة في موضوع الكتاب، تأليفاً وحفظاً ورعاية واهتماماً وانتفاعاً، كان نتيجة لما غرسه الإسلام من حب للعلم، لتمثيله حفظاً والانتفاع به تطبيقاً والبحث عن الإقراء تقرّباً. **وعلامة تكريم العلم هو العمل به**. كان العلم عاماً والاهتمام به على كلّ المستويات، بين النساء والرجال والأطفال، برغبة صادقة ذاتية في النفس وفي العلم. وكلّ ذلك يزيّنه خلق وصيانة وأمانة نادرة. وبدت ظواهره الكريمة المتميزة السابغة، ثمرة لهذا البناء الوضيء، مما أورث آثاره الواضحة، التي يمكن إبراز بعضها:

1ـ قامت واتضحت ظاهرة التنوّع والتفرّع والتوسّع ـ من غير توزّع ـ عند العلماء، وقضية التخصص، فيما عَمَّق التخصصَ سعةُ المعرفة. وقد عَرَفوا بالإسلام قَدْرَ المواصفات العلمية، عبروا عن كلّ ذلك عملياً، وظهرت أعرافٌ علمية تمتلئ برائحة الصدق والتمثّل والامتثال والجدّ العَبِق المعبّر في كلّ مجال، في لسان الحال أو المقال. فملكوا العلم السليم والمنهجية الأمينة الكريمة السليمة، وهذا غاية ما يمكن أن يتطلبه العلمُ ويطلبه أهله ويَسْعُون إهابه.

2ـ جعل كلُّ مَن عاش في المجتمع أن يثير فيه هذا اللونَ من العلم. وكانت كتاباتهم رائعة عميقة معبّرة ومعمرة. وهذه ثمرة أخرى فكلّهم (العلماء) إليه أَلِف، وغدا له إلْفاً. ودليل على ذلك أنّ بعضهم لم يترك من المؤلفات إلاّ قليلاً، وعلمه أكثر من مؤلفاته.

3ـ جمع أهله، ولاسيما علماؤه كلَّ المواصفات العلمية والعلم الرصين ولوازمه وأدواته، بعد مؤهلاته ومقوّماته، جمع الكتب. وحتى الخط وإتقان مقتضيات الكتابة. ومثلما كانوا ينفقون من نفوسهم كانوا ينفقون من أموالهم. كما امتاز العلماء بجانب ذلك بظواهر عاشوها من المتطلبات والمؤهلات.

فكان الاهتمام إقبالاً عليه بالتدوين وعناية وشغفا بجمع الكتب (بالكتاب جمعاً) وروافله وإغراق جداوله بالتأليف. فحيثما ظهر عالم قصده الناس يستمعون إليه ويأخذون عنه. وإذا ما عُرف مؤلَّف سعى أهل المعرفة في الحصول عليه وانتساخه. وهذا وذاك عُرف بسعر وانتقل بيسر، رغم صعوبة النشر والإعلام ووسائل النقل والاتصال.

والاهتمام بالكتاب، حامل وناقلِ المعرفة، متأصّلٌ في نفوس المسلمين، وهو ثمرة طبيعية وأصيلة حيث يكون الإسلام. ولذلك فإنّ مسلمي الأندلس، بعد سقوط غَرناطة، رغم المقاومة الشديدة الوحشية والمبيدة التي لا تبقي النفوس، فضلاً على الكتاب، نجدهم يحتفظون ـ وإلى حد كبير ـ بهذا الاهتمام.

فالاهتمام بالكتاب ثمرة لمحبّة العلم. وكان هذا الاهتمام في الأندلس خلال كلّ الأوقات والفترات، ومهما اكفهرت. وكما هو معروف في طول الأرض الإسلامية وعرضها، غير مقصور على الأندلس وَحْدَها. وفي كلّ ذلك كان للعالم وللمتعلّم خلق كريم ودين متين وسلوك مصون وأسلوب جميل في التلقّي والإلقاء والطلب والإقراء.

كلّ ذلك وغيره أكَّده هذا البحث، وهو بداية، وشارك في إظهار قيمة "

المكتبة الإسلامية " التي لا تفوقها مكتبة في الكمّ والكيف، مع المحافظة على السمت المميّز والخلق الملتزم. تلك الأهمية الحقيقة، وليس كما هو الحال الآن في كثرة منه، علم مجرّد، وخلو من هدف وخلق، في أحيان كثيرة، وعند فئات من الناس. وما كانت سوق التأليف لِتَنْفُقَ، وتروج مواقع الكتاب، لتكثُر وتُزْهِر، لولا هذا الاهتمام بالعلم والكتاب، أداءه ومركبه. وما له أن يتم لولا شيوع ذلك بين الجميع، رغم تكاليفه المادية.

والرجاء أن يعمّ هذا الاتجاه، المشار إليه سابقاً من الاهتمام والتكريم والعناية التي يستحقّها هذا الموضوع، في الأساس وثمرة الغراس. فنرنو إلى أفق نلمح فيه بريق غيث شامل أصيل، ولو أن تبدأ بقطر ثمّ تنهمر، لتثبت غرساً يعجب الزراعَ نباتُه[613].

* * *

لقد رأينا في العرض السالف بعضَ جوانب التراث وصورةً من صور الحضارة وحصيلةً من الفكر والمنهج الإسلامي، في بقعة من بقاع الإسلام، قامت على العقيدة، أحيت نفوساً وأزهرت أرضاً وأقامت مجداً وأنشأت حضارة سامقة رائدة، يوم كان كلُّ ما حولها، من غير بلاد الإسلام، بائداً، رغم المجاورة والقرب واستقبال القادم عالم أو طالب، ومن كلّ جنس ولون. فخلّفت لنا ولأهل الأرض كافة تراثاً ضخماً وصلتنا منه نتف، وَعَيْنا بعضها واهتممنا بأقلّه، ونحن بحاجة إلى إحيائه والانتفاع به. والأمل المرجَّى أن يكون سبباً في إحياء النبع الإسلامي في نفوسنا، فنؤدّي دورنا ونقوم

---

(613) راجع الآية الكريمة 29من سورة الفتح.

بالمسؤولية، كما قام بها أولئك الأبطال، من النساء والرجال والشباب، ومَن سبقهم في الموكب الميمون لهذه الأمّة المباركة، ومنهم الكثير.

﴿ ❊ أولئك الذين هَدَى اللهُ فبهداهم اقْتَدِهْ قل لا أسألكم عليه أجراً إن هو إلاّ ذكرى للعالمين ❊ ﴾ [(614)].

(614) سورة الانعام، 90.

المصادر والمراجع

﴿ **القرآن الكريم** ﴾

* **جامع الأصول في أحاديث الرسول** (صلّى الله عليه وسلّم)، ابن الأثير، الجزء الأول.

* **سنن الترمذي** (طبعة عزت عبيد الدّعّاس)، حمص، 1387هـ = 1967م، الجزء السابع.

* **سنن الدارِمي** (أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام الدارِمي المتوفى سنة 255هـ) بعناية محمد أحمد دَهمان، دمشق، 1349هـ، الجزء الأول.

* **صحيح مسلم**، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، القاهرة، 1375هـ =1955م، الجزء الرابع.

* * *

* **الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1381هـ = 1961م.

* **الإحاطة في أخبار غَرناطة**، لسان الدين ابن الخطيب (تحقيق محمد عبد الله عِنان، القاهرة، (1956، الجزء الأول والثالث. وخطية الأسكوريال (إسبانيا) رقم) 1673 (فهرسة الغزيري M . CASIRI).

* **أزهار الرياض في أخبار عِياض**، شهاب الدين احمد بن محمد المَقَّرِي التِلِمْساني (القاهرة، 1041هـ)، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبدالحفيظ شلبي، القاهرة، 1361هـ = 1942م، الجزء الثالث.

*الإسلام في إسبانيا، الدكتور لطفي عبد البديع (القاهرة، 1958م)

*الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، القاهرة، 1960م، الجزء الأول.

* إعتاب الكتّاب، ابن الأبّار، تحقيق الدكتور صالح الأشتر، دمشق، 1380هـ = 1961م.

*أعلام التاريخ والجغرافية عند العرب، الدكتور صلاح الدين المنجد، بيروت، 1960م، الجزء الثاني.

*أعمال الأعلام، ابن الخطيب، تحقيق ليفي بروفنسال، بيروت، 1956.

*الاكتفاء في مغازي رسول الله والثلاثة الخلفاء، أبو الربيع سليمان بن سالم الكَلاعي، تحقيق الدكتور مصطفي عبد الواحد، القاهرة، الجزء الأول.

*إنباه الرواة على أنباه النحاة، ابن القِفْطي المصري (أبو الحسن جمال الدي علي بن يوسف إبراهيم الشيباني، 646هـ. الجزء الأول والثاني والثالث.

*أندلسيات(*)، المجموعة الأولى، بيروت 1969م. هذه النجمة(*) إلى جانب عنوان الكتاب تعني أنّه للمؤلف.

*البداية والنهاية، ابن كثير، ج13.

*برنامج شيوخ الرُّعَيْني، أبو الحسن علي بن محمد بن علي الرعيني الإشبيلي (592ـ666هـ)، تحقيق إبراهيم شَبّوح، دمشق، 1381هـ = 1962م.

*بُغْية المُلْتَمِس، ابن عَميرة الضَّبِّي، (القاهرة، 1967) .
*بُغْيَة الوعاة، السيوطي، الجزء الأول .
*البيان المُغْرِب، ابن عِذاري، الجزء الرابع، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1967 . الجزء الثالث، تحقيق ليفي بروفنسال، مصوّرة على طبعة باريس، 1930م .
*تاريخ الأدب الأندلسي، الدكتور إحسان عباس، الجزء الأول (عصر سيادة قرطبة) والثاني (عصر الطوائف والمرابطين)، بيروت، 1971 .
*تاريخ الأندلس لابن الكَرْدَبوس ووصفُه لابن الشَّبَّاط، الدكتور أحمد مختار العَبّادي، مدريد، 1971م .
التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، بيروت، 1997 .
*تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس، الدكتور حسين مؤنس، مدريد، 1386هـ = 1967م .
*تاريخ الحضارة الإسلامية في الشرق، محمد جمال الدين سرور، القاهرة 1967 .
*تاريخ الحكماء، ابن القِفْطي . ويسمى إخبار العلماء بأخبار الحكماء .
*تاريخ العرب (مطوّل)، فيليب حِتي، بيروت، 1965، الجزء الثاني .
*تاريخ علماء الأندلس، الحافظ أبو الوليد ابن الفَرَضِي، القاهرة. 1966 .
*تاريخ غزوات العرب، جوزيف رينو (ترجمة وتعليق شكيب

أرسلان)، بيروت 1966م .

***تاريخ الفكر الأندلسي**، جنثالث بالنثيا، ترجمة الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1955 .

***تاريخ مدينة دمشق**، ابن عساكر، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد .

***تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس**، الدكتور السيد عبد العزيز سالم، بيروت 1962 .

* **التبيان** (مذكرات الأمير عبد الله بن بُلُقّين بن باديس بن حبّوس بن زِيري، آخر أمراء غرناطة أيام الطوائف)، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، دار المعارف، 1955م .

***تذكرة الحفاظ**، الحافظ الذهبي (مصوّرة في بيروت عن طبعة الهند)، الجزء الثالث والرابع .

***ترتيب المدارك**، القاضي عِياض (تحقيق الدكتور أحمد بكير محمود، بيروت، 1384هـ = 1965م)، المجلد الثاني .

***التعريف بابن خَلدون ورحلتُه غرباً وشرقاً**، ابن خلدون (تحقيق محمد بن تاويت الطنجي، القاهرة، 1370هـ =1951م) .

***التكملة لكتاب الصلة**، ابن الأبّار (طبعة العطار، القاهرة، 1375هـ =1956م)، الجزء الأول والثاني .

***جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**، أبو عمر يوسف ابن عبد البَرّ (طبعة المكتبة العلمية بالمدينة المنورة)، القاهرة، الجزء الأوّل والثاني .

*جَذْوَة المُقْتَبِس، الحُمَيْدي، القاهرة، 1966 .
*جمهرة أنساب العرب، ابن حزم الأندلسي، تحقيق عبد السلام هارون، القاهرة، 1956م .
*الحركة الصليبية، سعيد عبد الفتاح عاشور (القاهرة، 1963)، الجزء الأوّل .
* الحضارة الإسلامية في الأندلس وأثرها على الحضارة الاوربية* (بيروت، 1969) .
*حضارة العرب، غوستاف لوبون (ترجمه عن الفرنسية عادل زُعَيْتِر)، 1384هـ(1964م) .
*الحُلَّة السِّيَراء، ابن الأبَّار، تحقيق الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963، الجزء الأوّل والثاني .
* الحُلل السُندسية في الآثار والأخبار الأندلسية، شكيب أرسلان، القاهرة، 1358هـ= 1939م . الجزء الثاني والثالث .
* خَرِيدة القصر وجَرِيدة العصر، العماد الأصفهاني، القسم الرابع، تحقيق عمر الدسوقي وعلي عبد العظيم، القاهرة، 1964، الجزء الأول والثاني .
*خُطط المَقريزي، المَقريزي، الجزء الرابع .
*دول الطوائف، محمد عبد الله عِنان، القاهرة، 1389هـ= 1969م .
*دولة الإسلام في الأندلس، محمد عبد الله عنان، القاهرة، 1969، الجزء الأول والثاني .
*الديباج المُذْهَب في أعيان المَذْهَب، ابن فَرِحُون، القاهرة، 1351 .

※**الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة**، ابن بسام الشَّنْتَريني، القسم الثاني (مخطوطة المتحف العراقي - بغداد، رقم 7 158) - المطبوعة القسم 1/1، 1/2.

※**الذيل والتكملة**، ابن عبد الملك الأنصاري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، 1965، الأجزاء الرابع والخامس، والجزء الأول تحقيق الدكتور محمد بن شريفة، بيروت بدون تاريخ.

※**رحلة الأندلس**، الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1963.

※**الروض المِعْطار في خبر الأقطار**، ابن عبد المنعم الحميري، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة، وطبعة بيروت الكاملة، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت، ط2، 1984.

※**روضة التعريف بالحبّ الشريف**، ابن الخطيب، تحقيق محمد الكتّاني، بيروت.

※**السيد القمبيطور وعَلاقته بالمسلمين**، بحث الدكتور حسين مؤنس، **مجلة الجمعية التاريخية المصرية**، القاهرة، 1950.

※**سِيَر أعلام النبلاء**، الحافظ الذهبي، ترجمة ابن حزم تحقيق سعيد الأفغاني، بيروت، 1389هـ = 1969.

※**شذرات الذهب**، ابن العماد الحنبلي، الجزء الثالث.

※**صلة الصلة**، لابن الزبير و**الذيل والتكملة** لابن عبد الملك، بحث للدكتور عبد العزيز الأهواني، **مجلة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد**، المجلد الثالث.

*** الصلة**، ابن بَشْكُوال، القاهرة، 1966 .
*** طبقات النحويين واللغويين**، أبو بكر محمد بن حسن الزبيدي الإشبيلي .
*** طبقات الشافعية الكبرى**، تاج الدين أبو نصر عبد الوهاب بن علي بن عبد الكافي السُبْكي (771هـ)، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو ومحمود محمد الطناحي، القاهرة، 1388هـ =1968، الجزء السادس .
*** العِبَر في خَبَر من غَبَر**، الحافظ الذهبي، الكويت، تحقيق الدكتور صلاح الدين المنجد ج1(1960) 1، ج4 (1963) ج 3تحقيق فؤاد سيد، 1961 .
*** العِبَر** (العبر وديوان المبتدأ والخبر في ايام العرب والعجم والبربر ومَن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر)، ابن خَلدون، بيروت، 1958ـ 1959 .
*** عصر المرابطين والموحدين**، محمد عبد الله عنان، القاهرة، الجزء الأول والثاني .
*** العَلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية***، تحت الطبع (المجمع الثقافي – أبوظبي) . وهي الترجمة العربية لأطروحة الدكتوراه بالإنجليزية .
*** العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة*** . (المجمع الثقافي – أبوظبي) .
*** العناية بالكتب وجمعها في إفريقية التونسية**، حسن حسني عبد الوهاب، **مجلة معهد المخطوطات العربية** (القاهرة، 1374هـ = 1955م) 1/1 .

* **العواصم من القواصم**، أبو بكر ابن العربي، تحقيق محب الدين الخطيب، جدّة، 1387.

* **فجر الأندلس**، الدكتور حسين مؤنس، القاهرة، 1959.

* **فرحة الأنفس**، ابن غالب، تحقيق الدكتور لطفي عبد البديع، (قطعة منه نشرت في **مجلة معهد المخطوطات العربية**) المجلد الأوّل، الجزء الثاني.

* **فهرسة ابن خَيْر** (الطبعة الجديدة المنقحة على طبعة قُديرة وربيرا)، بيروت ـ بغداد، 1382هـ = 1963.

* **قضاة قرطبة وعلماء إفريقية**، ابن حارث الخُشني. (طبعة العطار) القاهرة. 1972.

* **لسان الدين ابن الخطيب**، محمد عبد الله عِنان (القاهرة)، 1388هـ = 1968م

* **مَجَالي الإسلام**، حيدر بامّات، ترجمة عادل زُعَيْتِر، القاهرة، 1956.

* **المَرْقَبة العُليا فيمن يستحقّ القضاء والفُتْيا**، أبو الحسن النُّباهي (نشر ليفي بروفنسال، القاهرة، 1948).

* **مروج الذهب**، المسعودي (طبعة شارل بلاّ، بيروت، 1966).

* **المُطْرِب من أشعار أهل المَغْرِب**، ابن دِحْية الكلبي، تحقيق إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد وأحمد أحمد بدوي، القاهرة، 1954.

* **مَطْمَح الأَنْفُس**، ابن خاقان.

* **معجم الأدباء**، ياقوت الحموي.

*معجم البلدان، ياقوت الحموي، الجزء الثاني والخامس والثالث عشر.

*المعجم في أصحاب القاضي أبي علي الصَّدَفي، ابن الأبّار، القاهرة، 1387هـ = 1967م (ضمن المكتبة الأندلسية).

*المُغْرِب في حُلَى المَغْرِب، اين سعيد الأندلسي، (تحقيق الدكتور شوقي ضيف، القاهرة، 1964) الجزء الأوّل.

*المقتبس من أخبار أهل الأندلس، القسم الأول من الجزء الثاني ابن حيان القرطبي، خطية مصورة (مدريد، V.J. BEMEJO 1999).

*المُقْتَبِس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق الدكتور محمود علي مكي، بيروت، 1393هـ – 1973(القسم الثاني من الجزء الثاني)

*خطية المكتبة الملكية بالرباط، السِّفْر(الجزء) الخامس. [وقد نشر هذا الجزء، 1981، مدريد ـ الرباط، بتحقيق د. شالميتا و د. محمود صبح].

المقتبس: الجزء الثالث تحقيق الراهب ملشور انطونيه، باريس 1937.

المقتبس في أخبار بلد الأندلس*، ابن حيان القرطبي.

*المُقْتَضَب من كتاب تُحْفَة القادم، ابن الأبار (تحقيق إبراهيم الأبياري، القاهرة، 1957).

*المقدمة، ابن خَلدون ـ(دراسة وتحقيق علي عبد الواحد وافي) القاهرة، 1387هـ = 1967، ج3.

*المكتبات في الإسلام، د. محمد ماهر حمادة،بيروت، 1390هـ = 1971.

*المكتبات وهواة الكتب في إسبانيا الإسلامية، ربيرا، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلد الرابع، القسم الأول، والمجلد الخامس،

القسم الأول .

*__من روائع حضارتنا__، الدكتور مصطفى السباعي،

*__المنّ بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمَة وجعلهم الوارثين__، أبو مروان عبد الملك بن محمد بن حمد بن محمد بن إبراهيم الباجي ابن صاحب الصلاة (بعد 594هـ)، تحقيق الدكتور عبد الهادي التازي، بيروت، = 1383(1964م) .

*__المنتظم__، ابن الجوزي، الجزء الثالث .

*__نصوص عن الأندلس__، العُذري، تحقيق الدكتور عبد العزيز الأهواني، مدريد 1965 .

*__نَقّاضة الجُراب في عَلالة الاغتراب__، لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق الدكتور أحمد مختار العبادي، القاهرة، الجزء الثاني .

*__نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب__، المَقَّري، تحقيق الدكتور إحسان عباس، بيروت 1968 . الأجزاء 1 ـ 5، 7 .

*__الوافي بالوفيات__، خليل بن أيبك الصفدي، تحقيق الدكتور إحسان عباس، أجزاء 4، 5، 7، 1969 /1389 ، إصدار جمعية المستشرقين الألمان، بيروت .

*الوافي بالوفيات مخطوطة (المكتبة المركزية جامعة بغداد، الجزء الثامن) .

* ورقات عن الحضارة العربية بإفريقية التونسية، حسن حسني عبد الوهاب، تونس، الجزء الأول والثاني .

* **وفيات الأعيان**، ابن خِلِّكان، تحقيق الدكتور إِحسان عباس، بيروت، 1968، الأجزاء 1ـ 4.

Andalusian diplomatic relations with Western Europe during the , Umayyad period *، Beirut, 1970.

للمؤلف

قائمة بالمؤلفات : كتب (تأليف وتحقيق)، بحوث باللغة العربية، الانجليزية والإيطالية. عدا المقالات المنشورة في الصحف والمقالات في العديد من البلاد العربية، لاسيما الخليجية وبالذات في دولة الإمارات. يضاف إليها مئات الأشرطة (كاسيت وفيديو).

* إطروحة الدكتوراه منشورة كتاباً بالإنجليزية بعنوان :-
"ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH WESTERN EUROPE DURING THE UMAYYAD PERIOD " - Beirut, 1390 (1970)

والنسخة العربية تحت الطبع (المجمع الثقافي) بعنوان :

"العلاقات الدبلوماسية الأندلسية مع أوربا الغربية خلال المُدَّة الأموية"

* تحقيق ودراسة لسِفْر من كتاب **المُقْتَبس في أخبار بلد الأندلس**، للمؤرخ الكبير إبن حَيّان القرطبي (377-369هـ)، بيروت (1965م). يتحدث هذا الجزء من المقبس عن خمس سنوات (360-364هـ= 971-974م) من أيام الحكم الثاني، المستنصر بالله (350-366هـ= 961-976م).

ونُشر هذا الجزء على نسخة منقولة عن الأصل، وقد فُقد الآن كلاهما. ولديّ صورة للمخطوط المنقول (Microfilm). فكان نَشر هذا الجزء من المقتبس إنقاذاً له من الضياع الأبدي.

* تحقيق ودراسة للنص الجغرافي المتعلق بالأندلس وأوربا من كتاب : « **المسالك والممالك** » ، للجغرافي الأندلسي الكبير أبو عُبَيْد البكري (عبد الله بن عبد العزيز ، 406-487هـ) . ظهر هذا النص تحت عنوان :

جغرافية الأندلس وأوروبا، بيروت (1387هـ = 1968م) .

* **التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة** - دار القلم، دمشق، 1997م .

* **تاريخنا من يكتبه**؟ القاهرة، 1997م .

* **نظرات في دراسة التاريخ الإسلامي**. دار ابن كثير ، بيروت. 1999م .

* **أضواء على الحضارة والتراث** - الكويت. 1987م .

* **مع الأندلس لقاء ودعاء** ، بيروت. 1980م . (رواية لزيارة الأندلس بصحبة نخبة من طالبات جامعة الإمارات العربية المتحدة إلى الآثار الأندلسية) .

* **ابن زيدون السفير الوسيط**، الكويت، 1987م .

* **العلاقات الدبلوماسية بين الأندلس وبيزنطة** (القسطنطينية) ، 2003م (المجمع الثقافي) ، أبوظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة .

* **هجرة علماء الأندلس لدى سقوط غرناطة** (**ظروفها وآثارها**) ، 2003م . (المجمع الثقافي) ، أبوظبي ، دولة الإمارات العربية المتحدة .

* **السيرة النبوية، منهجية دراستها واستعراض أحداثها**، دار ابن كثير، بيروت، 1999م .

* **تاريخ الموسيقا الأندلسية (أصولها ، تطورها ، أثرها على الموسيقا الأوروبية)**، بيروت، 1969م .

* **الحضارة الاسلامية في الأندلس (أسسها، ميادينها، تأثيرها على الحضارة الأوروبية)**، بيروت، 1969م.

* **أندلسيات** (جزآن) – مجموعة بحوث أندلسية، بيروت، 1969م. وقد تم إضافة بحوث كثيرة جعلتهما جزأين كبيرين، والكتاب جاهز للطبع.

* **الكتب والمكتبات في الأندلس** (تحت الطبع). وهو هذا الكتاب.

* **الظاهرة العلمية في المجتمع الأندلسي** (جاهز للطبع).

* **جوانب من الحضارة الإسلامية**، بيروت، 1979م.

* **محاكم التفتيش الغاشمة وأساليبها**، الكويت، 1987م.

* **العز والرفعة والمنافع للمجاهدين في سبيل الله بالمدافع**، تحقيق (تحت التجهيز).

يبدو أنه الكتاب الوحيد في تراثنا عن موضوع المدفعية النظرية والتطبيقية والتعليمية. وفي الكتاب نحو خمسين رسم عن المدافع وأجزائها وأدائها. ولديّ فلم المخطوطة (Microfilm).

هذا الكتاب ألفه بالإسبانية في تونس (موركسي أندلسي هارب من ملاحقات محاكم التفتيش): الرئيس إبراهيم بن أحمد بن غانم بن محمد بن زكريا الأندلسي، المعروف بالربَّاش. ترجمه في تونس إلى العربية زميله ومثيله ترجمة علمية فنية خبيرة، المورسكي الأندلسي، ترجمان سلاطين مراكش: أبو العباس أحمد بن قاسم بن أحمد بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي المعروف بشهاب الدين أو

بالشهاب الحجري وآفوقاي. وأتَمَّ ترجمته في 10 ربيع الثاني 1048هـ (1638م).

* **زهر البستان في نسب أخوال سيدنا المولى زيدان** (بن إسماعيل)، يعد للتحقيق، ابن العياشي: أبو عبد الله محمد بن العياشي (1139هـ = 1726م)، مخطوطة الخزانة العامة بالرباط، رقم: د 2152 (ولدي صورتها).

* **الدليل السياحي الأندلسي** (تحت الإعداد: كتاب مزود بالصور الملونة عن الأندلس وحضارته العمرانية ومواقعها، يفيد كل سائح لاسيما العربي، ويمكن ترجمته إلى اللغات كافة).

* **نصوص تاريخية أندلسية** (مجموعة نقول من كتابي: **المقتبس** والمتين (المفقود)، للمؤرخ ابن حيان القرطبي، مما لم يرد في المطبوع من **مقتبسه**. وتُكَوِّن هذه النصوص مجلداً كبيراً، وهو تحت الإعداد.

* **دراسات اجتماعية وحضارية**، وهي مكونة من عشرات البحوث والمقالات منشورة في المجلات والصحف العربية، لاسيما في دولة الإمارات.

* عشرات المقالات والبحوث والمقابلات المنشورة في كثرة من المجلات العلمية والنشرات والصحف في العديد من البلاد العربية ومنها الخليجية وبالذات في دولة الإمارات العربية المتحدة.

* مجموعة بحوث منشورة في عدة مجلات باللغة الإنجليزية والإسبانية والإيطالية، تحت عنوان (Studies on Andalusian History)، وهي:

* "INTERMARRIAGE BETWEEN ANDALUSIA AND NORTHERN SPAIN IN THE UMAYYAD PERIOD" The Islamic Quarterly (published by "the Islamic Cultural Center" , Regent.s Lodge 146 park road, London N.W. 8,England) , Vol. XI, Nos. 1/2, 1387/1967.
* "AL- TURTUSHI THE ANDALUSIAN TRAVELLER, AND HIS MEETING WITH POPE JOHN XII" The Islamic Quarterly, Vol. XI, Nos. 3/4, 1387/1967.

ثم نشر بالإيطالية في :

"RIVISTA STORICA ITALIANA", NAPOLI, ANNO LXXIX, FASC. 1, 1967, PP.164-173.

* نقد (REVIEW) ، لكتاب :

* "A HISTORY OF ISLAMIC SPAIN, MONTGOMERY WATT" , The Islamic Quarterly, Vol. X, Nos. 3/4, 1386/1966.
* "POLITICAL RELATIONS BETWEEN THE ANDALUSIAN REBELS & CHIRISTIAN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD", The Islamic Quarterly, Vol. X, Nos. 3/4, 1386/1966.
* "CHIRISTIAN STATES IN NORTHERN SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD" , The Islamic Quarterly, Vol. IX, Nos. 1/2, 1385/1965.
* "POLITICAL RELATIONS OF ANDALUSIAN REBELS WITH THE FRANKS DURING THE UMAYYAD PERIOD" The Islamic Quarterly, Vol, XII Nos. 1/2, 1388/1968.
* "DIPLOMATIC RELATIONS BETWEEN ANDALUSIA AND ITALY DURING THE UMAYYAD PERIOD" , The islamic Quarterly, Vol. XII , No. 3, 1388/1968.

ونشر بالإيطالية في :

RIVISTA STORICA ITAIANA (Napoli, Italy), 1967, anno, LXXIX, fasc.1.
* "IBRAHIM IBN YAQUB AL - TURTUSHI, ANDALUSIAN TRAVELLER" The Islamic Culture (Published by the Islamic Culture Board, Hyderabad - Deccan, India) Vol . XL, Nos. 1/2, Jan. 1966.
* "ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH CHRISTIAN

SPAIN DURING THE UMAYYAD PERIOD" Journal of the Pakistan Historical Society)Karachi 5, Pakistan), Jan, 1966, VoL XIV , pt 1.

* "THE ANDALUSIAN DIPLOMATIC RELATIONS WITH THE VIKING DURING THE UMAYYAD PERIOD" Hesperis - Tamuda (Rabat, Morocco) VoL. III, 1967.

* "THE MORISCOS IN THE ANDALUSIAN REFERENCES AND MANUSCRIPTS" (In press).

الأحاديث

فهرس الألفاظ